

الفيل

التاريخ الطبيعي والثقافي

دان وايلي

ترجمة: جولان حاجي



سلسلة الحيوانات



الفيل

@ketab_n

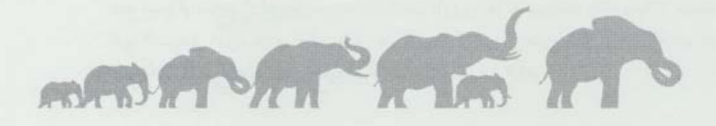
التاريخ الطبيعي والثقافي

تأليف: دان وايلي

ترجمة: جولان حاجي

مراجعة: د. أحمد خريس

سلسلة الحيوانات



الفيل

التاريخ الطبيعي والثقافي

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

QL737.P98 W9512 2012
Wylie, Dan
[Elephant]
الفيــل / تأليف دان وايلي؛ ترجمة جـولان حاجي.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2012.
ص 223 : 19×13.5 سم.
ترجمة كتاب: Elephant
تدمك: 978-9948-01-682-3
1 - الفيل. 2 - الحيوانات.
أ-حاجي، جولان.

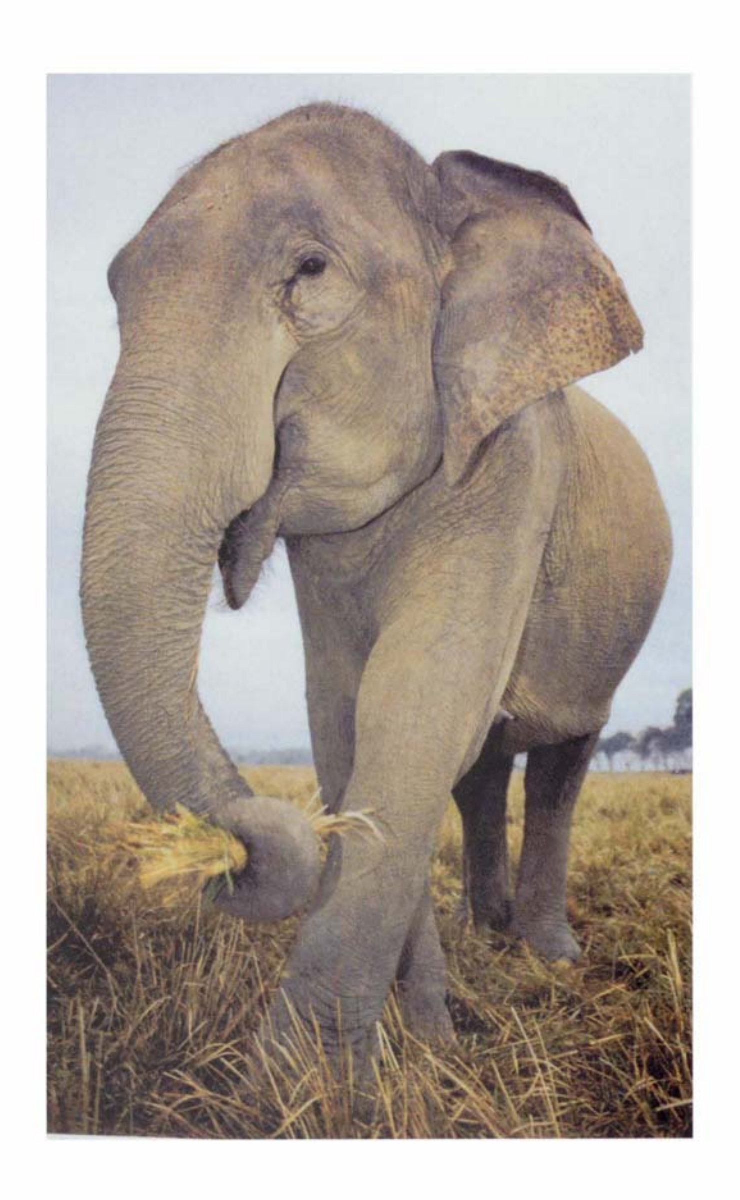
يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Elephant by Dan Wylie was first published by Reaktion Books in the Animal series, London, UK, 2009



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

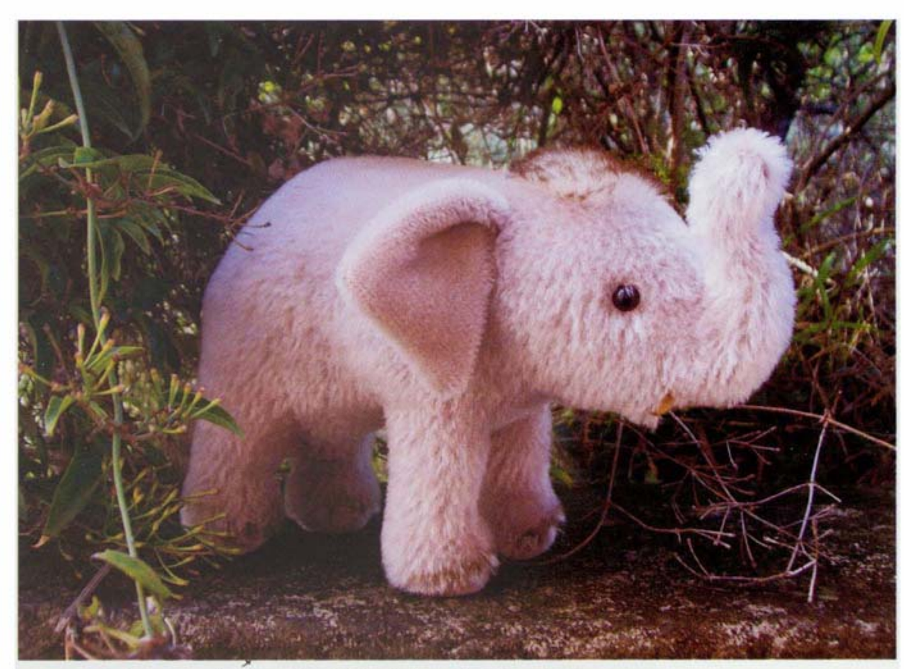
المحتويات



1 - الخرطوميات

دعوني أبدأ بمسقط رأسي الذي يقبع على الجروف الساحلية لمقاطعة كيب الشرقية في جنوب إفريقيا. لقد أمضيت هناك حتى الآن قرابة خمسة عشر عاماً باحثاً وناشراً في مجال تاريخ الزولو المبكِّر، ولم يصدف مرة واحدة طوال ذلك الوقت أن أعطاني أحدٌ تذكاراً أو قطعة فنية تتعلق بالزولو. إلا أنني، وفي غضون أشهر من إعلاني عن انخراطي في أبحاث الفيلة، وجدت كوخي يفيض «بأشياء تتعلق بالفيلة» elephantiana: قمصان (تيشرتات)، وتقاويم، وكؤوس، وأغطية وسائد، وبطاقات بريدية مصنوعة من ورق مكرر عن مخلَّفات الفيلة، وحاملة مفاتيح من سنغافورة، ومنحوتة حجر صابونيّ من زمبابوي، وتمثال صغير للإله غانيش من مومباي ودمية من دمى ستايف المحدودة ألمانية الصنع، ودمية مكسوّة بالفرو يقتنيها هواةُ تجميعِ مثل هذه الأشياء منسوخة عن صورة فيل هندي رضيع «كاندولا»، ولِد في حديقة الحيوان الوطنية في واشنطن دي سي عام 2001 وسمي كاندولا وهي كلمة سريلانكية تعني «القوة» على اسم واحد من الفيلة الحربية في سريلانكا. مما يظهر شدة ولع الكثير من الناس بالفيلة، ويظهر أيضاً كثرة رواج صور الفيل تجارياً؛ على الرغم من تناقص أعداد الفيلة الحقيقية في أرجاء العالم تناقصاً سريعاً.

إنَّ بحوزة كل من أكلمهم تقريباً قصة عن الفيل، أو بوسعه أن يخبرني عن كتاب آخر أو لوحة أو تحفة فنية objet d'art تتعلق به. ربما تشغل الفيلة وعي الناس على الأرض على نحو عميق وعاطفي أكثر من أية أنواع أخرى، باستثناء الكلاب والقطط، ولهذا سامحوني إذا ما أغفل هذا الكتاب حيوانكم الشخصي المفضَّل.



ولد كاندولا في حديقة حيوان واشنطن، وقد سمي على اسم فيل حربي سيلانيّ شهير، ويتم تسويقه بوصفه شيئاً محدود العدد وأثيراً بين هواة تجميع مثل هذه الدمى الطرية.

منذ قرنين، كان السهل الساحليّ الذي أُحدّق عبره يكاد يحتشد بالفيلة. ولكنّ صيادي العاج الأوروبيين و«الرياضيين» قد أبادوها. وأنا الآن ممتنٌّ إذ بوسعي أن أقود سيارتي غرباً مدة ساعة إلى حديقة الفيلة في آدو، حيث يمكنني أن أراقب بهدوء، وعلى مقربة ذراع مني تقريباً، ما يزيد على أربعمئة سليل يتحدر مما تبقى من فصيلة الفيلة الوحيدة التي كانت تعيش في هذه المقاطعة.

وفي التلال الواقعة وراء مدينة يوتينهيج الصناعية، ليس ببعيد عن آدو، توجد رسوم صلصالية للفيلة على جدار كهف قام فنانو الأدغال، أو فنانو قبيلة سان، بتنفيذها منذ بضع مئة سنة على الأرجح. مما يعني أنّ هناك فنّاً آخر من فنون الأدغال في إفريقيا الجنوبية يعود تاريخه إلى حوالي 25000 سنة، ومما لا شك فيه أن

الكائنات البشرية التي كانت تتطور في المليون سنة التي سبقت هذا التاريخ قد عاشت إلى جوار الفيلة التي كانت تتطور بدورها. وبحسب ما يتوافر لدينا، يمكننا القول إن كليهما قد بدأ في إفريقيا.

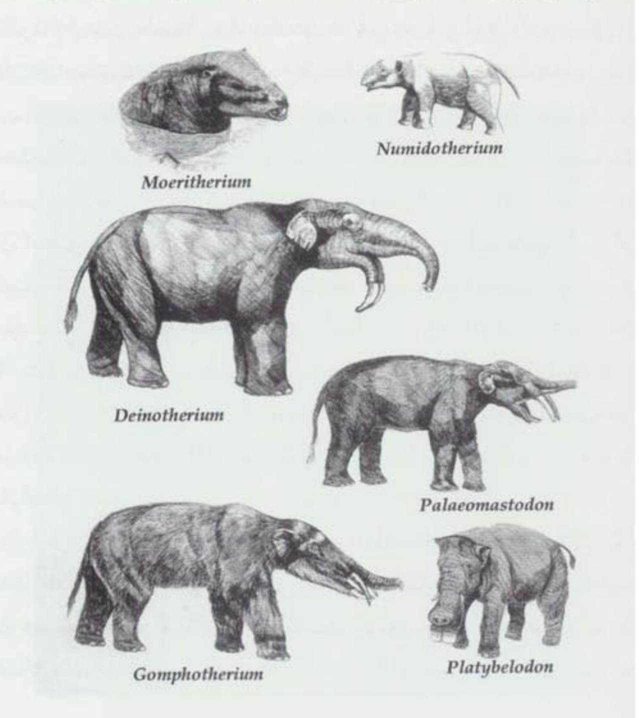
ولا يتوجب عليّ الابتعاد عن كوخي كي أعثر على صخور محلية تعيش في شقوقها الأشكال البدينة المتراكضة لأشد المخلوقات الحية قرباً إلى الفيل، أي الكُوْنيِّ الصخري أو الزلم، ويعرفان محلياً باسم الداسي dassie. ولعلّ في هذا الأمر ضرباً من ضروب الخيال، إذ إنّ كلمة «الأقرب» كلمة مضللة؛ فالفيلة وحيوانات الداسي تعود إلى سلف مشترك لم يُعرف بعد وكان يحيا منذ حوالي 60 مليون سنة. ومما يبعث على الدهشة هو أن الأمر كذلك بالنسبة إلى خراف البحر أو بقر البحر. فلقد صُنِّفت الفيلةُ ذات مرة، لأسباب واضحة، ضمن مجموعة واحدة مع وحيد القرن وأفراس النهر تحت اسم «الجسئيات»، أي «ذوات الجلد السميك». وهناك مجلة أكاديمية كبرى لا تزال تُدعى «الجسئية»، وهي تنشر الدراسات عن وحيد القرن والفيلة الإفريقية (ولكنها، يا للغرابة، لا تتطرق إلى الفيلة الآسيوية)، رغم أن هذا التصنيف قد بات في عداد تاريخ التصنيف العلميّ. غير أنّ الصلات التي تجمع الفيل بالزلم وخروف البحر، استناداً إلى بنية القدم والأسنان، تتأكد الآن من خلال دراسات الـ DNA، بالإضافة إلى استمرار اكتشاف المستحاثات الانتقالية على سواحل إفريقيا الشمالية. وهناك، في المياه الضحلة لبحر تيثيس، وهو السلف الجيولوجي للبحر الأبيض المتوسط، تطوّرت خراف البحر في البيئة المائية الراهنة الملائمة لها.

يبدو أن أكثر أسلاف الفيلة وضوحاً – الخرطوميات أو الثدييات ذوات الخطم الخرطومي– قد ظهرت أولاً في إفريقيا الشمالية أيضاً. على الأقل عُثر هناك على أقدم المستحاثات التي يناهز عمرها 40 مليون سنة في مصر، في رمال الفيوم التي كانت ذات مرة غوراً

خصباً في تلك الأرض. وعلى أية حال، ليس واضحاً فيما إذا كانت هذه المخلوقات الشبيهة بفرس النهر، البريّة والبرمائية على الأرجح، أي moeritheres، خرطوميات حقيقية؛ فالشكوك نفسها تكتنف حيوانات barytheres المعاصرة، على الرغم من قواطعها الممتدة التي ستتطور لتصبح أنياب فيلة، ووجود بدايات جهاز «الحزام الناقل» الذي يخص الأسنان الساقطة.

من الواضح أن عائلة الخرطوميات قد تجلّت للعيان حقاً في العصر الميوسيني (منذ 24 مليون سنة)، وقد ابتكر اسم الخرطوميات «Proboscidae» من قبل عالم الطبيعة الألماني كارل إلليغر عام 1811 (pro = إلى الأمام، boskein = الفم). ومن ثم انتشرت الـ deinotheres، أي «الوحوش المرعبة»، من إفريقيا الوسطى شمالاً وجنوباً ووصولاً إلى أوروبا الشرقية، وُسميت بهذا الاسم، لكونها تملك أربعة أنياب مخيفة، فضلاً عن جماجمها التي أظهرت كل الدلائل على كونها مزودة بخرطوم أصيل، ورغم ذلك فإنها ليست بأسلاف مباشرة للفيل رغم أنها دامت 20 مليون سنة تبعث على الدهشة. وخلال هذه المدة الطويلة طرأت عليها تغيّرات بسبب تغيرات المناخ والحياة النباتية؛ فكبر حجمها بشكل رئيسي، وبلغ ارتفاع بعض فصائلها أربعة أمتار، وتقزّم Deinotherium giganteum إلى فيل حديث، وأصبح له نابان مقوّسان نحو الأسفل يستخدمان في الحفر على الأرجح. كما رافقت تلك التغيرات تغيرات في الأسنان أيضاً، فأصبح ما يميز الطواحن باضطراد حوافٌّ ملائمة للجزّ عرفت باسم (hypsodonty). وقد تشكلت هذه الطواحن نتيجة نضوب الموارد خلال العصر الميوسيني في البداية، الأمر الذي أرغم الحيوانات على التأقلم مع ظروف المراعي المترامية وتزايد مشقّة الرعي، بعد أنْ أتاحت جسور اليابسة فرصاً جديدة أمام الهجرة.

ونشأت في إفريقيا خرطوميات أخرى أيضاً تعود إلى العصر الميوسيني، واستعمرت في النهاية كل مساحات الأرض باستثناء جزر غرينلاند والقطب الجنوبي وأستراليا. وكانت من بينها حيوانات الـ Stegodontidae التي تبقى علاقتها التطورية الدقيقة بالفيلة الحقيقية موضع جدال نسبيّ. فقد تطور الـ stegodon الأكثر شهرةً، Stegodon ganesa، في آسيا، بالتزامن مع مسارات الفيلة الإفريقية، ولهذا سمّي باسم الإله الهندوسي غانيش الذي له رأس فيل. ومع ذلك، ومن دون وجود خط وراثيّ مباشر، أظهر S. ganesa العديد من السمات المميزة للفيل، من ضمنها الأنياب الطويلة والرشيقة – ولعل هذه حالة من التطور المتقارب. وقد زاد



أسلاف الفيل: صفحة من كتاب رامان سوكومار «الفيلة الحية»، رسمها ج. راميش.

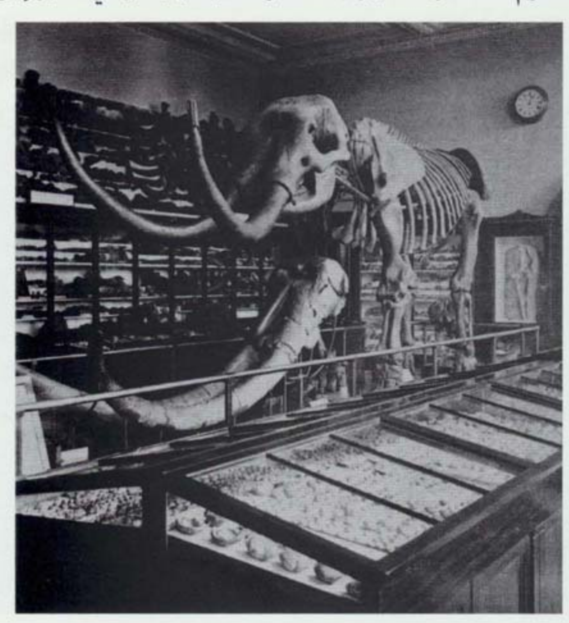
من تعقيد الصورة المستحاثاتُ التي كشف عنها التنقيب مؤخراً في الحفر الرملية في تايلاند والصين، حيث يشير التصوير الطبقي المغناطيسي الذي يحدد عمر طبقات الرواسب بدقة أكبر من ذي قبل إلى أنّ بعضاً من هذه الـ stegodontids يفوق أكثر النماذج الإفريقية تقادماً في التاريخ، ولهذا ربما اتخذت بعض الهجرات منحى مختلفاً. فضلاً عن ذلك، فقد هاجرت أنواع ثانوية من stegodontids، التي لم يُحسم تصنيفها بعد، وتمايزت في أرجاء الصين وصولاً إلى الجزر اليابانية[i].

وكانت هناك أيضاً حيوانات gomphotheres الشبيهة بالخنزير، والمسماة تسمية ثقيلة الوقع (من gomphos أي «الرتاج»، بسبب صلابتها، وtheiron أي «حيوان بري»). وتشكل الـ gomphotheres مجموعة من السمات التي يعوزها التماسك، وقد سماها عالم الأحياء المختص بالفيلة ياسكل شوشاني، ضرباً من «سلة المهملات» التي يمكن أن يُرمى فيها كل ما لم نستطع تصنيفه ضمن عائلة ما[ii]. وهناك أنواع أخرى أيضاً من الـ gomphothere ازدادت ضخامة بمرور الوقت، ربما كي تتكيّف مع اضطرارها إلى أكل كميات أكبر من أطعمة فقيرة بالعناصر الغذائية. ويميز شوشاني بين مجموعتين واسعتين: ذوات الفك القصير، وذوات الفك الطويل. لقد كانت لدى ذوات الفك الطويل أو «ذوات الأنياب الشبيهة بالمجرفة»، مثل Platybelodon أنيابٌ سفلية ممتدة بطريقة غريبة على شكل مجارف، تستخدمها، كما قد يتخيل المرء، من أجل نبش النباتات في المياه الضحلة.

أما ذوات الفك القصير فتضمنت الماموث الأمريكي Mammut americanum أو المستودون. وقد بدأ التنقيب عن المستحاثات، في هذا المضمار، بالتّحسّن؛ فقد استخرجت من مستنقعات أمريكا هياكل عظمية كثيرة تعود إلى العصر البلستوسيني، ولعل أشهرها

مناجم القطران في لابريا، التي تحيط بها الآن مدينة لوس أنجلوس. كان للمستودون أنياب على كل من الفك العلوي والفك السفلي، وفي بعض الأحيان قد تصل الأنياب العليا الشديدة التقوس إلى 3 أمتار طولاً و25 سم قطراً. كانت أسنانها متميزة بوضوح عن أسنان الماموث والفيلة الحقيقية الأخرى، إذ كانت لها حدبات مدورة عالية (وفي الواقع، هذا هو السبب في تسمية المستودون بهذا الاسم: mastos تعني «حلمة»).

وفي الوقت نفسه كانت هناك أنواع أخرى من الخرطوميات ترتحل من إفريقيا، ولا سيما في أثناء العصر البليوسيني. وقد يندرج فيها ذاك الشكل الوسيط المعروف باسم Primelephas أي «الفيل الأول». كما أنّ هناك ثروة من المستحاثات التي استخرجت في إفريقيا على تخوم الصحراء الكبرى، خصوصاً في كينيا، وهي تشير إلى أن

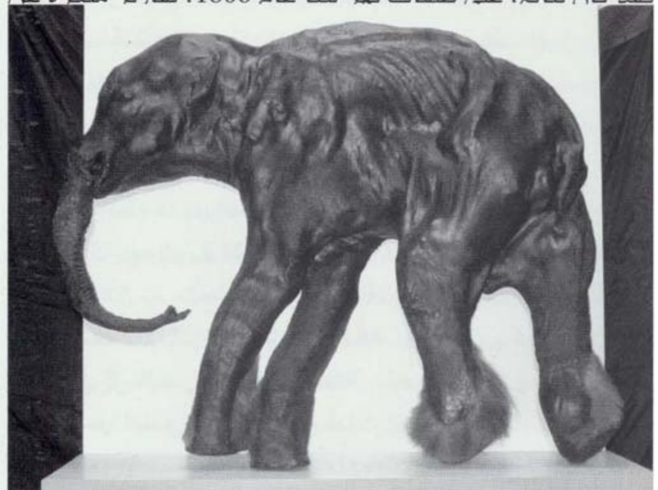


الهيكل العظمي للمستودون المعروض سابقاً في المتحف البريطاني، لندن، صوره فريدريك يورك في سبعينيات القرن التاسع عشر.

هذا السلف قد تطور على الأرجح من الـ gomphotheres وليس من الـ Stegodontidae. ويصعب قول ذلك على أية حال، إذ كانت هناك أنماط كثيرة متزامنة لها في التطور. ولحين من الوقت، تغلب «المكثرون من التفاصيل» في صفوف المصنِّفين على «الذين يؤيدون التقليل منها»؛ ففي ثلاثينيات القرن العشرين ميّز عالم الطبيعة الشهير هنري أوسبورن بين 350 فصيلة من الخرطوميات. واليوم، بعد أن ساد شيء من الحكمة، لا يزين شجرة عائلة الخرطوميات إلا 163 فصيلة مختلفة ضمن 39 صنفاً. ولكن، كما يلاحظ ياسكل شوشاني، هناك شيء من الذاتية ماثل دائماً في تفسير باقي الفصائل التي يتعذّر تصنيفها على نحو لا مناص منه(iii).

تأسست عائلة الفيليات Elephantidae عام 1821 على يد ج. إي. غراي. كانت هذه العائلة التي تطورت خلال أواخر العصر الميوسيني، فريدة التنوع وتتضمن حوالي 22 صنفاً من الأصناف الـ 39 المعروفة، فهي تتضمن الماموث المكسوّ بالصوف، ومن خلال ما تألفه ناشئتنا اليوم من خلال شخصية ماني النزقة الساحرة، وأكا الثقيل، في أفلام الصور المتحركة «العصر الجليدي». والماموث موضوع روايات عديدة تمتد من رواية ج. هـ. روزني «البحث عن النار» (1911)، إلى رواية جان م. أويل «صيادو الماموث» (1986). كما كان موضوعاً لفنانين مسحورين به، من رسامي الكهوف في العصر النيوليثي إلى رودولف ف. زالينجر، الذي يهيمن ماموث على لوحته الجدارية «عصر الثدييات» المعروضة في متحف بيبودي للتاريخ الطبيعي في ييل في نيو هيفين كونكتيكت. وقد تحولت رواية «البحث عن النار» إلى فيلم عام 1981، وهو يسرد قصة قطيع من الفيلة التي ألبسوها كسوات رثة كي تشبه الماموث، يقدم لها النياندرتاليون حفنات من العشب كي يهدؤوا روعها، ولكنهم يرغمونها على الذهاب

كي تسحق أعداءهم. وكما قال إيريك سيليانو في كتابه البديع «الحب والحرب وحلبات السيرك»، فإن المشهد «شديد السخف، ولكنه يشير إلى شيء حقيقي للغاية: ألا وهو ولع البشر بالفيلة وانسحارهم الراسخ بها»[iv]. لقد أمسى الماموث كناية عن الضخامة، فهو أثقل من فيل إفريقي حديث بحوالي سبعة أطنان، ومما يزيد من مهابته كسوته الصوفيّة وأنيابه الملتفة، ولنضرب هنا مثالاً واحداً فقط، وهو أنّ مغارة ماموث في كنتاكي لا تمتّ البتة بأية صلة إلى الحيوانات – إنها ضخمة فحسب. (ناهيكم عن «تنزيلات الماموث» في محلات بيع الأثاث المحلية لديكم...) نشأت فيلة الماموث في إفريقيا أيضاً، لكنها أمست على صلة وطيدة بالنصف الشمالي من الكرة الأرضية، حيث عُثر في كل من أمريكا الشمالية وسيبيريا على أجسام كاملة متجمّدة متصلبة في الجليد الدائم، محتويات بطونها سليمة ولا يزال لحمها قابلاً للأكل. وكان الاكتشاف المبكّر الذي تحقق على يد عالم نبات اسكتلاندي اسمه مايكل آدامز واحداً من أشهر الاكتشافات، فقد كان يتابع، على ضفاف نهر لينا عام 1806، تقارير مبكرة عن



قالب لـ «ديما»، وهو ماموث رضيع استخرج من جليد سيبيريا؛ لاحظ الكواحل المكسوّة بالشعر.

عثور شعب تونغو عام 1799 على جسم ماموث كاملٍ بجلده وشعره متجمد في حائط جليدي، لكنّهم تحاشوا لمسه، معتقدين أنه ملعون. وفي الواقع، أفردت الشعوب البدوية في كل من سيبيريا والصين منزلة أسطورية لفيلة الماموث. فقد روى المدعو «بابا» علم الحيوان الوصفيّ ألفريد إيدموند بريم، أنّ بعض الصينيين اعتقدوا، تفسيراً منهم لأكوام من العظام العملاقة، أن فيلة الماموث كانت جرذاناً عملاقة تعيش تحت الأرض «آذاها ضوء الشمس» و«سرعان ما نفقت عندما خرجت إلى الهواء الطلق»[v]، وقد نقل هذا الاعتقاد رحّالة هولندي اسمه نيكولاس فيتسن عام 1692؛ ويقال إن فيتسن هو من نحَتَ كلمة الماموث، وعلى الأرجح بناء على كلمتين روسيتين أو إستونيتين مشتقتين من «مامّا» mamma أي الأرض، و«موتّ» mutt أي الجرذ.



رسم ماموث على صخرة، موسوم عادة «بأقدام ضخمة»، ولكن من الواضح أنه رضيع ذو كواحل مكسوّة بشعر كثيف

وأياً كان الأمر، فقد انتصر الجشع على اللعنة المزعومة في حالة آدامز؛ فباع زعيم التونغو الأنياب لقاء مبلغ زهيد، ولعلها أولُ صفقة مسجّلة عن بيع عاج الماموث، (وبعد ذلك بوقت طويل، عندما جوبهت المتاجرةُ بعاج الفيل عام 1989، بدأ تداول عاج الماموث على نطاق أوسع)، وقد ترك التجار الجشعون لآدامز كومة ضخمة من العظام والجلد والفرو. فجمع من الفرو حوالي 38 رطلاً، وبلغت بعض شرائطه قدمين طولاً – «وهذا دليل لا يمكن دحضه على أن الماموث كان يعيش في مناخ بارد»، كما كتب بريم[vi]. ويوجد الهيكل العظمي الآن في متحف الماموث في ياكوتسك حيث عُثر، كما يفيد موقع المتحف الإلكتروني بطريقة جذابة، «في أحشاء ياكوتيا على قسم مهم من كل اللقى الفريدة المتعلقة بالماموث»[vii]. وهناك جثمان شهير آخر اسمه «ديما»، وهو ماموث رضيع اكتشف على ضفاف نهر كوليما في سيبيريا، وكان سليماً بحيث أمكن استخلاص الخلايا

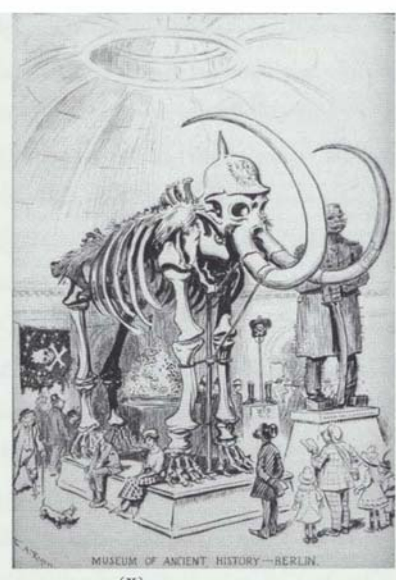
الدموية والبروتينات المفردة من أجل تحليلها. وقد قام فريق كندي أمريكي يرأسه ستيفان شوستر بتحديد بعض متواليات الـ DNA في مادة تعود إلى الماموث عمرها 28 ألف سنة[viii]. لقد مهّد هذا الإنجاز لفكرة تسبق أوانها على الأرجح، تفيد بأن فيلة الماموث يمكن استنساخها أو بعثها بشكل من الأشكال.

ولقلما تراجعت المتعة التي تثيرها مثل هذه الاكتشافات، حيث اصطدام العلم الغربي بالثقافات المحلية. فقد كان صيادو منطقة دولغان البدو في شبه جزيرة تايمير السيبيرية سعداء عندما يرشدون صيادي المستحاثات إلى رفات الماموث، ولكنهم لا يزالون يعدونها جرذاناً ضخمة تشبه الخلد وتكمن فيها طاقة قادرة على إنزال اللعنة بالجماعات التي تقلق راحتها؛ ففي عام 1999، وعندما نقل الماموث المدعو ياركوف بالطائرة، سليماً في مكعب جليديّ يزن 23 طناً، كي يتم حفظه في كهف جليديّ يبعد 322 كم، نحر أهالي دولغان استرضاءً للأرواح وعلَ رنّة أبيض ثميناً[ix]. (وعلى العكس منهم، صنع الأمريكيون فيلماً من هذه الحكاية «رفع الماموث»، يرويه جيف بريدجز). ولا يعني هذا أن الغرب كان منيعاً حيال الأساطير البرية، فمنذ عصر القديس أوغسطين فصاعداً، استخدمت عظام الماموث طويلاً في تأييد العلم الزائف المسمى «علم العمالقة» giantologie، وهو العلم الذي يُعنى بدراسة ذاك الزمن الأسطوري الذي يزعم أن الأرضَ كانت فيه مأهولة بعدد كبير من العمالقة.

إلا أن أكثرَ الأسئلة إثارة للفضول بقي قائماً وهو: ما الذي تسبب بالفناء المباغت لفيلة الماموث؟

تقدم بريم بهذا الجواب المُحكم عام 1860:

ليس بوسع أحد تفسير الاختفاء المفاجئ للوحوش في هذه المنطقة. فقد استأنس بعض الناس، استناداً إلى البقايا النباتية، فسروا الظاهرة بفكرة تحول مفاجئ في محور دوران الأرض؛ وذهب



كاريكاتير رسمه و. ا. روجرز عام 1917 في التعبئة الدعائية الأمريكية أثناء الحرب، يقرن بشكل متفائل بين تهديد هيندنبورغ العسكري و«متحف التاريخ القديم في برلين».

آخرون إلى فرضية طوفان غمر سيبيريا[x].

وبعد قرن، استخدم عمانويل فيليكوفسكي في كتبه سيئة الصيت «عوالم تتصادم»، اختفاء الماموث كدليل على انحراف مباغت وكارثي في محور الأرض. وبإمكانكم أن تقرأوا آخر المرويات عن سيناريو طوفان ما بعد توراتيّ واسع الاطلاع ولكنه يفتقد إلى الإقناع، كتبه المؤمن بعلم الخلق «مايكل أورد» على الموقع الإلكتروني «الأجوبة في سفر التكوين» (يحرص فيه أورد على تلافي ذكر تاريخ أي شيء، ويخفق في تفسير كيف تسنى للماموث الضخم – أو الفيلة – الدخول إلى فُلك نوح)[xi].

وتتواصل السجالات؛ فتغيراتُ المناخ باتت من المؤكد جزءاً من القصة، وإنْ كنا نعلم الآن من خلال حقبتنا هذه التي ارتفعت فيها حرارةُ الأرض، أنّ التأثيرات المناخية قد تنحصر في مناطق جغرافية معينة وقد تكون نتائجها متناقضة للغاية. فمنذ قرابة مليوني

سنة، حلَّ عصر جليدي وجيز تخللته فترات دفء، فخنقَ الجليدُ إسكندنافيا وبريطانيا وكندا، وانخفضت مستويات البحر، وتشكّلت جسور اليابسة بينما انفصلت مناطق أخرى، كما تبدلت النباتات واشتد التنافس على الغذاء. وهذا كلّه أدى إلى «انتشار الفيليات elephantids في رقعة جغرافية كبيرة، وأسهم في تحقيق نسبة عالية من التطور الارتقائي والنوعي».

وعلى أي حال، كما يردف رامان سوكومار، «في نهاية المطاف، سرعان ما انسدلت الستائر أيضاً على طيف محير من الخرطوميات، يمتد من الفيلة القزمة التي لا تختلف عن الـ moeritheres من حيث الحجم إلى فيلة الماموث الشاهقة»(xii).

لا تقتصر المسألةُ فقط على تقهقر فيلة الماموث أمام الكتل الجليدية الكاسحة، مثلما يقترح فيلم الصور المتحركة «العصر الجليدي».

يقول بعض المتجادلين إن السبب الحقيقي كان فترة دافئة منذ 13،000 سنة قضت على العمالقة المكسوّة بفرو كثيف — فقد طرأ ارتفاع على الحرارة مباغت ومريع يقدر بحوالي 6 درجات في غضون عشر أو عشرين سنة فقط. ولكن يتعيّن علينا أيضاً تفسير الانقراض الواضح والمتزامن لعدد كبير من الثدييات الأخرى (وصل إلى 90 بالمئة في بعض المناطق)، بالإضافة إلى اندثار الخرطوميَّات في أزمنة مختلفة في قارات أخرى تتضمن أمريكا الجنوبية وإفريقيا. وقد اقترح كلٌّ من ديفيد ويب وديل غوثري وريتشارد كيلتي وآخرون سيناريوهات متنوعة مبنيّة على التغيرات السريعة في توافر النبات في حقبة ذات تقلبات مناخية أشد ضراوة. وعلى الرغم من هذا يبدو أن بعض فيلة الماموث قد بقيت على قيد الحياة بضعة آلاف سنة أخرى؛ فبقاياها في جزر

رانغل في سيبيريا القطبية تعود إلى 4000 سنة فقط.

وبالطبع، هذا يعني أنّ فيلة الماموث قد تقاسمت بيئاتها مع البشر، والدليل قائم في عدد من الأمثلة تعود إلى الفن الصخري النيوليثي في أوروبا، ولا سيما المثال الجميل في بيش ميرل في فرنسا. ومن المرجّح، أيضاً، أنّ هيمنة البشر، في بعض المناطق على الأقل، كانت عاملاً ساهم في انقراض الماموث، فقد عثر خادم فرنسي، اسمه جاك بوشيه دو بيرت، على عظام ماموث مكسو بالصوف راقد إلى جوار أدوات من صنع الإنسان في موقع وادي نهر سوم في منتصف القرن التاسع عشر، وتتكون هذه الأدوات من سهام حجرية، ورؤوس رماح ذات مقابض طويلة استخدمتها شعوب كلوفيس أو هنود باليو، وقد وُجدت هذه الأدوات إلى جوار بقايا الماموث في أرجاء أمريكا الشمالية، ويعود تاريخُها غالباً إلى حوالي 11،000 سنة، وفجأة تحلّ محل هذه الأشياء في الطبقات الآركيولوجية أسلحة أصغر حجماً من ثقافة الفولسوم، يرافقها رفات أنواع أصغر حجماً، مما يوحي بأن فيلة الماموث قد انقرضت نهائياً في هذا الوقت. وفي عدد من الأماكن على كوكب الأرض، يتزامن اختفاء حيوانات ضخمة megafauna متنوعة مع ظهور البشر تزامناً واضحاً. استخدم بعض الدارسين التخطيط بواسطة الكمبيوتر كي يبينوا أن عصبة صغيرة نسبياً من البشر، ولكنها ذات امتداد واسع، قد يكون لها تأثير مدمر على تجمّعات الحيوان، مما حدا بعالم الأحياء بول مارتن إلى تسمية هذا التأثير بنظرية «الحرب الكاسحة».

ومن جهة أخرى، افترض روس ماكفي وبرستون ماركس أن فيلة الماموث قد تعرضت «لمرض شديد» ما نقله إليها البشر. ومردُّ هذا الافتراض جزئياً إلى عدم وجود دليل قاطع ملموس على اصطياد البشر للماموث بمثل ذاك الإفراط، على الرغم من أمثلة لا يعوزها الوضوح عن هذا الاصطياد في جيرسي في جزر القناة وفي ألمانيا.

وربما كفاهم غالباً الانتفاع بجثمانات فيلة الماموث التي ماتت موتاً طبيعياً، أو سلبوها صغارها الضعاف كي يكبحوا معدلات تناسلها. ويلخص هذه المسألة عالم الأنثروبولوجيا غاري هينز من جامعة نيفادا في رينو قائلاً: «إنّ الاستنتاج الجازم الذي يلقي باللوم المطلق في انقراض الخرطوميات على صيادي كلوفيس، هو محض انتصار أدبيّ، ولكنه مستحيلٌ من الناحية العلمية»[xiii]. وعلى الأرجح كانت هيمنة الإنسان على هذا المصدر المتحرك العملاق لكل من الغذاء وصناعة الأدوات هي الضربة القاضية في ظل وضع مناخي حرج.

تقترح أحدث النظريات، على الأقل في أمريكا الشمالية، أن فيلة الماموث إلى جوار أنواع أخرى تضمنت البشر في كلوفيس، قد أبيدت إثر ارتطام مذنب بالأرض أو بالأحرى ارتطام وشيك. ويكمن الدليل في طبقة رقيقة من مادة مكربنة –لا تحتوي شيئاً من الإيريديوم الذي يترافق مع النيازك- يمكن اكتشافها عبر مساحات شاسعة من القارة، ويعود تاريخ جميعها إلى حوالي 13،000 سنة[xiv].

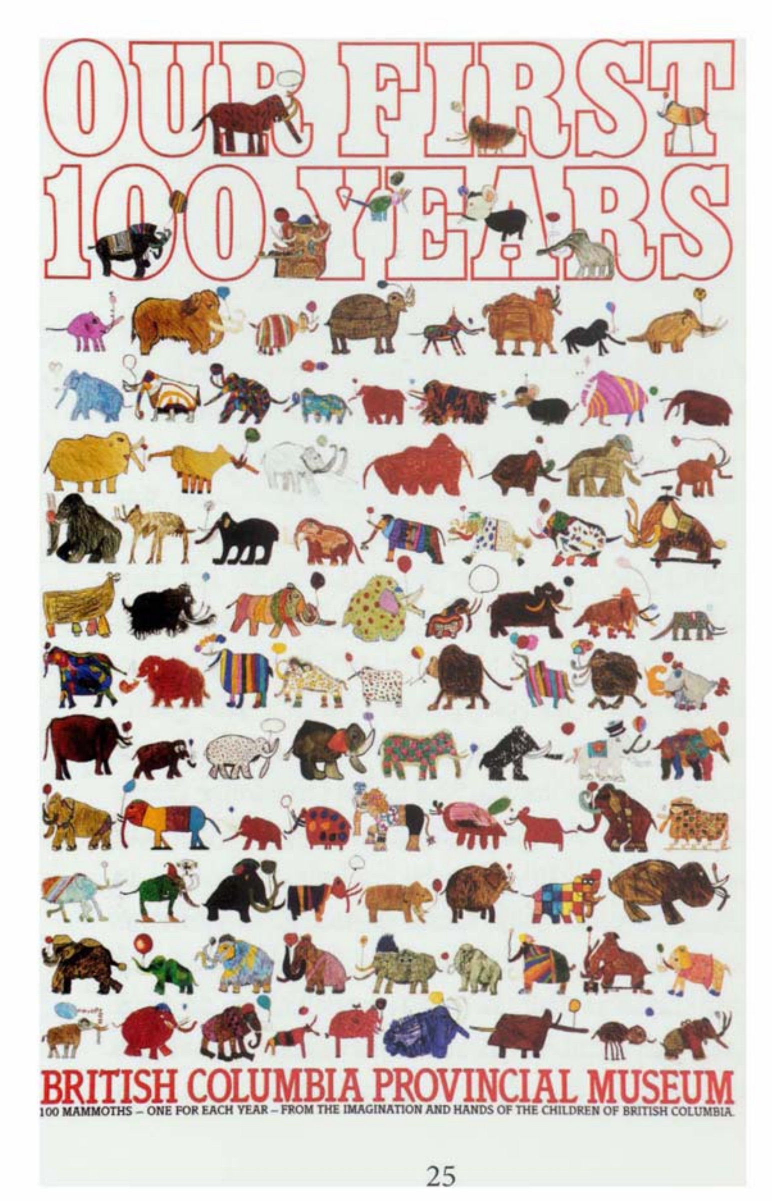
لقد أصبح الماموثُ العاديّ المكسوّ بالصوف «Mammuthus primigenius» على صلة وطيدة بغابات التوندرا الشمالية (شاهد الملصق الساحر المصمم من قبل المتحف الإقليمي البريطاني في كولومبيا)، مما حجب الأنظار عن ظهور أنواع مختلفة من الماموث في أمكنة أخرى أيضاً. إذ كان ماموث السهوب الروسية «M.trogontherii» يجوب مراعي أوروبا وأراضي الغابات في إنجلترا؛ أما الماموث الكولومبي «M. columbi» فكان أضخمها جميعاً وهاجر إلى أقاصي الجنوب وصولاً إلى المكسيك. ومما يثير المزيد من الانتباه عزلةُ بعض فيلة الماموث وأفيال elephantids أخرى على جزر متنوعة مثل: سومطرا وأندونيسيا و صقلية ومالطا، ومال حجمها نحو الازدياد ثم تضاءلت بمرور الوقت، حيث كان ارتفاع الفيل القزم «Elephas Falconeri»، الذي عثر عليه في عدة

الصفحة المقابلة
قام المتحف الإقليمي البريطاني في كولومبيا، كندا، بتكليف الأطفال كي يرسموا ماموثهم المفضل.

جزر متوسطية، يصل إلى خصر الإنسان فحسب، مثلما هو الحال في فيلة الماموث القزمة في جزر سانتا روزا قبالة كاليفورنيا.

وفي أثناء تكاثر أنواع الفيلة بين مليون إلى مليوني سنة مضت، برزت ثلاثة أصناف منها: «Mammuthus»، وكان مصيره الانقراض المبكر، و«Elephas» الذي ينتسب إليه الفيل الآسيوي في الوقت الراهن، و«Loxodonta» وهو خط الفيل الإفريقي. وقد نشأت جميعاً في إفريقيا، لتهاجر واحدة تلو الأخرى، وأحياناً تهاجر معاً في تنافس مباشر. ويعتقد أدريان ليستر أن ماموثاً أوروبياً هو «M. meridionalis»، قد انتهى إلى الانقراض مع ظهور المنافس «E. antiquus». بيد أنّ العلاقات الدقيقة بين هذه الأصناف الثلاثة تظلُّ موضع جدل؛ فالخصائص الشكلية تفترض أن «Mammuthus» و«Elephas» كانا أقرب إلى بعضهما بعضاً من قرب كليهما إلى «Loxodonta»، مع أنّ بعض التقصيات الوراثية تقترح خلاف ذلك[(XV)].

كما تطورت الأنواع المختلفة بمعدلات متباينة، إذ يقاس المعدّل بالداروين، وهي وحدة قياس اخترعها العالم الكبير ج.ب.س. هالدين عام 1949 (1 داروين = تضاعف أو انتصاف سمة فيزيولوجية منتخبة كل 1 مليون سنة). وبناء على هذه الوحدة القياسية تمّ تحري معدلات التغير بين الفيليات تحرياً دقيقاً من خلال أقسى المستحاثات المتبقية جميعاً، وهي الأسنان الطواحن. وهنا تُظهر التغيرات في عدد الطبقات، حجم وخصائص الحدبات والحواف، وكثافات الميناء، أنّ Loxodonta قد تطورت فقط بمعدل 0.1 داروين، أما التقزّم فكان يطرأ بمعدل يصل إلى 10 داروين. وقد تعززت دقة فهمنا هنا في الوقت الراهن بوساطة تطورات في تصوير الأسنان تتضمن بنية من الدنتين تعرف باسم نماذج شريغر، وهي عالية الدقة في التمييز بين

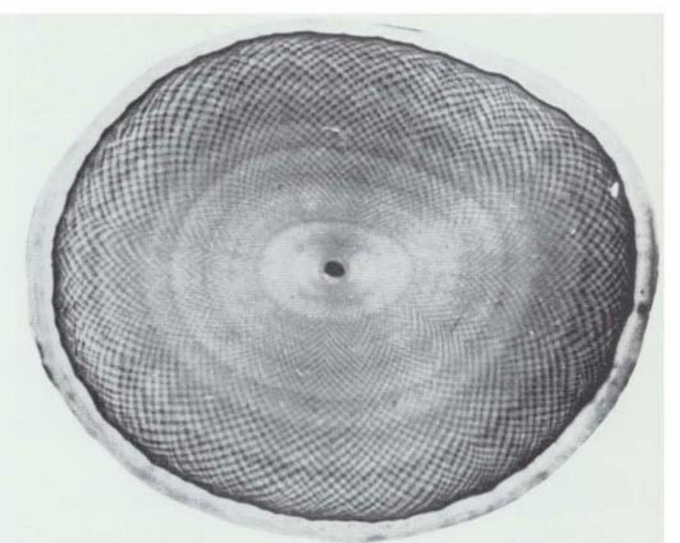

OUR FIRST
100 YEARS
BRITISH COLUMBIA PROVINCIAL MUSEUM
100 MAMMOTHS – ONE FOR EACH YEAR – FROM THE IMAGINATION AND HANDS OF THE CHILDREN OF BRITISH COLUMBIA

الأنواع[xvi]. وقد تفيد بعض الأنياب ذات الطبقات الشبيهة بطبقات الشجر في إعطاء انطباع دقيق التدرجات قد يحدد حتى عدد الأيام، أثناء تقييم العمر ونماذج النمو، ولهذا يمكنها أنْ تلقي بعض الضوء على التغيرات في الظروف المناخية والموطن والغذاء.

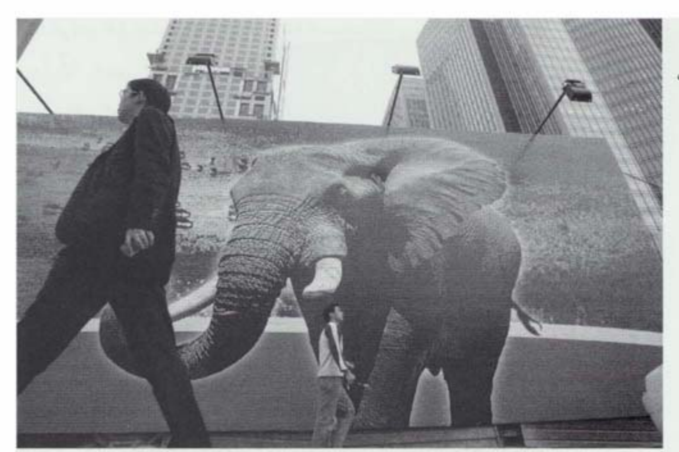
وكان بمقدور بعض الأنواع أن تتأقلم مع التغيرات البيئية تأقلماً سريعاً، ولكنّ العديد منها عجزت عن ذلك. أما تلك الأنواع القليلة التي استطاعت التأقلم – أي الأنواع الثلاثة المتبقية – فقد نجت على الأرجح بسبب مزيج من الميزات الخاصة والعامة أتاح لها التأقلم بجاهزية أكبر. إذ إنها ورثت أيضاً صلات تطورية متشابكة ومتنوعة وطويلة. وتعدُّ فيلة E. recki، التي استخرجت في كينيا بشكل رئيسي، أكثرها شهرة، ومنها نشأ عدد من أنواع Elephas أخرى، مع أن أشكالاً بدائية من Loxodonta كانت تتطور أيضاً. ويعتقد أحد العلماء المعاصرين أن الدليل الملموس يظهر لنا أن E. recki لم يكن نوعاً وحيداً على الإطلاق، وإنما «مركباً» من أنواع مترابطة فيما بينها[xvii].

لكنّ السؤال المركب الذي يبقى من دون إجابة هو: لماذا غادرت Elephas إفريقيا ولم تبقَ على قيد الحياة هناك، ولماذا لم تغادر Loxodonta إفريقيا قط؟ ليس هذا فحسب بل إنّ كيفية تطور الفيل الآسيوي الحديث تبقى موضع شك أيضاً؛ لأن بقايا المستحاثات شحيحة للغاية. وعلى الأرجح، انقسمت هجرة نوع من E. ekorensis في مسارات مختلفة أواخر العصر البليوسيني، وشملت E. planifrons، وهو نوع معروف جيداً من خلال الرواسب في تلال سيواليك في الهند. وقد كان هذا الفيل هو السلف المباشر للفيل الآسيوي الحديث، E. maximus. أما بالنسبة إلى إفريقيا، فقد سيطرت L. atlanticus، على إفريقيا الوسطى والجنوبية،

نماذج شريغر، أو «دوران المحرك» في مقطع عرضي لناب فيل.



لكنها سرعان ما انقرضت مع تقهقر انواع Elephas، مما افسح المجال أمام فيلنا الإفريقي الحديث، L. Africana. ولم تعد هاتان السلالتان إلى الاندماج مرة أخرى أبداً. وعلى الرغم من استخدام بعض الجيوش الأوراسية للفيلة الآسيوية والإفريقية على السواء، كما سنرى لاحقاً، فلا يوجد هناك إلا مثال واحد مسجل عن هذا الاقتران الناجح بين العينات الآسيوية والإفريقية الأسيرة، لكنّ الوليد الضئيل الحجم مات بعد عشرة أيام فقط. ولا بد أن هذا الاندماج ليس إلا مسألة مردّها إلى الخيال والدعايات التي استثمرت الفيل، كما هو الحال في اللوحات العملاقة المنصوبة في بكين بمناسبة قمة التجارة الصينية الإفريقية عام 2006. لقد تلاشت الفيلة الآسيوية في كافة أرجاء الصين منذ وقت طويل، وكان السبب الرئيسي هو هيمنة الإنسان (وهذا هو السبب في عنونة مارك إيلكين لكتابه الضخم الجديد عن تاريخ البيئة في الصين: تقهقر الفيلة).



فيلة إفريقية في الصين: لوحة إعلانات في بكين بمناسبة قمة التجارة عام 2006.

بقي لدينا نزاعان اثنان بخصوص التصنيف؛ ففي حين يظهر لنا فحص النماذج الصبغية الموروثة لدى كل من الفيلة الآسيوية والإفريقية، بناء على متواليات الـ DNA في المصورات الحيوية، أنّ النمطين الوراثيين قد افترقا منذ 3 ملايين سنة، فإن دراسات الـ DNA تتقصى أيضاً قسماً من التمايز داخل النوعين الرئيسيين كليهما، إذ استعرت الجدالات فيما إذا كانت درجة معينة من التمايز تسوّغ الإعلان عن وجود نوع ثانوي منفصل أم لا. وفي هذا الصدد يكتب رامان سوكومار قائلاً: «إنّ البيانات الجزيئية المأخوذة من تجمّعات الفيلة الآسيوية والإفريقية، وعلى الرغم من أنها في طور التحليل المبكر، تهدد سلفاً بقلب الأنظمة التقليدية في التصنيف»[xviii]. فالفيلة السيرلانكية تبدي درجة عالية من التشابه مع فيلة الأرض الأم (الهند) من حيث النماذج الصبغية الموروثة للمصورات الحيوية، على الرغم من تباينهما الصريح في بعض النقاط، ويبدو أن هذا الدليل لا يدعم كثيراً التقسيم السابق لكليهما إلى أنواع منفصلة (E.maximus maximus وE. M. indicus).



فيل هندي، مأخوذ من كتاب صموئيل دانيال «رسوم توضيحية للمناظر والحيوانات وسكان الطبيعة في جزيرة سيلان» (1808).

كما أنّ ثمة درجة معينة من التأييد لاعتبار فيلة ماليزيا وسومطرة أنواعاً ثانوية منفصلة، إلا أن القرار لم يُحسم بعد.

أما الحالة الإفريقية فهي أشد تعقيداً، ففي عام 1986، استقصى خبير الحياة البرية في إفريقيا الشرقية ديفيد ويسترن الأساطير التي تقول إن هناك فيلاً «قزماً» pygmy يتوارى في غابات وسط إفريقيا. وتلت هذا الاستقصاء دراسة قام بها، في تسعينيات القرن العشرين، فريق يترأسه ألفريد روكا بعزل أربع مورثات نووية من 195 فيلاً في 21 جمهرة مختلفة، واستنتج أن ثمة مسوغاً كافياً للفصل بين فيل السافانا (L. Africana) وبين فيل الغابة الأصغر منه نسبياً (L. cyclotis). وعلى أية حال، ازدادت الصورة تعقيداً بوجود علامات واضحة تدلّ على حصول التهجين بين كليهما حيث تتلاصق الغابات والسافانا. وأظهرت دراسات مستفيضة أنّ

هناك على الأقل ثلاثاً، وربما خمس فصائل واضحة التمايز نسبياً، وتحددت فروقاتها على الأرجح إثر الانفصال الطويل الأمد، إذ قام البشر بإبادتها في المناطق المتاخمة لهم واحتجازها على نحو مضطرد. ومما يثير الانتباه أنّ فيلة الغابة تحمل شبهاً وراثياً قوياً مع أبناء عمومتها الفيلة الآسيوية. ويميل سوكومار إلى الاستجابة الأكثر أماناً – ألا وهي أن هناك حاجة إلى المزيد من العمل – ولكنه يعترف بأن هذه الدراسات «قد كشفت الغطاء عن صندوق باندورا خيالي فيما يخصّ تصنيف الفيل الإفريقي»(xix).

ستنظر عن كثب إلى توزعات الفيل الراهنة في الفصل الأخير. ولكن فلنعُدْ في هذه اللحظة إلى شيء ذكرته آنفاً، ألا وهو حقيقة أن الفيلة والبشر قد تطوروا معاً في إفريقيا. حيث انتشروا على شكل موجات عبر العالم منتهجين طرقاً متشابهة – وإذا ما صدقنا عالم الأنثروبولوجيا غاري هينز – فهي أحياناً الطرق نفسها بالضبط، البشر يسيرون عبر الدروب المغبرة التي مهّدتها الجسئيات. ومنذ ذلك الوقت صار للنوعين كليهما وجود ملحوظ، وعلى الأرجح قتل كل منهما الآخر في بعض الأمكنة، وفي أماكن أخرى تشاركا في الوجود سلماً أو حرباً. ولم يتغيرهذا النموذج العام في الواقع، ففكرة أن الفيلة والبشر قد نشأوا في المكان والزمان نفسيهما تستحوذ على ثقافات كثيرة، كما سوف نرى بعد قليل. وهذا الأمر مختزل اختزالاً منمَّقاً في إعلان حديث يسترجع مشهد السافانا حيث يفترض بالبشر والفيلة أن يكتشفوا أنفسهم – مرعى منقط بأشجار توفر الغذاء والمأوى. وفي هذه الحالة يستخدم شجر المارولا (Sclerocarrya birrea)، إذ يُعتقد، اعتقاداً مبالَغاً فيه، أن الفيلة مولعة بتناول ثماره المتخمرة كي تنتشي بالسكْر – وكذلك يستخدم البشر في الترويج الدعائي لشراب المارولا. (لم أنقطع عن الالتقاء بأناس يزعمون أنهم قد شهدوا هذا الأمر، ولكن أحدهم حسب الكمية، فوجد أن 200 كغ

على الأقل من ثمار المارولا المتخمرة المماثلة في حجمها لثمرة الخوخ تلزم كي تسكِرَ فيلاً). يقول السطر الرئيسي في صورة الفيلة التي تتغذى على خمورها الشجرية: «أصولنا. إلهامنا.»!

2 - فيزيولوجيا مذهلة

يمكن القول إنّ التشريح هو المصير.

إن حجم الفيل الفريد - يبلغ متوسط الوزن لدى ذكر الفيل الإفريقي 5.5 طن - قد جعل منه موضوعاً لا يقاوم لدى كُتّاب الأساطير، ولدى قادة الحروب الراغبين في نشر الرعب، والصياد الذي يسعى إلى غنيمة صيده الهائلة بطلقته الضئيلة المغلفة بالنحاس، والطفل في السيرك، والمتنزه في حديقة الحيوان، والسائح في حديقة الحيوان الحديثة. (وعلى الرغم من خطئه المرجّح بخصوص أصل الكلمة، فقد قال إيزيدور الإشبيلي في القرن السابع إن اسم elefante يتحدر من الكلمة اليونانية lophos، أي «الجبل»).

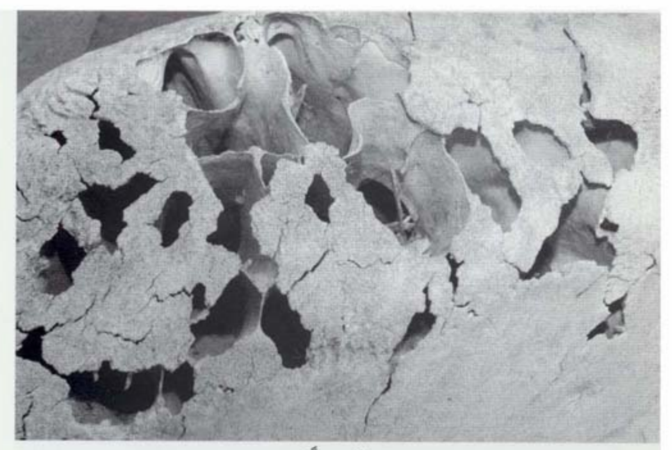
يقتضي وزن الفيل الهائل استهلاكاً هائلاً للطعام يستوجب مساحات كبيرة لتوفيره، مما يسفر بدوره عن صراعات دائمة على الأرض مع البشر. إنَّ أنياب الفيلة الضخمة، ذات الملمس الخشن البديع للنحت، قد أودَتْ بالملايين منها. ومن جهة أخرى، فإن جذعها المدهش وتثاقلها الرزين يلهمان السحر ويبثان جواً من السكينة وحتى الحكمة بحيث يستعصي على كثيرين منا تحمل فكرة اختفائها. وغالباً ما توفر خراطيمها المضحكة وجلودها المترهلة مادة غنية لرسوم الكاريكاتير أيضاً، ولتسلية الأطفال الصغار بدمى الحيوانات، ولعلّ تصفّحَ أول مئة عنوان يحتوي كلمة فيل على موقع أمازون يكشف أن ثلثيها على الأرجح كتبُ أطفال. ورغم ذلك فإنه يشقُّ علينا أن نستوعب حجم أكبر حيوان ثديي يقطن سطح كوكبنا فضلاً عن غرابته، ونتيجة ذلك أتت الحكاية المشهورة عن العميان والفيل التي تعود أصولها إلى تعاليم جاينا. إنّ كل إنسان، عند مواجهته عضواً شديد الاختلاف من تشريح الفيل، يستنتج صورة متباينة كلياً للوحش الذي يلمسه؛ هل هو خشن ومترهّل؟ كلا. أطويل

طباعة على خشب للفنان الياباني إيتشو هانابوسا (1652-1724)، تشرح حكاية الرهبان العميان والفيل.

وأملس؟ هراء. إنه أفعواني ومشعِر! وكما يصفه مقطع من قصيدة جون غودفراي ساكس التي تعود إلى القرن التاسع عشر، وعنوانها «الفيل والعميان»:

تقدم أولهم من الفيل،
فأوشك يتهاوى
أمام خاصرته المتينة والعريضة،
فراح يولول من فوره:
«بارك الله فيّ! فما أشبه الفيل بجدار!»

لقد دخلت هذه القصة إلى ثقافة العالم بأغرب الطرق؛ فعلى سبيل المثال تتضمن عناوين المواد المأخوذة من قاعدة بيانات واحدة فقط على الإنترنت ما يلي: «وعي اللغة: الفيل بأكمله»؛ «المحاسبة والبحث العملياتي: الخرطوم أم الذيل؟»، وحتى «مصفوفات التعبير الوراثي في داء المفاصل الرثياني الشبابي»:



السطح المتآكل لجمجمة هذا الفيل يظهر نموذج عش النحل المؤلف من خلايا هوائية تخفف الوزن.

هل سيبصر العميان الفيل أخيراً؟»

ويستخدم هيثكوت وليامز حكاية العيمان والفيل من جديد، كصورةٍ تختتمُ مرثيته الشعرية عن إبادة الفيل، «فيل مقدس»:

في قصة العميان،
كل أعمى أعطى للفيل وصفاً مختلفاً،
حسب أي عضو تحسسه.
والآن لن يبقى لهم
إلا أن يتحسس أحدُهم الآخر[xx].

نأمل ألا يكون الأمر بمثل ذاك السوء.

يلزم هيكل عظمي متين كي يسند كل ذاك الوزن؛ قفص صدري تبلغ سعته عربة غولف، وجمجمة بحجم محرك احتراق داخلي. ومع ذلك فإنّ حركة الفيل خفيفة خفةً مدهشة؛ فالجمجمة ملآى بخلايا هوائية تسمى diploe تنقص من الوزن، وتتوضع عظام الساق الضخمة فوق بعضها بعضاً مباشرة، وليست على شكل زوايا كما هو الحال عند القطط أو الكلاب، وإنما تنتظم في ترتيب يشبه المنضدة

يسمى حامل الثقل graviportal. وهذا يعني أن بوسع الفيل النوم واقفاً، بسيقان متلاصقة. وقد ظنّ بعض الكتاب الأوائل أن عليهم الاتكاء إلى شجرة كي يناموا، متوجّسين من النتائج الكارثية إذا ما تهاوت الشجرة فوقهم – وهذا مفهوم خاطئ، ربما نجم عن الخلط بين الفيل وبين أيل (alces) خيالي شأنه شأن فكرتهم، ويعود وصفه المبكر إلى كتاب يوليوس قيصر «الغاليون والحروب الأهلية (الكتاب 6.27)» في القرن الأول ق.م.

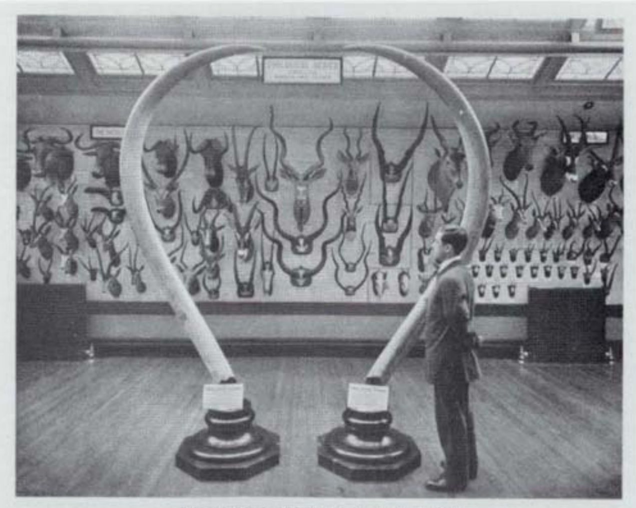
وفي الحقيقة، فإنّ تلك المفاصل لافتة المرونة مثل ركبتي الإنسان،

يختلف عدد الأظافر في قدم فيل بين الأقدام الأمامية والخلفية (هي عادة 5 و4 بالترتيب)، وكذلك بين الأنواع الفرعية للفيلة.



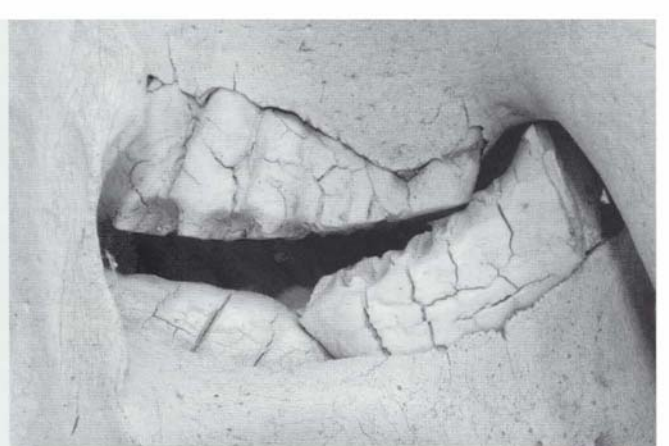


لعل هذين النابين هما
أضخم الأنياب المذكورة،
معروضين هنا أمام باب في
زنجبار، 1899 .



زوج آخر من أنياب طويلة ضخمة اقتنصوها في السودان وصوروها عام 1923.

مما يجعل من الفيلة حيوانات متسلقة رشاقتها تفوق توقعاتنا (إنها جيدة من أجل حلبات السيرك)، مع أن مظهرها كلّه يشير إلى خلاف ذلك. فالفيلة في الواقع تمشي على رؤوس أصابعها، مثلما تمشي معظم ذوات الحوافر، بحيث تتجه عظام أقدامها بأكملها إلى الأمام والأسفل، لينزل الحِمل على وسادة من الشحم والنسيج الضام، حيث ينشر الوزن بطريقة متجانسة على باطن القدم العريض. وقد وجد أن فيلاً آسيوياً وزنه 9.000 رطل (4.180 كغ) لا يبلغ الضغط تحت قدمه ما يتجاوز 9 ليبرات في كل بوصة مربعة (0.6 كغ لكل سنتيمتر مربع)، وهذه سمة تتيح له سهولة الحركة عبر الأراضي الرملية أو السبخية في هدوء غير عادي. وصادف أنْ كان لي زملاء في كلية رينجر، خيموا في العراء ذات ليلة في وادي نهر زامبيزي في زمبابوي، ومدُّوا بساط نومهم على طريق فيل وهم غافلون؛ وفي الصباح وجدوا أثراً لقدم فيل مطبوعاً على البساط بينهم، من دون



جهاز الحزام الناقل في الطواحن السفلية: لا بد أن هذا الفيل قد قضى قبل فترة طويلة من إكماله سن الستين الغريبة.

أن يسمعوا شيئاً.

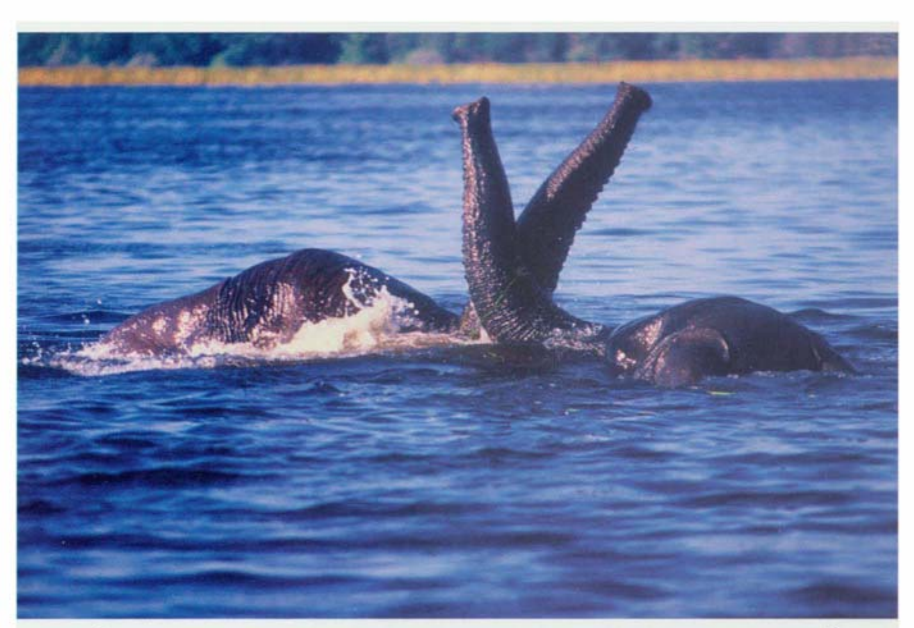
وبالطبع فإن أبرز الملامح في الهيكل العظمي هي الأنياب. كانت هذه القواطع العليا الممتدة والمفرطة الضخامة وسيلة الدفاع الأساسية لدى الفيل وسبب موته في آن معاً.

لا يظهر من الناب خارج الجلد إلا ثلثاه؛ إنه يستمر بالنمو في الظروف الطبيعية بمعدل حوالي 15 سم سنوياً. كان أكبرُ هذه الأنياب، ومعظمها لذكور فيلة إفريقية، غنائمَ صيد لم يستطع الصيادون الأوروبيون مقاومة سحرها. إنّ أضخمَ زوج من الأنياب المعروفة، وهما لفيل إفريقي قتله عام 1899 عبدُ تاجرٍ سواحليّ على منحدرات جبل كيليمنجارو، طولهما 11 قدماً (وإذا توخينا الدقة 349 و335 سم)، وفي الواقع يبلغ وزنهما حالياً حوالي 435 رطلاً (198 كغ)، وهما موجودان اليوم في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي في نيويورك. أما أنياب الفيلة الآسيوية فهي عادة أخفّ وزناً بكثير، وإنْ ذكِرت عينات يبلغ طولها تسعة أقدام (2.74 م). إنّ حملَ مثل هذه

الأنياب الثقيلة قد أدّى إلى معاوضات فيزيولوجية ملحوظة في بُنَى العضلات والعظام في الرقبة والجمجمة. وهذه الأنياب، فيما يخص الفيل، هي وسائل دفاع ممتازة ضد قلائل المعتدين عليه، بالإضافة إلى فائدتها في نبش الجذور أو الماء، وسلخ لحاء عن الأشجار يمكن أكله، أو رفع الجذوع إذا كان الفيل عاملاً أسيراً. وتستخدم الأنياب أحياناً كوسيلة لإراحة الخرطوم المنهَك.

أما بالنسبة إلى البشر، فكان أشد ما جذبهم عاج الناب بسبب إمكانية نحته. فما الذي يجعله مختلفاً إلى هذا الحد؟ يظهر مقطع عرضي في الناب نموذجاً مميزاً لأشكال الماسية متصالبة تعرف باسم «دوران المحرك» – وهو الدليل على سريان نُبيبات العاج عبر الناب. إن نموذج دوران المحرك الذي تتفرد به أسنان الفيل، تتخلله حلقات متراكزة أشبه بالحلقات التي تدلُّ على نمو الشجرة، وهي ناجمة عن أطوار النمو الفصليّة والسنويّة معاً. وعبر هذه الحلقات يتشقق العاج المجفف غير المعالج. وفي الواقع، يمتصُّ العاج الماء بشكل ملحوظ؛ وقد استخدمت بعض الشعوب الإفريقية الأنياب بغرزها في الأرض للتنبؤ بالمطر. ويبدو أن تركيب العاج يتغير تغيراً ملحوظاً من منطقة إلى أخرى، إذ تتباين تبايناً مهماً تراكيز الكالسيوم والفوسفات والمغنيسيوم والعناصر الأخرى، بالإضافة إلى الحموض الأمينية، مما حدا بإيريش روبنهايمر، وهو خبير في أسنان الفيل، أنْ يقترح أنّ مثل هذه التحليلات يمكن استخدامها جنائياً من أجل تحري أصول العاج المسروق [xxi]. إنّ العاج عموماً مادة فريدة المرونة، ومقاومة أيضاً؛ وما من نحّات يعتدُّ باسمه ليقبل ببديل عنه.

إن الأسنانَ الخفية تضاهي في سحرها الأنياب المرئية، إذ خلافاً لمعظم الثدييات، التي تستبدل أسنانها المبكرة أو الساقطة بأسنان جديدة تنمو من أسفل سابقاتها، فإن الفيلة تزهو بست مجموعات كاملة من طواحن كلٌّ منها بحجم الآجرة. وهذه المجموعات تتحرك



يجادل بعضهم أن خرطوم الفيل دليل على أصوله المائية؛ ولكنه ينفع في ألعاب المصارعة أيضاً.

إلى الأمام، وفق نموذج الحزام الناقل، عندما تتلف المجموعة الأمامية وتتكسر، وحالما تتلف المجموعة السادسة لا يعود بوسع الفيل أن يأكل، فيتضور جوعاً حتى الموت. ولذلك يتحدد طول عمر الفيل بسقف صارم نسبياً، حوالي ستين سنة، بحسب نوع الغذاء والمرض. وربما كانت حقيقة العثور على أسنان مكسورة مبعثرة إلى جوار أغصان نصف مأكولة أو في براز الفيلة هي ما أدى إلى نشوء الأسطورة التي أشاعها الأوروبيون في عصر النهضة عن دفن الفيلة النشيطة لأسنانها خلسة. وعلى أية حال، كان الهنود الماكرون – بحسب أحد الشرَّاح المضلِّلين – أكثر ذكاء؛ إذ كانوا يغرسون قوارير من الماء في الأماكن التي يعتقدون أن الأسنان مدفونة فيها، وتلك القوارير، التي سحبت الأسنان ماءها «بقوةٍ سحرية» ما فتلاشى، هي ما كان سيفشي بالمخبوءات. (وقد جزم بليني بطريقة خيالية



الفيلة ماهرة في السباحة: يسبح بعضها كيلومترات عديدة بين جزر أندامان. التقط ستيف بلوم صورة هذا الفيل في الهند عام 2006.

في كتابه «التاريخ الطبيعي»، أن الفيلة كانت تدرك نفاسة عاجها، فتدفن الناب إذا سقط).

وتتميز سطوح الطواحن بحواف لها أشكال معيّنات، وهي خشنة وتقصُّ النباتات في حركات مضغ طولانية؛ وشكل المعين هذا، الأشبه بالألماس لدى الفيل الإفريقي أكثر من الفيل الآسيوي، هو ما أدى إلى التسمية العلمية «Loxodonta».

لا يزال أروع أجزاء الهيكل العظمي عصياً على الفهم إلا قليلاً؛ إنه الجهاز اللامي. فلهذا الجهاز المركب من خمسة عظام تؤمن نقاط ارتكاز للسان والحنجرة، دورٌ أساسي في الأكل والتنفس والتواصل. وعلاوة على ذلك، فإن قاعدته تنغرز في بنية لها شكل الجيب تسمى الجيب البلعوميّ الذي يخزِّن فيه الماء، وهو تطور

اعتقد بحصوله عالم الأحياء المختص بالفيلة ياسكل شوشاني، أثناء انتقال الخرطوميات إلى مراعٍ أكثر جفافاً منذ حوالي 25 مليون سنة. وتتفرد الفيلة بأن الأقسامَ العلوية والسفلية من الجهاز اللامي هي أقسام حرة، وتساهم على الأرجح في إنتاج مدى التواصل الغني بين الفيلة بواسطة الأمواج تحت الصوتية.

كما تُبدي أعضاء داخلية أخرى سمات فريدة أيضاً، والعديد منها قيد دراسات راهنة مكثفة. فعلى سبيل المثال، يشغل القلب الذي يزن بين 26 إلى 46 رطلاً، (12 إلى 21 كغ)، نسبة طبيعية بالنسبة للثدييات، قياساً إلى الوزن الكليّ للجسم (حوالي 05 بالمئة)، ولكن قمته مشقوقة أو ذات ذروتين عوضاً عن الذروة الوحيدة المعهودة. وهذه سمةٌ تربطها من الناحية التشريحية بأبقار البحر، وهو دليل، كما يجادل بعضهم، على أصول الفيل المائية. واقترح آخرون أنّ سمات معينة للكليتين تشير كذلك إلى تلك البداية الأوقيانوسية، ولا سيما الأنابيب المهدّبة على سطح الكلية والمسماة النفروستومات التي تسمح بالتبادلات التناضحية مع الدم. وقد تصادَف وجود النفروستومات لدى سمك الحفش والضفادع، لكنها لا توجد البتة لدى الحيوانات الولودة الأخرى. وبشكل أوضح، تقع الكليتان عالياً تحت العمود الفقري الخلفي، وتكمن أهميتهما الكبرى في تخزين الشحم، فالانخفاض المرئي الذي ينشأ في موضعهما لدى فيل سيئ التغذية هو مؤشّر على الصحة والشدة البيئية.

ومن بين سائر خصائص الفيل المائية المفترضة، أثار جهازه التنفسي جدلاً واسعاً. فقد لوحظ في وقت مبكر من القرن العشرين أن الفيلة تفتقد إلى جوف الجنب الخاص بالرئتين، حيث تتصل الرئتان مباشرة بجدار البطن، وتعملان بتقلص العضلات. ولقد ناقش ج. ب. ويست، أستاذ الفيزيولوجيا في جامعة سان دييغو، أن

هذه الميزة قد تطورت مع الخرطوم وضرورة الـ 'snorkelling'؛ أي رفع الخرطوم فوق مستوى الماء أثناء السباحة. لقد شاهدت الفيلة تقوم بهذا النشاط عند عبوري البركَ العميقة في وادي نهر زامبيزي، ولكن لا يزال هذا الدليل مفتقداً إلى الإقناع، إذ شكّل هذا النشاط في بداية التطور ضغطاً على جهاز التنفس الفريد لدى الفيل. إنّ النقص النسبيّ في الأدلة العلمية أو المستحاثات التي تشير إلى التطور التدريجي للخرطوم، قد وفّر لبعض المؤمنين بعلم الخلق ذريعة لمناقشة تدخل الله المباشر في هذا الشأن. (أو يمكن للمرء ببساطة أن يقدم قصة روديارد كيبلينغ الشهيرة «قصة هكذا» عام

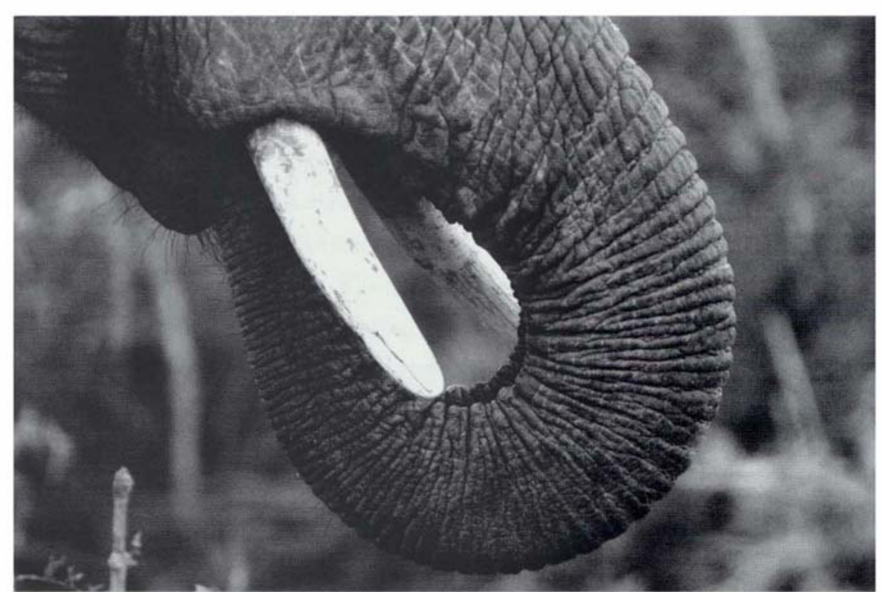
رسم أنجزه روديارد كيبلينغ شارحاً «كيف حصل الفيل على خرطومه؟» في كتابه «قصة هكذا».



1902، وفيها يجد الفيل الرضيع الأصلي أنفه المفلطح منذ نشوئه واقعاً بين فكي تمساح، فيشدُّه ويشده...).

وأياً كان الأمر، فإن الخرطومَ جهازٌ متعدد الوظائف ويثير الفضول أكثر من كونه مجرد «سنوركل»، وقد تطور بالتأكيد نتيجة لمحرضات متعددة. فهو يدٌ وأنفٌ وبوق وخرطوم ماء وسلاح. كما أنّ لخرطوم الفيل من الدقة ما يكفي لالتقاط قطعة نقود، ومن القوة ما يكفي ليصرع نمراً. إنه يتألف من حوالي 100.000 عضلة طولانية وشعاعية، بلا عظام أو غضاريف، مما يجعله أداة في غاية الحيوية. إنّ خرطوم الفيل الآسيوي مزود في طرفه «بمجسّ» واحد فقط، ولا ينقِص هذا من مرونته وحساسيته إنْ قورن بالبنية ذات المجسّين في خرطوم ابن العم الإفريقي. وفضلاً عن ذلك، فقد اكتشف مشرح الأفيال د. ماريابان من مادراس أن طرف خرطوم الفيل وبظر الأنثى يحتويان على حزم عصبية فائقة الحساسية تميز الفيل. فسمّاها ماريابان، تشريفاً لمعلمه في معهد التشريح في مادراس، «نهايات آير العصبية». كما تظهر دراسات أخرى أنّ لدى فيلة عديدة، على ما يبدو، رجحاناً للخرطوم نحو اليمين أو اليسار، أشبه باستخدام اليد اليمنى أو اليسرى عند الإنسان، على الرغم من أنّ فوائد هذا الرجحان التطورية أو أسبابه لا تزال غامضة. إنّ الخرطوم عضو حيوي؛ إذ أن فيلاً من دون خرطوم، متروكاً للأذية أو المرض، سرعان ما يفتك به الجوع الشديد.

كما أنّ الأعضاء الخارجية الأخرى لا تقل أهمية عن الخرطوم. ربما العينان هما أقل الأعضاء أهمية بالنسبة للفيل، على الرغم من أنّ العين، بالنسبة لنا نحن البشر الذين توجههم أبصارهم، هي على ما يبدو عضو تواصلنا الغالب. عينا الفيل وديعتان وهادئتان



هناك على الأقل 20.000 عضلة مفردة تمنح الخرطوم مرونته وقوته.

الصفحة المقابلة
إذا نظرت في عين فيل فستشعر بأنه يتفرّس فيك ويقيمك بلا جدال.

أذنا الفيل تلعبان دوراً حيوياً في التبريد والتواصل.

بشكل ما. تتذكر الباحثة «كاتي بين» تحديقها في العين الكهرمانية الصبورة لفيلة آسيوية أمّ: «ففي ذاك الجسد الضخم المنساب إلى الأمام، هائلاً وبطيئاً، العينان الصغيرتان مطرقتان، والأذنان المنقطتان تتموجان في تناظر وبطء نحو الداخل والخارج؛ والوجه – حسناً، فلنسمه وجهاً»(xxii). لقد تمّ توضيح تفاعلنا الممكن مع ما يسمى وجه الفيل من خلال الصورة الفوتوغرافية الأخيرة في كتاب هيثكوت ويليامز «فيل مقدس»، وهي مونتاج ذكي لعيني فيل في وضعية تجعلهما بطريقة مدهشة تبدوان عينين إنسانيتين. ومن جهة أخرى، فإنك لن ترغب في أنْ تكون الطرف الذي يتلقى هجوم الفيل، مع تينك العينين المتطلعتين بنقمة إلى تدميرك:

رفع ندلولاميثي رأسه محتداً، وكأنه سيسلط علينا عينيه الكهرمانيتين، لم يكن يرانا حتى بشكل مبهم، إذ كنا نلوح بعيداً

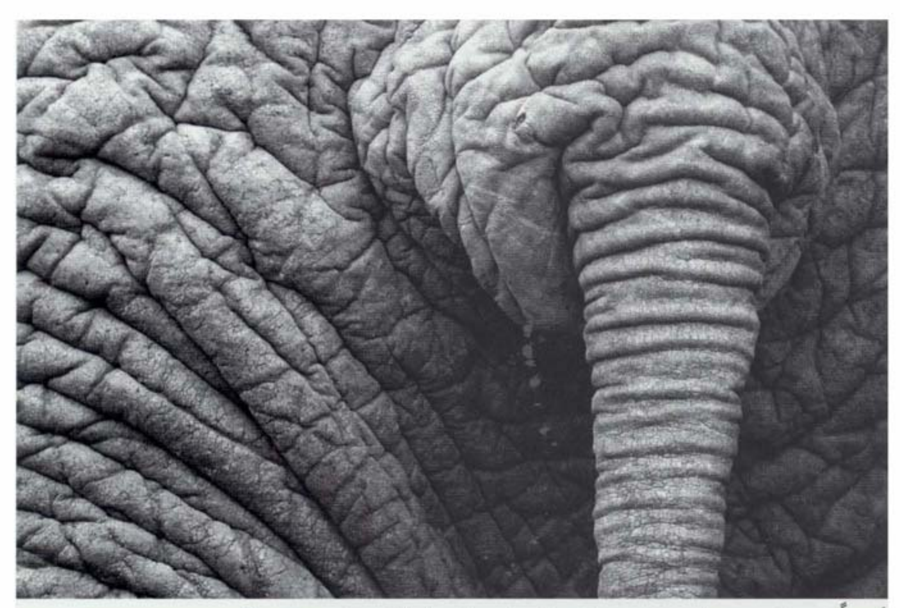


صورة ساكنة من فيلم دمبو.

عن تخوم بصره. كان خرطومه الضخم ملفوفاً تحت ذقنه بطريقة تهددنا. وكانت أذناه مفرودتين على وسعهما في البداية، إذ كان يجهد كي يسمع موضعنا ويحدده، بناء على أي صوت يصدر عنا من بعيد. ومن ثم صُفقت تلك الأذنان فجأة لصق رأسه واندفع صوبنا. عرفت أنّ هذا الهجوم ليس من قبيل المزاح؛ فالرسالة الصامتة لنية القتل أوهنت قوانا[xxiii].

إن أدوار الأذنين الضخمتين، وهما أصغر في النوع الآسيوي، تتجاوز إيذانهما بالهدوء أو العدوانية. فهما منظمان حراريان حيويان بواسطة شبكة من الأوردة قريبة من سطح الجلد وبواسطة تحريك الهواء البارد عبر الكتفين.

لقد استخلص الباحثان بولي فيليبس وجيمس هيث، بجمعهما بين استخدام التصوير الحراري تحت الأشعة الحمراء ونموذج الطبق المسطح، أنه يمكن الوصول إلى مستلزمات الفيل كافة من تخفيض للحرارة في الظروف الطبيعية عن طريق تحريك الأذنين. «وفي استطراد غريب قليلاً داخل هذا البحث، قام فيليبس وهيث



جلد الفيل عضو كامل بحد ذاته، على الرغم من افتقاره إلى مسام التعرق.

أيضاً بحساب مقدار تخفيض الحرارة لدى الفيل الكرتوني دمبو في والت ديزني، الذي تبدو أذناه أكبر قليلاً من آذان الفيلة الحقيقية؛ فأقرّا بضرورة الأذنين الكبيرتين من أجل تبديد الحرارة الناجمة عن الطيران بسرعات عالية!»(xxiv).

تبلغ سماكة الجلد على الأذنين أقل من 2 مم. أمّا في باقي الجسم فتبلغ سماكة الجلد الرمادي المتجعد المتشقق 2.5 سم، ولكنه يبقى عضواً حساساً. فهو يخلو من الشعر تقريباً، باستثناء الفيلة اليافعة، ويفتقر إلى الغدد العرقية، مما يجعله عرضة للالتهاب والطفيليات، ومعظمها من القراد والقمل ويرقات الذبابة النبرية، فيحتاج إلى الاستحمام بالماء والغبار بشكل دوري ومستمر. أما لدى الفيل الآسيوي فكثيراً ما تنشأ بقع مصطبغة، خصوصاً حول الوجه، مما يسفر عن مظهر مميز ذي لون وردي أرقط. وقد أفضت النماذج

الجلية من هذا التلون إلى أسطورة «الفيل الأبيض»، إذ لا يزال مرغوباً بصفته رمزاً للملوكية. واشتهر ملوك سيام على الأخص بهذه الرغبة؛ فاعتاد أحد ملوكهم، بسبب النفقات الباهظة لرعاية الفيلة، أن يهدي فيلاً أبيض إلى البلدان التي يتمنى تدميرها. ومن هنا أتت عبارة «الفيل الأبيض» التي تشير إلى أي فشل ذريع يتصل بإنفاق المال على نحو يفوق إمكانياتك تماماً.

وعلى غرار أي كائنات معقدة أخرى، ليس مستغرباً أن تصاب الفيلة بأمراض متنوعة، معظمها طفيلية، داخلية وخارجية في آن معاً؛ الديدان المنبسطة، الديدان الشصية، الديدان المستديرة (الأسكاريس)، ويرقات ذبابة النغف في الجروح الملتهبة، أو في أحشاء الفيلة الفتية. وهذه الأمراض على الأخص مؤهلة للتفشي بين الفيلة الأسيرة، أو عندما تتلوث مصارف الماء المكتظة بالبراز. لقد نشر رامان سوكومار بعض الدراسات المتذبذبة، ولكن المثيرة للاهتمام، عن العلاقات بين حجم الناب وكميات الطفيليات المستخلصة من عينات الفضلات؛ إذ يبدو أنه كلما ازدادت الأنياب ضخامة قلَّ عدد الطفيليات. غير أنّ المغزى يبقى مجهولاً. لقد سجلت حالات معزولة من الجمرة الخبيثة أيضاً، ويفترض أن نحاتاً واحداً على الأقل قد انتقلت إليه عدوى الجمرة الخبيثة باستنشاق غبار العاج. كما حدثت ذوات الرئة الإنتانية والحمى التيفية والسل بين الفيلة الأسيرة. وقد تستفحل الإنتانات السنية، ولا سيما بين الفيلة المعمرة، وقد يحدث تصلب الشرايين معجّلاً بموت الفيلة الذي ينجم عادة عن سوء التغذية.

وقد تفهّم سائسو الفيلة الآسيويون المولعون بغسل فيلتهم في أنهار الهند وبورما هذه الحساسيات والكثير سواها، لما لا يقل عن 3.000 سنة. فهم حريصون أشد الحرص على العناية بالجلد والتغذية الجيدة. وما قد يبدو لنا مجرد أكياس من التجاعيد النافرة المظهر

دراسة لقدم فيل ومقطع عرضي لرأسه، الصور التوضيحية مأخوذة من كتاب كومت دو بوفون الضخم "التاريخ الطبيعي» (1749-67).



والمضحكة، تراه عين السائس المهتم مواضع جمال، وكما يذكر ج. هـ. وليامس في كتابه «باندولا»، وهو عمله الأقل شهرة الذي تلا «الفيل بيل»، فإن طية الجلد الفضفاضة الممتدة من بين الساقين الأماميتين إلى أسفل البطن كانت تسمى Pyia Swai، أو قرص العسل، يُحكم من خلالها على جمال الفيل. وفي الواقع، فإنّ هناك معايير معقدة للجمال بين المتعاملين مع الفيلة؛ النسب، عرض الرأس وشكل نتوءاته، تناظر الناب وسماكته، طول الخرطوم وارتفاعه الإجمالي، إنها معايير تتضافر جميعاً كي تنتج نماذج راقية ممكنة التصنيف تدل على روعة الفيل. فبعضها، على سبيل المثال، يعرف من الناحية الجسمية بشبيه الغزال mriga، واختلافها شديد عن الفيلة الملكية أو kumera. يمكن أيضاً تعريف مناطق جغرافية مختلفة بحسب مظهر فيلتها، إذ يقال: إنّ فيلة كيرالا هي أجمل الأفيال جميعاً.

وعلى العكس مما ذكرناه، في الغرب ما بعد الرومان، حيث أبيدت الفيلة وأقرباؤها منذ وقت طويل وظل المصدر الوحيد للمعرفة هو المشاهد المثيرة لحيوان أسير فحسب، استفحلت كل صنوف الأساطير المتعلقة بفيزيولوجيا الفيل. ففي القرن العشرين فقط تولد مفهوم عن كيفية تفاعل فيزيولوجيا الفيلة مع بيئتها، ومع مجتمعها الفيلي المعقد حقاً. وبعد الإبادات الشاملة التي ارتكبها الصيادون الأوروبيون في إفريقيا وآسيا على السواء – أولئك الصيادون لم يروا في الفيلة سوى خزائن حية من العاج الذي يطمعون به – أصبحت فرضية من قبيل أنّ الفيلة تملك مجتمعاً، شيئاً يدعو إلى الدهشة. أما اليوم فالتفاعل الاجتماعي لدى الفيل أمر معروف ودُرِس عن كثب، بحيث إنّ عدداً ليس بالقليل من المراقبين يعتقدون أنّ بوسعنا تعلم شيء ما منها، «حكمة ذوات الأنياب المهيمنة تجلل بالعار زيف الإنسانية»، كما تقول قصيدة هنري هارمون تشامبرلين[XXV].

فإذاً كيف سيّرت فيزيولوجيا الفيل سلوكه؟ هناك وظيفتان جسميتان تستحكمان بجميع الفيلة؛ استهلاك الطعام والتكاثر، فالفيلة ضخمة ويجب أن تأكل كثيراً. إن فيلاً يزن خمسة أطنان يستهلك ما يصل إلى 300 كغ – أي 6 إلى 8 بالمئة من وزن جسمه – من المواد النباتية كل يوم، مما يستغرق ما يزيد على اثنتي عشرة ساعة من الرعي المتواصل، حيث تأكل الفيلة مجموعة واسعة متنوعة من النباتات – مئات الأنواع المختلفة إذا توافرت – تمتدّ من لحاء الشجر إلى العشب، وتأكل بنهم فاكهة مثل التمر الهندي في آسيا أو المارولا في إفريقيا بحسب توافرها في كل فصل. كما تبحث أيضاً عن مقويّات معدنية في الكهوف أو لعق الملح، وأحياناً تحفر لنفسها كهوفاً خاصة بها، وأشهرها كهوف كيتوم على جبل إيلغون في كينيا الغربية، وهي مغاور ضخمة حفرت أساساً بأنياب الفيلة التي تبحث عن رواسب الملح في الأرض الغنية بالصوديوم كي تردف طعام الغابة الذي لا يوفر لها التغذية الكافية في تلك المنطقة.

أما الجهاز الهضمي، الذي تستغرق رحلة الطعام في مساره ذي الـ 35 متراً حوالي أربع عشرة ساعة، فسريع للغاية ويؤمن ما يكفي من الطاقة، ولكنه قاصر نسبياً من الناحية الاستقلابية؛ فعملية الاستقلاب تقوم بتحويل 22 بالمئة فقط من الوارد البروتيني. وما يتم تبرزه في النهاية، قد يصل إلى 100 كغ يومياً، هو كنز ثمين بالنسبة لعشرات المخلوقات الأخرى الممتدة من الفيلة الرضيعة التي تأخذ عضيات مجهرية شديدة الأهمية من براز الفيلة البالغة الذي لم يهضم جيداً، مروراً بقرود الرباح إلى خنافس الروث. وهناك شاخصات مسلية ولكنها جدية على الطرقات عبر حديقة آدو الوطنية في جنوب إفريقيا، تعطي حق عبور الطريق لخنافس الروث، فهي حيوية للنظام البيئي بأكمله. كما أنّ بعض أنواع النباتات مثل أنواع معينة من الأكاسيا وBalanites wilsonia، أكثر ما تعمقت الأبحاث

في تناوله، تزداد مقدرتها على الإنتاش حالما تعبر خلال الأحماض في أمعاء الفيل التي تمارس دوراً أساسيّاً في انتثارها. وهناك عدد من الدراسات التي تحاول الآن تحديد أثر اصطياد الفيلة على نماذج الإنتاش في مثل هذا النوع من الغابات.

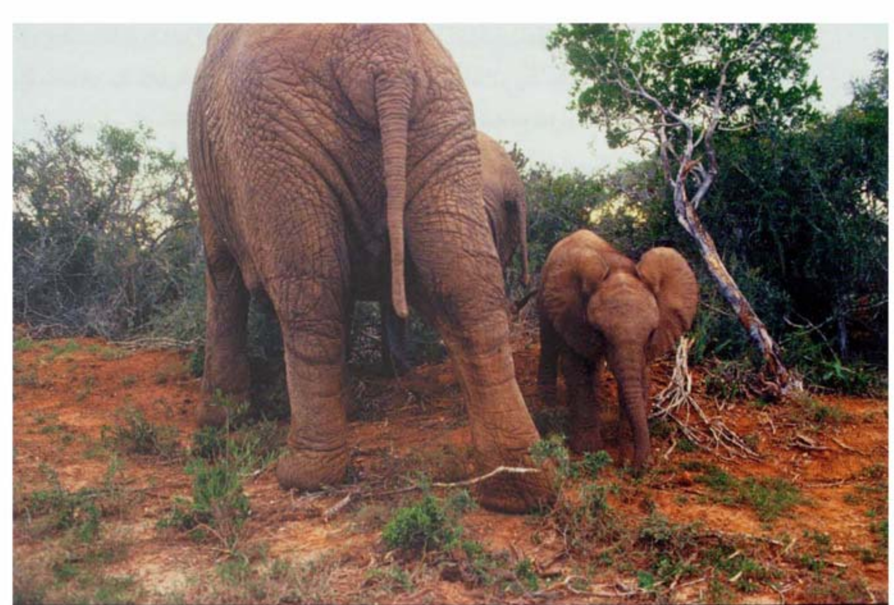
يستطيع المراقبون المتفرغون حقاً للفيلة أن يميزوها فرداً فرداً من خلال روثها. يصف ج. هـ. وليامز في «باندولا»، مقدرة مدير إحدى الغابات في بورما على التعرف إلى فضلات كل فيل من فيلته الأربعمئة، فيمعن في تفحصها، «ناخراً إياها بعصاه، ولا يدلي عادة بأي تعليق ولكنه يقول أحياناً: «انظر إلى ذاك، لقد عاد مي تو إلى أكل التراب من جديد، لا أحب ذلك.» ويواصل نخزه. «أوم. ديدان الفيل من جديد». أو: «كاه جيس العجوز المسكين، لقد بدأت شيخوخته بالظهور، فالخيزران يعبر من خلاله مثل وتر قاس»[xxvi].

وإذا ما تركنا علم البيئة جانباً، فروث الفيل نظيف تماماً ولا يلوث شيئاً، وبوسعك الآن أن تشتري كل صنوف بطاقات المعايدة والظروف والدفاتر الصغيرة المصنوعة من ورق مكرر عن روث الفيل؛ خشن الملمس ولكنه جذاب! لعلّ أحد أكثر استخدامات روث الفيل إثارة للجدل، وضع كتلة رطبة منه بطريقة مدروسة على الصدر العاري في عمل الفنان كريس أوديلي المتعدد الوسائط عام 2004، وعنوانه «مادونا السوداء»، وقد أساء فيه إلى رئيس بلدية نيويورك رودي جولياني إساءة عميقة فتوعد الأخير بإغلاق الصالة كلها.

وبالنظر إلى كميات الغذاء المستهلكة، ليس مستغرباً إذا ما اعتبرت الفيلة قوى تدمر النباتات المحيطة بها تدميراً إيجابياً، وخصوصاً عندما تحصر في مساحات مسيجة أصغر بكثير من المراعي الشاسعة للسنين الخوالي، وعندما تحث برك الماء الاصطناعية الفيلة على التجمع في أمكنة أضيق. وإذا ما أبيح للفيلة القيام بذلك فسوف تجهز على مساحات هائلة.

وقد أظهرت دراسات ولتر ليوثولد للفيلة المزودة بأطواق لاسلكية في تسافو في كينيا، أنَّ الفيلة تتجول عبر مساحة تزيد على 3.000 كيلو متر مربع، وتختلف بقاع هذا التجول وإيقاعه حسب الفصل. وعلى أية حال، فإن هذا المدى يتباين تبايناً كبيراً مع وجود اختلافات في الغطاء النباتي وتوافر الماء. وعلى الرغم من أن الفيلة تستطيع البقاء على قيد الحياة من دون ماء أكثر من أسبوع، كما هو معلوم، فإنها تشرب في الظروف الطبيعية ما يصل إلى 200 لتر من الماء يومياً. وهي تقطع طرقاً طويلة للوصول إلى الماء، ولديها ذاكرة ممتازة حتى بالنسبة لتلك البقاع الموجودة في أسرة الأنهار الجافة، حيث يتعين عليها أن تحفر حفراً عميقة كي تبلغه. غير أنَّ عدداً قليلاً من هذه التنقلات الحرة يتوافر للفيلة في الوقت الراهن.

وربما كانت ضرورة تذكر البقاع القصية هي ما ساعد على تطور دماغ مذهل يكفي أيضاً كي يحتفظ بكمية جيدة من المعلومات «الثقافية». فقد كان ذاك العضو الذي يزن 6 كغ موضوع دراسة مكثفة. وعلى الرغم من أنّ حجم دماغ الفيل يعادل أربعة أضعاف حجم دماغ الإنسان، فإنه يشغل نسبة أصغر بكثير قياساً إلى الوزن الإجمالي للجسم. ومع ذلك فإنه يتمتع بمخ ومخيخ على درجة عالية من التطور تتماشى مع تنسيق حركي واستعراضي ممتازين. وعلى الرغم من خطر إضفاء الصفات الإنسانية على الفيل، إذا ما تأملنا «الذكاء»، فإنّ بعض العلماء يقيسون الآن معدل (eq) –«معدل التطور الدماغي» – وهو العلاقة بين نسبة الدماغ الحقيقي إلى وزن الجسم، بالقياس إلى النسبة المتوقعة. وفي هذا المخطط يملك البشر من(eq) ما مقداره 6، والشامبانزي 2.5، والفيلة 1.9. ولكلبكم المتواضع في البيت 1(eq)، وهذا هو «الوسطيّ». وأشارت دراسة أجريت على ستة فيلة آسيوية وستة إفريقية أن معدل eq أعلى عند الفيلة الآسيوية، ولكن هذه العينة صغيرة للغاية كي نستخلص منها



الأم القريبة، والطفل والعمة، أو عصبة الأم البديلة، هي جوهر وحدة عائلة الفيل، وأمر أساسي في نجاة الصغار.

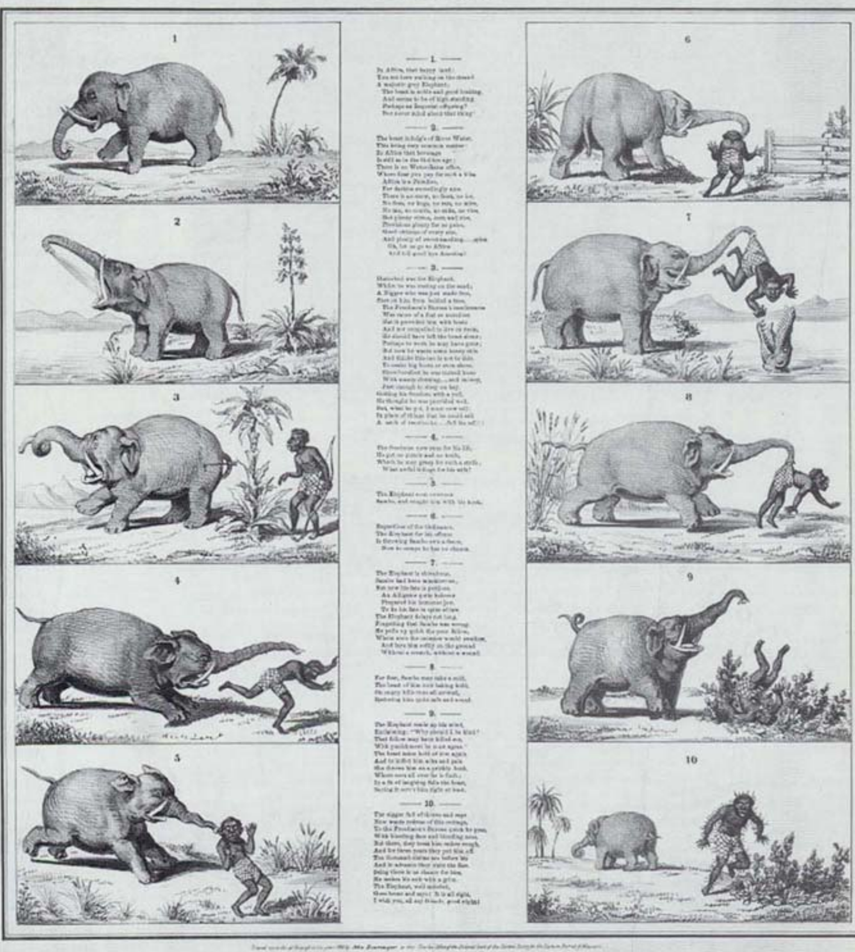
الكثير من النتائج. وعلى أية حال، ليس الـ eq بشيء ذي بال لدى الفيل؛ إذ لديه فصّ صدغي كبير بشكل غير عادي، ويرتبط هذا الفص لدى الإنسان بالذاكرة على وجه الخصوص. ولذلك هناك دليل عصبي على الأقل يدعم أساطير ذاكرة الفيل المهولة.

ويفضل بعضهم قياس الذكاء بمراقبة السلوك، فخلال سنوات الدراسة الثلاثين أو الأربعين الأخيرة، لا سيما تلك التي أجرتها مجموعة من النساء الاستثنائيات اللواتي كن يراقبن الفيلة البرية في إفريقيا طوال سنين، اتضح كم هي معقدة علاقات الفيل وكم هي مرهفة لا يعكر صفوها شيء. وسينثيا موس واحدة من تلك النساء، فقد عاشت طوال ثلاثين عاماً بين الأفيال وهي تراقبها في حديقة أمبوسيلي الوطنية في كينيا. وقد قامت بوضع خريطة للعلاقات

الصفحة المقابلة
صفحة من مصدر غير موثوق، «الفيل الإفريقي المنتقم أو الفروسي»، تتوزع فيها أقصى تصورات الإنسان تطرفاً عن سلوك الفيل.

The revengeful and chivalrous Elephant of Africa.

A true Story.



Composed, drawn and edited by John Beeringer, St Louis Mo, Broadway 337.

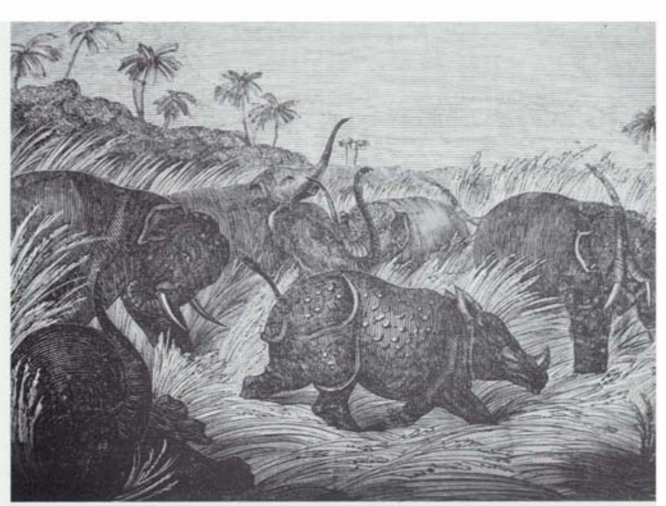
For Sale at { Matt. R. Cullen, 63 North Fifth Street / Harris & Brent, 47 North Third Street } St Louis Mo

العائلية المعقدة والتنقلات الجغرافية والخصائص الفردية بين مئات من الحيوانات، لتدون اكتشافاتها تلك في كتاب لافت هو «ذكريات الفيل».

ولربما يأتي في مقدمة هذه الاكتشافات الراهنة مدى التعقيد والحرص في الروابط العائلية للفيل. تضع موس خطوطاً عامة تشير إلى الدوائر المتراكزة لهذه العلاقة؛ فالأم وصغيرها يقعان في المركز ضمن دائرة أوسع من الإناث اللواتي تربطهن بالأم صلة وشيجة، وهي تتضمن عادة الأم المسيطرة الأكبر عمراً، وأبناءهن الفتيان. وخارج هذه الدائرة، تحوم زمرة مفككة من الذكور الأيفع سناً تؤكد على استقلاليتها رويداً رويداً. وفي النهاية هناك، في الخارج، ذكور مبعثرون يمضون معظم وقتهم وحيدين باستثناء فترات وجيزة من النشاط التزاوجي. قد تنقسم هذه المجموعة المركزية وتفترق من حين إلى آخر، ولكن التواصل يبقى قائماً على الدوام، و يكون لم الشمل صاخباً وبهيجاً، كما تصف سينثيا موس:

المجموعتان الفرعيتان للعائلة تسيران معاً في صخب وزعيق وصراخ، فترفع رؤوسها، تقرع أنياب بعضها بعضاً، وتلتف خراطيمها، وترف آذانها، ويدور كل منها حول الآخر رواحاً وإياباً، تتبول وتتغوط، وتبدي عادة جذلاً عارماً. وقد تدوم تحية من هذا القبيل عشر دقائق أحياناً[(xxvii)].

وتتفرغ المجموعات المركزية لتنشئة الصغار بشكل أساسي، فالصغير يدوم حمله 22 شهراً (وهي مدة مكنت، إثر جمعها مع تقنيات الكاميرا والتصوير المعقدة، من إنتاج فيلم مدهش عام 2006 في الـ BBC يستعرض تطور الوليد داخل الرحم in utero). وسيلازم الوليد الناشىء أمه طوال السنوات الأولى من حياته. وكل من الأم و«العمات»، أو الأمهات بالتبني، سيهرعن إلى مساعدته إذا ما تعرض إلى أية مشاكل. فالوليد الذي ليست له أمهات بالتبني تقل



هناك تاريخ طويل، مبالغ به أحياناً، من العداوة بين الفيلة ووحيد القرن: صورة في مجلة إنجليزية تظهر وحيد قرن "تهاجمه الفيلة»، حوالي عام 1836.

فرصته في البقاء على قيد الحياة ثلاث مرات عن الصغير الذي له أربع أمهات أو أكثر.

لقد اعتبرت بعض الناشطات النسويات هذه البنية الأمومية الجوهرية في عائلات الفيل أمراً حرياً بالاقتداء. وأياً كان تفكير المرء بصدد هذه المسألة فإنّ الرعاية الأمومية التي تبديها الفيلة قد تصل إلى حدود الإعجاز. روى الطبيب البيطري الباحث في شؤون الفيلة أنطوني هول مارتن، هذه الحادثة بين الفيلة العدوانية في حديقة آدو الوطنية في أيامها الأولى:

أمضيت وقتاً كي تألفني الفيلة وتألف سيارتي. فعندما بدأتُ كانت تهتاج لمرآي، ولكنها في غضون ستة أشهر باتت تفاجئني وتلمسني. وذات يوم كنت على مقربة من القطيع برفقة زوجتي كاثرينا وابننا الجديد فيغا، فقدمت ابني الأول إلى الفيلة الأم العجوز التي صرت على معرفة وثيقة بها، فتوارت بين الأحراش، وبعد بضع لحظات عاودت الظهور ومعها ابنها الجديد! فقد جاءت كي تريني صغيرها. أنا الآن عالم، وقد فكرت بتلك الحادثة ملياً فعجزت عن تفسيرها،

كانت لحظة سحرية. جمعتنا أثناءها رابطة خاصة[xxviii].

إنّ تنشئة الصغير عمل معقد بحد ذاته، فالتأديب واللعب والتعلم وتوفير الأمان تجتمع كلها في توازن دقيق. تستمر تربية الفيل حتى بلوغه سن «المراهقة». وفي واحدة من الحالات الراهنة والكاشفة، نقل عشرة ذكور يافعين من حديقة كروغر الوطنية في جنوب إفريقيا إلى منتجع بيلانسبرغ، فركضت الفيلة الفتية وكأن مسّاً قد اعتراها، يذكر قليلاً بالصبيان في رواية «سيد الذباب»، وبلغ المسُّ حداً حاولت فيه امتطاء العديد من حيوانات وحيد القرن وقتلها حقاً، وهذا سلوك شاذ تماماً بالنسبة للفيلة. ولم تلبث أن هدأت إثر استقدام ستة فيلة أكبر عمراً أصلحت ما جرى بينها، وذلك بكبحها لفورة النزو المبكرة جداً لدى الفيلة الفتية، عند ارتفاع التستوستيرون.

وقد يصادف أحياناً وجود عدد من المواثيق في علاقات الفيل ووحيد القرن عبر التاريخ في كل من آسيا وإفريقيا؛ فقد استمتع الرومان والمغول الهنود بزجها ضد بعضها بعضاً في الحلبة، حيث كان الإمبراطور بابور في الهند في القرن السادس عشر، يصطاد وحيد القرن من فوق ظهر فيل. وزعم صياد في إفريقيا الاستوائية في القرن التاسع عشر واهماً أنّ بين الفيلة ووحيد القرن عداوةً لدودةَ. وهناك قصص عن العنف المتبادل، وبوسعكم أن تشاهدوا على موقع اليوتيوب «مواجهة» بين فيل ووحيد قرن. وبشكل يدعو إلى الاستغراب، عندما قتل اللصوص ثلاثة من حيوانات وحيد القرن أواخر 2007 في محمية إيمير الخاصة وسط زمبابوي، وجد صغار وحيد القرن التي تيتمت نوعاً من البديل الواضح لدى الفيلة الأسيرة في المحمية.

لقد لاحظت مثالاً آخر غير عادي عن الجانب الاجتماعي لدى الفيل في إيمير. فقد اكتشف المالك نورمان تريفرز، بعد حصوله

على عدد من الفيلة اليتيمة في أوقات مختلفة، أن هناك فيلة أماً عجوزاً لم تندمج مع الآخرين فتوجب وضعها في منطقة منفصلة. وهناك، إثر افتقادها إلى صحبة الفيلة، تبنت عوضاً عنها قطيعاً من الجواميس. لقد شاهدت القطيع كله، ذات مساء، يتبعها في رتل طويل صوب الماء، في حين كان زوج من الجواميس الأصفر يسيران محتميين بخاصرتيها. ومما يلفت النظر أكثر، اتّضح أن الفيلة تميل إلى قتل صغير الجاموس عندما يولد، ولعلها بعدُ لم تتعرف إليها جيداً بصفتها جواميس. وتعلمت أمهات الجواميس، حتى تلك التي لم تتعرض لفقدان شخصي، الابتعاد لتلد بين أسرّة القصب القصيّة، ثم تقدم مواليدها وهي مترددة بعد أسبوع أو اثنين، إذ يبدو أن الفيلة الأم تفرح بتقبل الصغار في تلك المرحلة العمرية.

وثمة تعقيدات أخرى واضحة في النشاطات الجنسية حيث تحدث الإباضة لدى إناث الفيل في فترات متغايرة، وهي تحدث عموماً حوالي كل ستة عشر أسبوعاً، ولعل في هذا هو السبب في تطور أنظمة الإشارة والطقوس المعقدة لديها. أمّا ذكور الفيلة فتدخل بشكل دوري في الحالة المسماة بالهيجان عندما ترتفع مستويات التستوستيرون حيث يتجلى السلوك العدواني. ولعلّ في هذا السلوك ما يفسّر مقتل سائسي الفيلة الآسيويين من قبل فيلتهم؛ إذ كانوا يتعرضون بشكل دائم تقريباً لهجوم حيوان في حالة هيجان. بيد أنّ هذا لم يحدث دائماً؛ ففي إحدى المرات، كانت هناك فيلة آسيوية اسمها «نيللي» في حدائق دوربان الخاصة بعلم النبات، قتلت في النهاية حارسها. ويمكن رؤية الهيجان في تقطر سائل أسود من الغدد الصدغية التي تقع وراء العين تماماً. وهذا هو مصدر الفرضية التي تقول ببكاء الفيلة؛ وفي الواقع ليس لديها قنوات دمعية – رغم عنوان الكتاب الشهير لجيفري ماسون عن عواطف الحيوان «عندما تنتحب الفيلة». يتقدم الذكر المهتاج من مجموعة إناث باحثاً عن أية أنثى في مرحلة

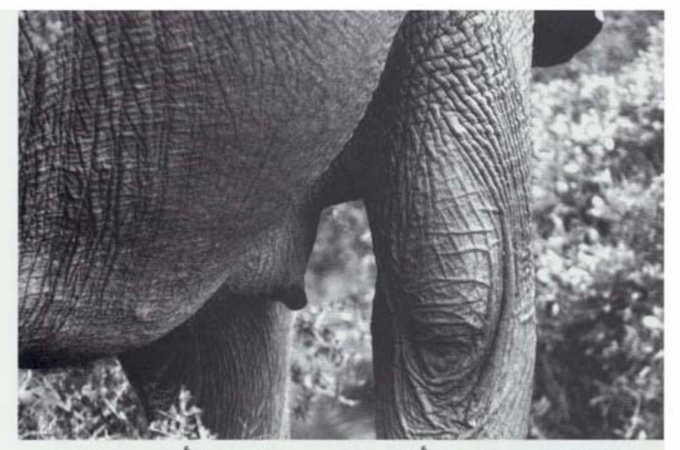


«صورة تركيبية» لفيل آسيوي تظهر كاما، إله الحب.

الإباضة، وأذناه تنشران رائحته القوية التي تتقدمه. فيتفحص بخرطومه أعضاء الإناث التناسلية وغددها الصدغية، واضعاً قمة الخرطوم على «عضو جاكوبسون» الخاص الواقع في سقف فمه كي يقوم بتقدير استعدادها الكيميائي، وهذا اختبار يعرف باسم شم البول flehmen. وقد يعقب ذلك الكثير من اللعب التمهيدي المرح مع تبول الأنثى وتغوطها، فيحوم حولها، وفي النهاية هي من يلوذ بالفرار والذكر يلاحقها وهو يجرجر قضيبه المنتفخ ذي اللون الضارب إلى الخضرة، والمتقطر بالمني. وفي هذا الصدد، تحكي سينثيا موس وجويس بوول عن مدى قلقهما وخوفهما عندما شاهدتا للمرة الأولى «مرض القضيب الأخضر» هذا، كما وصفتاه في البداية، وفي ظنهما أنّ هناك مرضاً معدياً مخيفاً يدنو منهما.

وبالرغم من ضخامة عضو الفيل يدهشنا أن البشر لم يتلهفوا للحصول عليه، كما هي الحال مع قضيب النمر أو قرن وحيد القرن. وعلى أية حال، هناك ثقافات عديدة في كل من آسيا وإفريقيا، ربطت بين الفيل وبين الجنسانية والشغف. لقد عزا كتاب كلاسيكيون مثل بليني وإيليان إلى الفيلة صفة الشبق، غير أن هذه المقاطع حذفت على يد المسيحيين المتأخرين بعدهما مثل القديس فرانسيس دو ساليس، في مطلع القرن السابع عشر، عندما أصبح الفيل أيقونة ترمز إلى النزاهة والثقة، بل حتى إلى العفة وعادات المائدة الكريمة![xxix]، ففي الهند، كثيراً ما يؤكد غانيش والأساطير المتعلقة به على خصب عام. وهناك نوع ثانوي من الرسم الهندي، يتم فيه تركيب صورة الفيل من أشكال بشرية هي للنساء عادة، لتصل أحياناً إلى كتلة متشابكة من أزواج نصف عراة في وضعيات تانترية متنوعة التصاميم. وبحسب دليل الجنس القديم، الـ «كاما سوترا» تسمى أشد النساء شبقاً المرأة الفيل أو Hastini، ومشيتها وقاسية. وفي معابد كيرالا، أبهى الفيلة

مكان وجود الثديين بين الساقين الأماميتين هو عامل آخر يجعل الفيلة ظاهرياً أشبه بالإنسان.



هو فيل ذكر، خرطومه وأنيابه وقضيبه تلامس الأرض؛ إذ كان يعد تمثيلاً للفحولة المطلقة ويدرج في عداد آلهة المعبد الرئيسية. أما مزاولو «السحر» الحديثون فامتدحوا في الفيلة جمعها بين الجنسانية والمسؤولية؛ اشتر فيلاً منحوتاً من حجر كريم، «وإذا ما رغبت في الكثير من الجنس فافرك الفيل بزيت المسك وضعه قبالة سريرك، مما سيعود بالفائدة على كلا الجنسين»[xxx].

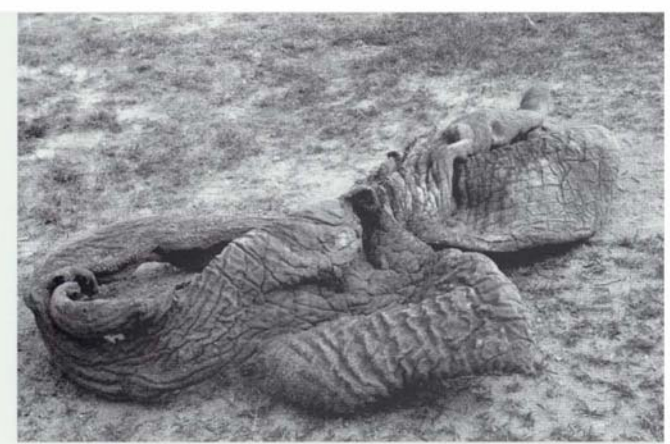
والحقيقة الغريبة عن اتجاه فرج أنثى الفيل نحو الأمام، قادت بعض الدارسين النمطيين الأوائل إلى تصور الفيلة وهي تتجامع مثل البشر وجهاً لوجه. ولكن ما جعل الأمر يختلط عليهم هو وجود خصيتي الذكر داخل الجسم وليس خارجه كما لدى باقي الثدييات، وكذلك وجود ثديي الأنثى أسفل الكتفين، مما يجعلها أشبه بالبشر أكثر من شبهها بالكلاب أو الوعول. وعلى أية حال، فإن الذكر يمتطي الأنثى براحة تامة من الخلف، ويقوم بإيلاج وجيز تساعد القضيب فيه وضعية الانحناء على شكل حرف s. وبعد الاقتران، يؤدي الذكر دوراً ضئيلاً في جوهر نشاطات المجموعة الأمومية.

إن العائلة المعقدة وحياة القطيع تتماشيان مع نظام تواصل معقد، ويعدّه الكثيرون مؤشراً أساسياً آخر على الذكاء. لقد عُرف أن تواصل الفيلة معقّد تعقيداً فريداً قد ينطوي على التحاور، رغم أنه ليس لغة على وجه الدقة. فمن الواضح أنها تتواصل إلى حد كبير من خلال الرائحة والإشارات الكيميائية، خصوصاً الفيرمونات، وربما كان التواصل أكبر من خلال اللمس. كما تنقل لغة الجسد أيضاً؛ حركات الأذن، وضعية الرأس، وضعية الخرطوم، نماذج المشي مثل «مشية الهيجان» لدى الذكر، أو التململ الحذر الصريح لدى أنثى في حالة إباضة، معلومات في كل لقاء فضلاً عن إنصات أحدهم إلى الآخر أيضاً.

لقد تعلم جورج ماكاي، في أثناء عمله مع الفيلة الآسيوية، أن يميّز حُزَماً من الأصوات المتعددة والمختلفة التي تصدرها الفيلة، وحدد لكل صوت «معاني» تقريبية. فإضافة إلى صوت البوق الصريح لدى الفيل، تؤدّي القرقرات البطنية العميقة دوراً في التواصل أيضاً، فضلاً عن التواصل الذي يحدث بالأمواج ما تحت الصوتية أيضاً، وهي تقع من دون مدى سمع الإنسان. شرع ماكاي بتبين «هرير لا يكاد يكون مسموعاً» تطلقه حناجر الفيلة، وذات صباح، أدركت كاتي باين، بوقوفها إلى جوار فيل في حديقة حيوانات واشنطن في بورتلاند أوريغون، «خفقاناً محسوساً في الهواء مثل رعد بعيد».

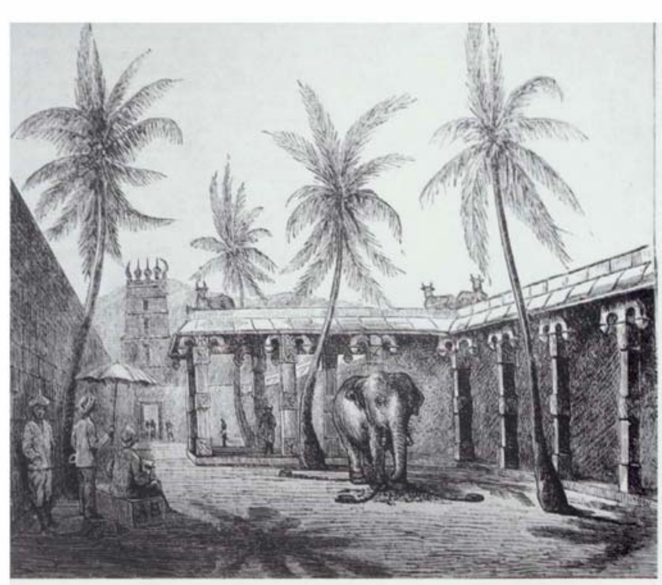
وشرعت باين بتسجيل هذا العالم التحت صوتي بين الفيلة في إفريقيا الجنوبية والشرقية، بعد تعديلها للتكنولوجيا التي تم تطويرها من أجل رصد غناء الحوت وتسجيله. فانفتح أمامها عالم بأسره، واتضح أن الفيلة إذ تتبادل الدمدمات مع بعضها بعضاً بتواترات تتراوح بين 14 و35 هيرتز، وقد تصل إلى 115 ديسيبل، تستطيع أن تتواصل على مسافة مئات الأمتار أو ربما كيلومترات. وهذا يفسّر ملاحظات المشرفين على اصطفاء الفيلة، مثل روان

قد تكون مقابر الفيل أسطورة، ولكن الفيلة ليست خالدة.



مارتن وغارث ثومبسون في زمبابوي، ومُفادها أنّ المجموعات التي تقصى عن مشهد القتل إلى مسافة بعيدة، بعيداً عن مرمى السمع الطبيعي بالتأكيد، ستغدو قلقة في الوقت نفسه. لقد كان بمقدور باين أنّ تميز على الأقل ثمانية أنواع مختلفة من النداءات وتربطها باستجابات سلوكية محددة، عنونت الكتاب الذي كتبته عن بحثها بـ «رعد صامت». أمّا كارين ماك كومب، التي عملت مع سينثيا موس في أمبوسيلي، من خلال تجارب أخذت الحرص بالحسبان وشملت تسجيل الأصوات، فقد استنتجت أن الفيلة تتبادل أيضاً قدراً كبيراً من الألفة بين أفرادها، إذ كان واضحاً أن فيلاً وحيداً يألف النداءات الفردية لمجموعات من أربع عشرة عائلة، يفوق إجمالي عدد الإناث البالغات فيها مئة أنثى. وفي لحظة مؤثرة للغاية، أثار تسجيل صوتي لنداء أنثى ماتت منذ ثلاثة شهور ردَّ فعل إيجابياً لدى أقرب أقربائها إليها[xxxi].

هذه الحساسية الصريحة تجاه موت الأقرباء وإدراكه، هو مظهر آخر يستدعي مقارنة وثيقة مع ذكاء الإنسان. وطوال آلاف السنين، راجت أساطير غريبة عن «مقابر الفيل»؛ إنها أساطير، غير



رحالة بريطاني من القرن التاسع عشر، يظهر هنا في بورما وهو يرسم فيلاً، ونراه يتعرض للمضايقات المتكررة من قبل الفيل الذي يرمي أشياء عليه.

أن نزوع الفيلة المحتضرة إلى الذهاب باتجاه مناطق يتواجد فيها الماء أو نباتات أطرى يعني أن الكثير منها قد تقضي نحبها في أماكن معينة. وتواصل الأسطورة استفزازها للكتاب، على الرغم من أنها قد اتخذت اليوم منحى ساخراً، مثل هذا المقطع المأخوذ من قصيدة للشاعر الجنوب إفريقي كريس مان:

ولَّت نماذج الصيادين القدامى تلك
ولكن الأسطورة لا تزال تتسكع،
لأنّ الفيلة
وحوشٌ تأملية، تحَبُّ
ومفارقةٌ للتاريخ،
وأي مكان خيرٌ من إفريقيا
بوسع المثالين القدامى الذهابُ إليه
كي يواروا هياكلهم البالية؟(xxxii)

يبقى أن مناورة الفيلة الغريبة للموت، وسلوكها الذي يقارب الحداد، قد تم توثيقه جيداً الآن، وعلى الأرجح حيث تكتب سينثيا موس، «هو أغرب الأشياء المتعلقة بها». لقد لاحظ كثيرون أن الفيلة تسعى إلى إحياء أفراد عائلتها المحتضرين، الأمهات أو الأبناء، وتلازم الجثة فترات طويلة أو تعودها مراراً، وأحياناً تغطيها بالتراب أو الأغصان، وكأن ذلك إيماءة دفن بدائية. لطالما تعود إلى زيارة عظام قريب توفي منذ وقت بعيد، فتبعثر هذه العظام في الأرجاء، وتحركها بقدمها أو تتقرى شقوق الجمجمة بخراطيمها. وهذا السلوك متوقّع منها، بحيث يمكن لصنّاع الأفلام تلقين الفيلة وضعيات مختارة عن طريق نقل عظام فيل آخر إلى هناك.

وهناك مؤشر آخر أيضاً على الذكاء العالي نسبياً، وهو شكل بدائي من استعمال الأدوات، من قبيل استخدام غصن مكسور في حكّ المناطق البعيدة عن المتناول. لقد شوهدت الفيلة البرية في حديقة ناغاراهول الوطنية في الهند وهي تستخدم بشكل روتيني الأغصان كي تهشّ عنها الذباب المزعج. ومن باب التجربة، تم تزويد ثلاثة عشر فيلاً بمجموعة متنوعة من الأغصان، في حديقة ناغاراهول أيضاً؛ فما لبثت ثمانية منها تهيئ الأغصان عن طريق نزع الأجزاء غير المرغوبة كي تشكل مذبات ذباب فعّالة أكثر. وبالطبع، كانت مقدرة الفيلة على إدراك الأشياء سبباً أساسياً في استعمالها في حلبات السيرك؛ ولا يزال بعضها يلقن رمي السهام الصغيرة على البالونات فضلاً عن تعليمها ألاعيب ساذجة أخرى. وكانت هناك فيلة في حديقة الحيوان، منهمكة بدسّ الأشياء مراراً بين عوارض سقف بيتها الليلي؛ واكتشف أنها كانت ترمي بهذه الأشياء على الجرذان المتراكضة، ويصعب الجزم في ما إذا كان الداعي هو الانزعاج أم اللهو. وكثيراً ما تظهر الفيلة حساً بالفكاهة والمشاكسة، مثل صغارها

التي تستاء من بعضها بعضاً فتتقاذف الأشياء في نوبات غضب. كما تبدو مقدرتها على الإيثار متطورة إلى درجة عالية أيضاً، ولا يقتصر الأمر على تقديمها المعونة لبعضها بعضاً في الورطات الحرجة أو التمامها كي تساعد عضواً متوعكاً في القطيع، بل عرف عنها أيضاً تحذيرها الناس من وجود الأسود أو الأفاعي النافخة. وقد يضللنا هذا الأمر؛ فهناك قصة معروفة عن فيل هاجم حارس قطيع تحرش به فكسر ساقه، ثم رفض أنْ يقترب أحد منه.

وبالطبع، لا ينبغي لما ذكرناه أنْ يخفيَ عنا مظاهر أقل استساغة في سلوك الفيل؛ الشجارَ، اللامبالاةَ تجاه المعاناة أحياناً، والعنفَ المميتَ بين الذكور المتنافسة، والميل إلى قتل البشر وتدمير معيشتهم ومحاصيلهم. ومع ذلك، فإن جميع من تسنّى لهم العيش بين الفيلة وإلى جوارها، في وضع يخلو من التهديد، قد تنامى لديهم تعاطف قوي متبادل أحياناً. فقد كتب أيان دوغلاس هاملتون، وهو باحث رائد، في كتابه المثير للجدل، «بين الفيلة»، أنه «مع حيوانات برية أخرى، تسد الفيلة قسماً من حاجة الإنسان العميقة إلى إنعاش روحه»(xxxiii).

وفي جميع الأحوال، تظهر الفيلة بنى اجتماعية وسلوكية واضحة التعقيد، وقربها من الإنسان جليٌّ، بحيث أن أكثر من كاتب تساءل عما سيكون الأمر عليه إذا ما كان المرء فيلاً. هل لدى الفيلة تاريخ تتذكره؟ هل لديها حسٌّ بالثقافة، أو حتى شيء من وعي الذات؟ ما الذي تتناقله فيما بينها؟ تدخل سينثيا موس مقاطع أقرب إلى الرواية في كتابها «مذكرات الفيل»، ولكنها لا تحاول القيام بالمحاولة المستحيلة بالدخول إلى عقل الفيل. غير أن روائية كندية هي بربارة غاودي، تقوم بذلك، ففي رواية «العظم الأبيض»، التي تدور أحداثها في شرق إفريقيا، تعتمد غاودي بكل وضوح على أبحاث كاتي باين وجويس بوول وموس، كي تعيد خلق حياة الفيل العائلية، وذاكرته التاريخية ووعيه الثقافي، وذلك من وجهة نظر الفيل. وفي هذه

الرواية ترسم غاودي شخصية فيلة تبلغ ذاك المستوى المثالي من وعي الذات، من خلال التعرّف إلى نفسها في مرآة جانبية سقطت عن سيارة إنسان. وفي الواقع، نقلت مادة علمية عام 2006 بعض التجارب الذكية التي تشير بجلاء كبير إلى تعرف الفيلة الأسيرة على نفسها في المرايا(xxxiv).

وأيّاً كانت الاحتمالات، فإن المشهد الذي تظهر فيه الفيلة على قرب شديد من البشر بحيث تستحق منهم حماية واهتماماً خاصين، قد طغى على مواقف أناس كثيرين، وأثّر على الإدارة وحتى تقنيات الاصطفاء. ولا شك لدى الدكتورة دافني شيلدريك، التي عاصرت حكمَ الإمبراطورية البريطانية ودرست طوال خمسة عقود الفيلة الكينية من قاعدتها في ميتم نيروبي للحيوانات، أن الفيلة هي «نوع قريب» من الإنسان. فكتبت عام 2006 بعد تنشئتها 75 يتيماً على يديها، أنّ بوسعها القول «من الناحية التصنيفية إنها حيوانات بالغة الإنسانية في الواقع، بمعنى الذكاء والعاطفة وصفات إضافية قليلة أخرى»(xxxv).

وفي الجانب الآخر، يقف أولئك العلماء الذين يعدّون إسباغَ حالات عاطفية على الحيوانات أنسنة غير جائزة، وأن تواجد العاطفة سواء لدى الحيوانات أو لدى الإنسان المراقب هو بمثابة تعتيم على القضايا الحقيقية، «فالفيلة هي الفيلة»، كما صاغها أحد المشرّحين، «وليست كائنات بشرية رمادية ضخمة»(xxxvi).

إنّ هذا الجدالَ ساخنٌ حالياً، كما سنرى في الفصل الأخير حيث نراجع القضايا الراهنة للمحافظة على الأنواع، ونتملى مستقبل الفيلة. أما الآن، على كل حال، فلنعد إلى «حياة الفيلة» المذهلة الثراء، في مخيلة الإنسان؛ في الأساطير والأدب والفن.

3 - تصوير الفيلة

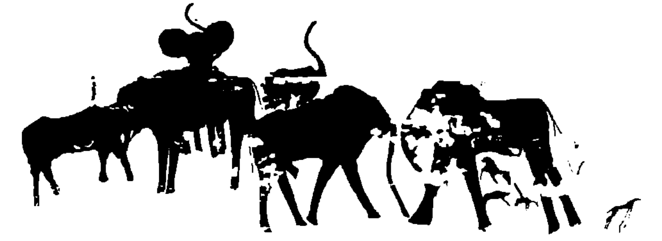
العالم مغمور بصور الفيلة. ولا بدّ أنّ هناك لكل كائن حيّ متثاقل من ذوات الجلد السميك قصيدةً واحدة على الأقل، قصة، رواية، كتاباً مصوَّراً من القطع الكبير، أو فيلماً وثائقياً تلفزيونياً، مئة تمثال، ألف لوحة، عشرات الآلاف قطع الزينة السياحية، ملايين البطاقات البريدية وشعارات الدعايات. وبحوزة كل من تكلمهم تقريباً حكايتهم أو كتابهم أو صورتهم الفوتوغرافية المفضلة. وهكذا هي الحال حتى في الأماكن التي لم تعش فيها الفيلة قط مثل أمريكا الشمالية. منذ بضع سنوات سافرت إلى وايتهاوس في يوكن، بالقدر الممكن المتاح للابتعاد عن جنوب إفريقيا، وهناك، في أول مقهى دخلته، وجدت حائطاً مغطى بصور تعود إلى صاحب المقهى تظهر فيها الفيلة الناميبية. إنّ تصنيع الأشياء التي لها علاقة بالفيل هي صناعة جدية، فقد وجد مايكل نابيك، وهو أحد الجامعين الذي أنتج موسوعته الخاصة حول مقتنيات لها صلة بالفيل، ثلاثة آلاف قطعة فنية معروضة للبيع على موقع «إي باي» خلال أسبوع واحد، وهي تراوح من البرونزيّات الواقعية الدرامية إلى دمى البلاستيك المحببة. سأجازف بتخمين، مستثنياً الكلاب والقطط والخيول ربما، وهو أنه ما من ثديي آخر قد حظي بهذا الحضور البارز في التصاوير الفنية لعالم الحيوان، ومن الصعب إنصاف هذا الغنى إنصافاً تاماً طوال حياة واحدة، ولندع عنا الإنصاف هنا لننتقل إلى البحث في تمثيلات الفيل في الآداب والفنون.

يبدأ هذا الفصل، إذاً، ببواكير الرسوم في الفن الصخري، ثم ينتقل إلى أساطير الخلق الأولى والفولكلور، مروراً بعوالم الأيقونات الدينية، فتطور منحوتات الفيلة ورسومها وصولاً إلى الوقت الحاضر، فضلاً عن الفيلة في تجلياتها الأدبية المتعددة؛ في الأمثال ومذكرات

الصّيادين والروايات والقصائد وبصفتها مجازاً موجوداً في كل مكان، وانتهاء بالفيل في الثقافة الشعبية المعاصرة، من الموسيقى والإعلان إلى ما يشكل، من من دون شك، فن عصرنا، أي السينما.

يبدو أنّ الناسَ قد قاموا بتصوير الفيلة منذ أنْ استطاعوا القيام بتصوير أي شيء، فالفيلة والماموث تظهر مرسومة في العديد من الـ 75000 موقع منفصل معروف للفن الصخري في أرجاء العالم. هناك رسوم شهيرة عديدة للماموث داخل الكهوف في أوروبا، في فون دو غوم، في منطقة دوردونيه في فرنسا (عمرها حوالي 15000 سنة)، وفي فالون بون دارك (عمرها 17000 سنة)، وفي روفينياك (تصوير قطيع صغير)، وأجملها في شوفيه. وفي عام 2007 أزيلت البقع عن البقايا الرقيقة لرسم صخري يصور الماموث في تشيدر كيفز في سومرست بإنجلترا.

وتحفل إفريقيا بالنقوش والرسوم الصخرية أكثر، حيث أنجز بعضاً من بواكيرها فنانون من سكان الأدغال أو قبيلة سان في جنوب إفريقيا، ولكن الجدال ظل يكتنف تسمية هذا الطيف من الشعوب المبعثرة والمترابطة مع ذلك، والمتحدثة بعدد كبير من اللغات التي لا



خراطيم مرفوعة تتشمم الهواء؛ رسم صخري من قبيلة سان في روساو، جنوب إفريقيا.



يفقهونها إذا تواصلوا فيما بينهم. وحيثما تراءت السطوح المناسبة في كهوف المأوى وفوق الصخور، كان فنانو الأدغال يرسمون حيواناتهم المحلية لأسباب دينية (شامانية)، ولأسباب أكثر واقعية في تصوري (من قبيل اللهو!)، إنّ هناك، على الأقل، قسماً من فن الأدغال الصخري عمره آلاف السنين، ويتراوح من رسم ضئيل بقياس 25 مم إلى رسوم بالحجم الطبيعي في كهف روشيرا في مقاطعة متوكو في زمبابوي، وتعود أزمنة هذه الأعمال إلى الألفية التاسعة قبل الميلاد. وعادة ما تظهر الفيلة جانبياً في التصاوير، ولكنْ ثمة تصويراً يظهر الفيل من الخلف، ومثالاً آخر لم ينشر من قبل، يعود إلى مقاطعة روساو في إيسترن كيب في جنوب إفريقيا، يظهر فيه الفيل من الأمام، وخرطومه مرفوع بطريقة تثير الفضول. لونياً، تتباين الرسوم من الأحمر إلى الرمادي، وربما يعكس هذا لونَ الطين المحلي أو الغبار الذي تعفرت به الفيلة. وهناك النقوش الصخرية وألوانها أقل، غير أنها شأن سابقاتها دقيقة التنفيذ، ويوجد معظمها في ناميبيا. وهناك تبدو أشكال الفيلة في انسجام عظيم مع صخور البازلت الضخمة السوداء المزرقة التي رُسمت علَيها بعضُ المشاهد تصور الصيد، ومعظمه يتم بالسهام، وأحياناً بسواطير باترة. لقد ظلت مجموعات قليلة ناجية من سكان الأدغال متخصصة في صيد الفيلة إلى أن أقصَتها تقنيات الأسلحة النارية الأوروبية في مطلع القرن التاسع عشر. وعلى أية حال، لم تكن الفيلة مجرد مصادر للغذاء وحسب، فقد أدخل سكان الأدغال، ولا يدهشنا ذلك، أضخم الحيوانات في خبراتهم الحياتية إلى نظامهم الروحي الديني، ويظهر رسم يعود إلى منطقة بورتفيل في جنوب إفريقيا، قطيعاً يحتويه قوس قزح مضاعف، ومن المرجّح أنه يربط الفيلة بالطقس الديني المهم في الاستمطار. ففي زمن غابر، كان معظم سكان الأدغال يعتقدون أنّ الحيوانات بشر، ووصفوا علاقة القربى الوشيجة هذه في حكاياتهم

الشعبية أيضاً. وما يمكن اعتباره أقدم قصيدة عن الفيل في حوزتنا، بحسب عدد الأجيال التي تناقلتها، ومن يستطيع الجزم؟ هي بيتان مبهجان:

يا شجرة الأكاسيا، العالية السامقة، أنت أيتها الملأى بالغصون،
شجرة الأبنوس ذات الأوراق الكبيرة العريضة(xxxvii).

وهناك شعوب لا تمت إلى هذا الموضوع إلا بأوهى الصلات، وهم الأقزام في الكونغو والغابون، خلطت أيضاً بين الطغيان والتبجيل، كما يظهر في إحدى أغنيات الأقزام في بيكو:

رغم المطر الذي كان يضرب الغابة بالسياط
كان أبونا الفيل متثاقلاً يخطو، باو، باو، باو
حيياً، غير هيّاب، مزهواً بقوّته
أبونا الفيل، الذي ليس بوسع شيء أنْ يقهره
في الغابة التي يدمرها بمشيئته
إنه يتوقف، ويبدأ من جديد، يرعى، وينفخ بوقه
يصرع شجرة أو اثنتين، ويبحث عن امرأته.
أبانا الفيل، إنّ صياداً بعيداً يسمعك.
يا صيادَ الفيلة، استلّ قوسك!(xxxviii)

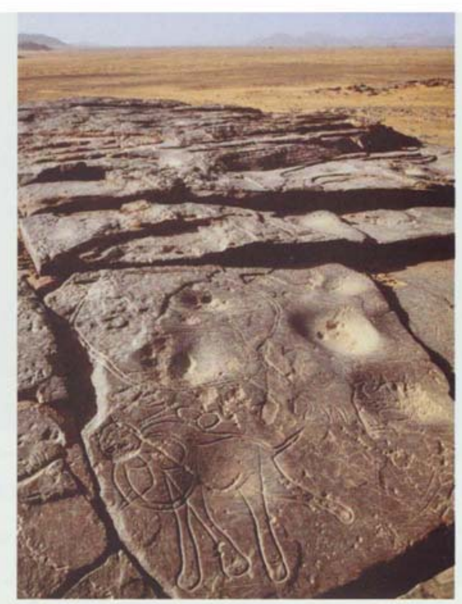
بيد أنّ الفن الصخري الذي يظهر في شرق إفريقيا ووسطها وغربها أقلّ، رغم أنّ هناك تخطيطاً جميلاً يصور فيلاً في كهف كاكابيل في كينيا الغربية. أما إفريقيا الشمالية، من صحراء النوبة إلى المغرب فتزخر بتصاوير الفيل، وعلى الرغم من صعوبة تحديد تاريخها الدقيق، فإن عمر بعضها آلاف السنين. والأمثلة المنفّذة تنفيذاً دقيقاً، لا سيما في جبال تيبتسي في تشاد، يعود تاريخها إلى ما يسمى

رسم الفيل هذا يعود إلى قبيلة سان بالقرب من بحيرة تشيفيرو، زمبابوي، وعلى الأرجح له صلة بـ «أفعى المطر» وطقوس الخصب.



عصر الصيادين، حوالي 6.000 ق.م. وبحسب ما تكشفه الرسوم الرائعة في تاسيلي، التي تقع الآن جنوب ليبيا، فإن الصحراء الكبرى كانت ذات مرة جنة تزدهر بأنواع الحيوانات والأراضي الخصبة. وهناك لوحات محفورة حفراً دقيقاً رائعةٌ في واقعيتها، وتخطيطاتٌ أخرى حداثيةٌ تقريباً بخطوطها المعقدة المقوّسة وسطوحها المشوهة. وإحداها تلفت النظر في هضبة ميساك في ليبيا تظهر إنساناً له رأس ابن آوى يقتفي فيلاً، وهو يلملم روثه ويلعقه، وربما كان هذا طقساً شامانياً يتعلق بقوة الفيل.

لا يقتصر الفن الصخريّ على أوروبا وإفريقيا؛ فلآسيا أيضاً أمثلتها التي تكاد تضاهي قرينتيها في القدم، رغم أن حضور الفيلة أندر على ما يبدو. نخصّ بالذكر رسماً غريباً سجّله لنا الدكتور ك. كامات، في كهف في بيمبيكاتا بالقرب من بوبال، ويظهر فيلاً لا تخطئه العين محتوى داخل رحم أحد أنواع الوعول، وربما هذه بقية من حكاية شعبية ضاعت منذ وقت طويل. وبعد ذلك بفترة طويلة، منذ القرن الثاني قبل الميلاد فصاعداً، أخلى البوذيون كهوف الرهبان في أجانتا في مجرى نهر واغورا، شمال شرق هضبة ديكان،



نقش صخري لفيل في هضبة دجادو، شمال غرب النيجر، يعود على الأرجح إلى 5.000 سنة.

ثم زيّنوا الجدران بوفرة من تصاوير أميرهم سيدهارتا، ومشاهد حسية أخرى، وتصاوير فيل أبيض لعوب يحمل بخرطومه زهرة لوتس. وفيما بعد تم اعتماد هذه الصورة كشعار لدائرة السياحة في الهند.

إن الهبة الفنية الكبرى التي قدمتها آسيا إلى العالم، هي الفنّ الذي أنتجته خلال السنوات الألفين الماضية، ويرتبط قسم كبير منه بدياناتها، الهندوسية والبوذية بشكل أساسي. ولا بدّ أن هذه الأعمال تعدُّ من بين أبدع الأعمال الفنية وأشدّها إبهاراً في تاريخ الإنسان، فقد نشأت بعض هذه الأعمال من أساطير خلق العالم، وهي فانتازية ومتغيرة في آن معاً. ويؤدي الفيل فيها دوراً محورياً.

في بعض الأساطير الهندوسية الأولى، ينقف الخالق بيضة

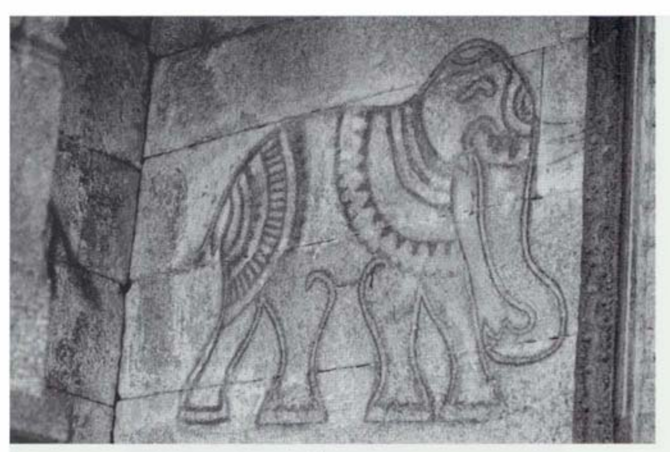
"الحمل»: فن صخري من بيمبيكاتا، الهند، يعود على الأرجح إلى 20.000 سنة، كما أعاد رسمه الدكتور ك. كامات.

الكون؛ فيشكل صفارَها الشمس، وتشكل محتوياتها الأخرى اليابسة والبحر والسماء. أمّا النصفان المتبقيان من قشر البيضة، فيتم تقديمهما إلى خلوة مكونة من اثني عشر حكيماً، يترنمون في أثناء تكوّن العالم.

وسيفضي هذان النصفان إلى انبثاق ثمانية حيوانات ذوات أنياب (diggaja) من النصف الذي يقع إلى يمين الخالق، أربعة منها ستتخذ مكانها كأعمدة في زوايا الكون. أما الأربعة الباقية فتتضمن أيرفاتا الرائع، الذي سيحمل الإله إندرا، ربَّ الكون، أثناء قيامه بأعماله. وقد تمت محاكاة هذا المخطط محاكاة غريبة ساخرة، على يد ثيري براتشيت في رواياته الخيالية عن عالم اسمه Discworld، وفيه تترنح أربعة فيلة في مشيتها على ظهر سلحفاة سماوية. وفي المقام الأول يرتبط إندرا بالرعد والمطر الذي يهب الحياة، ومن هنا، مراراً وتكراراً في الآداب الهندية، يرتبط الفيل بالماء، ولون جلده باللون الرمادي الداكن لغيوم الرياح الموسمية،



الإله الهندوسي إندرا ممتطياً فيله إيرفاتا، شمال الهند، القرن التاسع عشر.



فيل أحمر مرسوم بالخطوط على جدار معبد جاين في سرافانابيلاغولا، الهند.

والرعد بنوبات غضبه غير المتوقعة أثناء هياجه الجنسي. لقد وصف نيليكانتا، وهو شاعر سنسكريتي، فيلاً أثناء هياجه الجنسي بأنه «مملوء بالرعد مثل غيمة مدلهمة»(xxxix). وبحسب قصة أخرى، كان بوسع الفيلة في بواكير وجودها أن تطير، وحتى أن تغيّر شكلها بكامل إرادتها مثل الغيوم. ولسوء الحظ، قررت ذات مرة أن تحطّ بكاملها على غصن شجرة أثأب (تين البنغال)، فانكسر تحت ثقلها ودمرت كوخ ناسك ذائع الصيت اسمه دريغاتاباس. فاستشاط غضباً لأنها أقلقت راحته، ولعنها بجعلها محكومة بجاذبية الأرض وتنكّب أعباء الإنسان. وفي قصيدة ملحميّة تعود إلى القرن الرابع، هي Meghaduta، أي «رسول الغيم»، لصاحبها كاليديسا، هناك ياكشا yaksha مطرود، أو قاطن غابة، دمر فيلٌ حديقة سيده، أثناء انغماسه في لهو الحب، فيستنجد بسحابة لها شكل فيل:

منفياً في الغابة، يتضور حباً وقد أضناه النكران،
يدع الياكشا سواراً ذهبياً ينزلق من ذراعه الواهنة،
وبينما تشارف أيام الصيف الأخيرة على نهايتها، يبصر سحابة،

تشبه فيلاً هائجاً يضاجع سفح الجبل...[xl]

ثم تتبع السحابة التعليمات كي تعثر على زوجة الياكشا، بصفتها فيلاً يشرب ويرشّ المطر على العالم أثناء طيرانه، ومن هنا الصلة بين الفيل والأشكال العديدة من الخصوبة.

تحتوي كل من الرامايانا والمهابهاراتا، الملحمتان السنسكريتيتان اللتان تعودان إلى الألف الأول قبل الميلاد، على قصص عديدة متعلقة بالفيل محورة عن فولكلور مجهول الأصل وتنطوي على تدابير عملية. وهناك أيضاً، تستلزم فوضى العالم، المتمثلة بنفي راما وسيتا إلى الغابة، فيلاً - وفي هذا الحال، يقتل داسهارتا، والد راما، بالخطأ ناسكاً شاباً حسبه في الظلام فيلاً. وعلى الرغم من أن غانيش، كما رأينا، قد انبثق تحت تأثير آريان، في وقت لاحق من هذه السيرورة، فالأسطورة تقول إن المهابهاراتا قد كتبها غانيش نفسه، الإله ذو رأس الفيل، مستخدماً نابه الوحيد قلماً.

عديدة هي الأساطير المتعلقة بأصل غانيش، ولكننا سنذكر واحدة منها هنا: كان غانيش هو ابن شيفا، محرك الكون، وزوجته الرائعة بارفاتي. لقد جاهدا كي ينجبا، على الرغم من اشتعال شيفا بالرغبة كلما مسه سهم كاما المزهر، إله الحب، وضايق بارفاتي في إحدى نوبات هياجه الجنسي بمباغتتها وهي تستحم. فغسلت بارفاتي الوسخ عن جسدها، ثم مزجته بالزيت وعناصر سرية، وجبلت غانيش من ذاك المزيج. ثم وُضِع غانيش حارساً على باب حمامها، فمنع شيفا من الدخول في زيارته التالية، وكان الثمن هو قطع الإله الغاضب لرأس غانيش. فشدهت بارفاتي وبعث شيفا النادم بالرسل كي يجلبوا أول رأس بديل يعثرون عليه، وتصادف أنه رأس فيل.

إن تفاصيل مظهر غانيش فيما لا يحصى من الرسوم وتماثيل



النذور، موجودة بالثراء نفسه في الأساطير. حيث إنه فقد أحد نابيه في عراك مع باراسا - راما، وهو أحد تقمّصات الإله المدمر فيشنو. إنه يمتطي جرذاً، يساعده بأحذق الطرق كي يزيل العراقيل، وهذا هو عمله الأساسي في الحياة. يوحي بطنه البدين بالثراء والقوة في آن. ويتم تصويره دائماً وهو ممسك بأشياء رمزية؛ سوط، زهرة لوتس، فجلة، أو فراشة. لقد أصبح غانيش أو غانيزا، ولا يزال كذلك حتى هذا اليوم، الإلهَ الأشهر في محفل الآلهة والإلهات الهندوسية. وباختصار، لقد بات معروفاً باسم «رب البدايات والعهود والامتحانات» و«مزيل العراقيل».

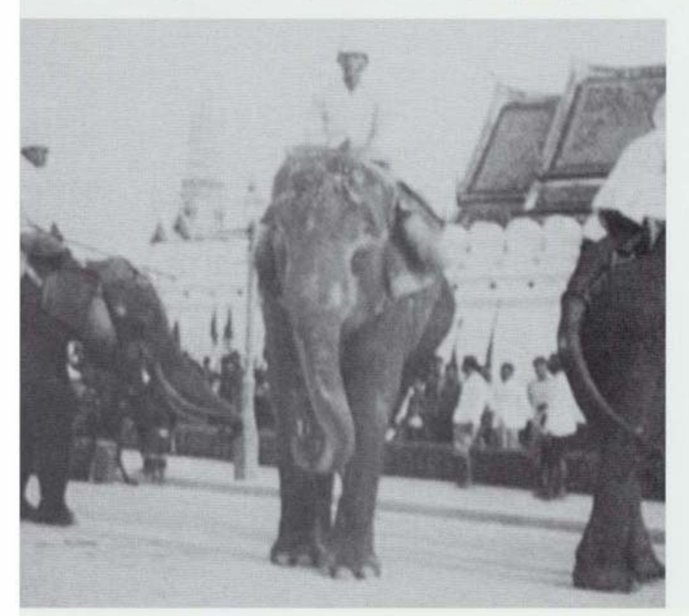
لقد وجد طريقه أيضاً إلى صميم المعارف البوذية، حيث يقرنه الكهنة، أحياناً، بمطية إندرا المقدسة بوصفه الحيوان السميك الجلد



صورتان لغانيش، الإله الأشهر بين سائر الآلهة الهندوسية: لوحة وتصوير معدني حديث لغانيش، يبدو فيه مثل هجين من كلب بولدوغ وملاك من ملائكة الجحيم.

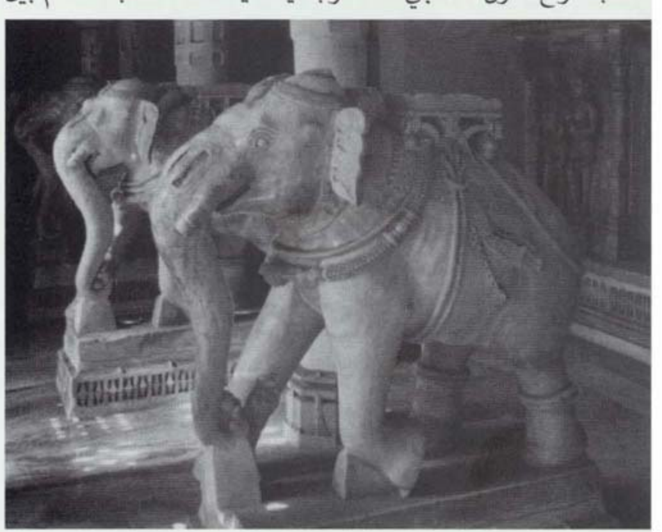
المسؤول عن ولادة بوذا نفسه. كان بوذا (ولد باسم سيدهارتا)، ابن نبيل من كابيلافاستو، ومات موت إنسان عادي حوالي عام 483 ق.م، غير أن الأساطير التي تعاظمت حوله قامت بتصويره واحداً من سلسلة من المستنيرين المتناسخين، فقد ولد مثل المسيح من عذراء هي الملكة الحسناء سيريماهامايا ذات «الذراعين الأكثر مرونة من خرطوم فيل»، كانت قد كرّست نفسها للتقشف والعفة. ولكن، ذات ليلة في قصرها بالهيمالايا، وعلى زعمها، «هبط من الجبال فيل فضي البياض، فدخل غرفتي وانحنى أمامي، وكان يحمل بخرطومه زهرة لوتس، ثم أيقظني صياحُ طائر». وهكذا، إثر حملها من خرطوم الزائر، انتبذت حديقة لومبيني كي تلد بوذا.

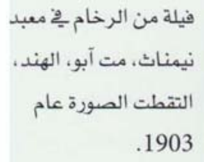
وبمعزل عن صور غانيش، تظهر المعارف البوذية ثقافة تألف



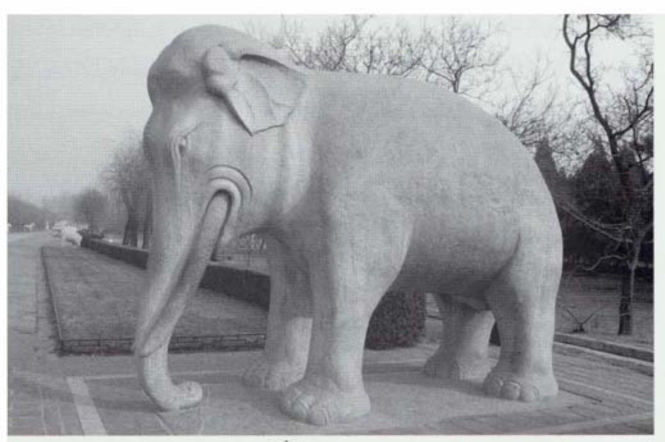
بعض من «الفيلة البيضاء» التايلاندية الملكية الشهيرة، صوّرها وليام هنري جاكسون أواخر القرن التاسع عشر.

الفيلة ألفة عميقة، فقصص جاتاكا، وهي حكايات شعبية تتعلق بولادات بوذا وحيواته السابقة، ملآى بقصص عن الفيلة الأسيرة والحربية. وثمة قصة تثير المشاعر على نحو خاص، وفيها يتقمص بوذا المستنير، أو بودهيساتفا، فيلاً برياً والداه أعميان يكرّس حياته لهما، لكنه سرعان ما يقع في أسر صياد يأخذه إلى الملك المحلي في مقاطعة بينارس، فيعتريه الهزال؛ ثم يطلق الملك سراحه بعد أنْ أدرك محنته، كي يعود إلى والديه المحرومين. ويبدو أنّ هناك، في غالب هذه الحكايات، ثروة من المعرفة القائمة على الملاحظة العلمية أحياناً، ومقدرة على تجاوز الحدود المقلقة بين الإنسان والفيل، ورغبة في التعلم من عادات عائلة الفيلة. وكان السببُ الذي أدّى إلى استمرار عبادة الفيل الأبيض، لا سيما في تايلند، هو تقمص بوذا لأكرم الوحوش جميعاً وأكثرها حكمة، «فم مفتوح، رأس قرمزي اللون، أنياب تتألق كالفضة، جسد يتلألأ بالحجارة الكريمة، يكسوه أقشب أنواع التول الذهبي، لا تشوب أيةُ نقيصة التناسب القائم بين





فيلة من الرخام في معبد نيمناث، مت آبو، الهند، التقطت الصورة عام 1903.



تماثيل الفيل على امتداد شارع الأرواح المفضي إلى أضرحة منغ خارج بكين، نحتت عام 1435.

أطرافه وأعضائه، وله سمات الملوك»[xli].

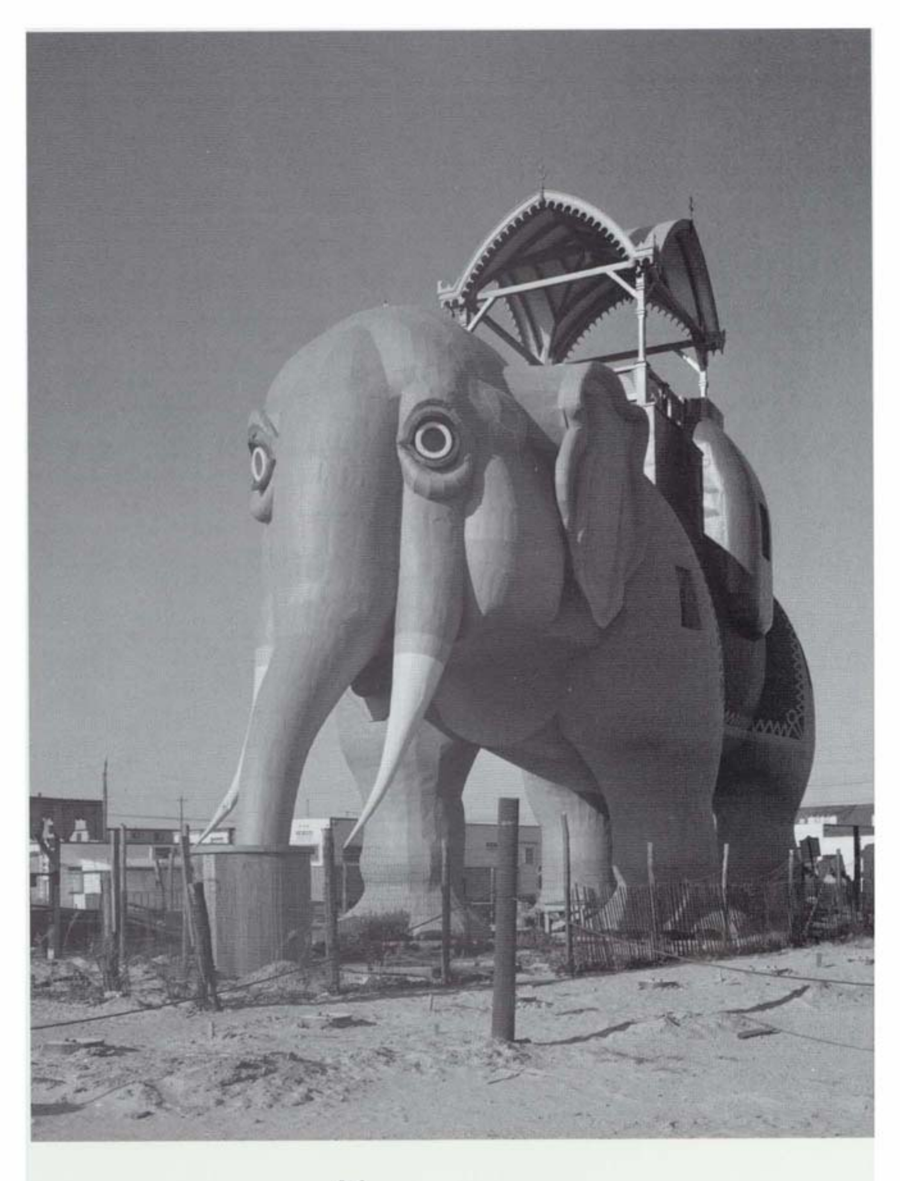
ومن هنا، يتجلى الحضورُ البارزُ للفيل في الأيقونات الدينية. في أرجاء آسيا الهندوسية والبوذية، فيربط أحياناً ربطاً ليس باليسير مع السلطة الأرستقراطية أو الملكية. إذ إنّ هناك قصوراً ومعابد لا تحصى تحرسها صفوف من أعمدة ضخمة من الفيلة؛ قصر ووديار في مايسور، وقصر ماهارانا في أودايبور المطل على مياه بحيرة بيتشولا في الهند، ومعبد كايلاسانثا في إيللورا. كما أنّ هناك وحشاً أزرق رائعاً أمام معبد بودناث في نيبال، وآخر مصحوباً بفيلين صغيرين في آيوثيا، العاصمة السابقة لتايلاند؛ ووحشاً آخر أمام معبد بورا بوسيه في باتوبولان، بالي. ليس هذا فحسب بل إنّ قصر روانويلي داغوبا في سريلانكا الذي يعود إلى القرن الثاني ق.م. محاط بصفوف من فيلة قانية الحمرة بحجمها الطبيعي؛ وتبرز أفاريز تمثل الفيلة من الجدران في أنغكور واط في كمبوديا. ولعلّ أروع المشاهد هو الفيلة الجاثية التي تحرس ما يسمى شارع الأرواح المفضي إلى أضرحة منغ بالقرب من بكين في الصين، وقد شيدت حوالي عام 1435.

لا يبدو أن الإسلام، بتحفظه المعهود تجاه فن التصوير، قد قام برسم فيلة كثيرة. ولكنّ هذا لا يعني تجاهلها؛ فقد كتب ألفريد إدموند بريهم، مؤلف دراسة ضخمة عن الحيوانات في القرن التاسع عشر: «ذات مرة قال لي شيخ على ضفاف النيل الأزرق، ستدعك الفيلة وشأنك ما لم تضايقها». لقد تركت أبي وشأنه، وتركت أباه من قبله. وعندما يوشك فصل الرياح الموسمية على الحلول، أعلق التعاويذ إلى عواميد شاهقة؛ وهذا يكفي هذه الحيوانات الورعة، فهي تبجل كلمة رسول الله! وتخشى القصاص الذي ينتظر الكفار، إنّها حيوانات ورعة»(xlii).

وفي بلاد فارس، وتحديداً في كاشان، يصوّر تمثالٌ يعود إلى القرن السابع دروعاً مستديرة كبيرة فوق أذني الفيل، وربما سائساً وعاشقين، تحت مظلة هودج مبهرج الزينة. ويشغل الفيل منزلة



تعويذة مصرية من السيربنتين مرصعة بالعظم؛ أواخر عهد الناقادا الثاني، حوالي 3500-3300 ق.م.، ارتفاعها 3.5 سم



خاصة في كتاب عربي عن الحيوان مزوّد برسوم مستفيضة، يعود تاريخه إلى القرن الثالث عشر وعنوانه «منافع الحيوان»، زعم مؤلفه أن الفيلة تعيش 400 سنة، وأن مسحوق العاج يشفي من الجذام.

ويبدو أنّ الفيلة في مصر القديمة، رغم وجود الفيلة الحية والكثير من العاج المشغول فنيّاً، اللافت هو مخدة وجدت في قبر توت عنخ آمون على شكل إله الشمس شو، لم ترسم كثيراً في الفن الهيروغليفي أثناء عصور السلالات الحاكمة. وعلى أية حال، هناك بعض التصاوير التي تبيّن فرقاً واضحاً بين الفيلة البرية والأليفة، ففي حوزة متحف متروبوليتان للفن قطعة فنية بسيطة متقنة الصنع تمثل في الوقت نفسه فيلين اثنين ووجهاً واحداً، شغلت بالسربنتين مع ترصيع العينين بالعظم، ويعود تاريخها إلى أواخر فترة ناقادا الثانية، حوالي 3600 ق.م. وتصوّر المسلّة السوداء لشلمنصر الثالث (858-824 ق.م.) في نمرود، فيلاً بسيطاً ذا رأس غريب الضآلة، يطارده بعناد رجل معه كلب مربوط له رأس إنسان، (أو أسد؟). وفي عام 1667، استخدم النحات بيرنيني طريقة مصرية في تدعيم مسلة قديمة، نصبها الرومان هناك تشريفاً للإلهة مينيرفا، بوضعها على ظهر فيل من الواضح أنه آسيوي، كي يقيم نصباً تذكارياً يقف أمام كنيسة سانتا ماريا الرومانية عوضاً عن مينيرفا. وبعد ستين سنة، قام المهندس المعماري جيوفاني باتيستا فاكاريني بتقليد بيرنيني، فسرق مسلّة رخامية وردية اللون، مصنوعة في أسوان، كانت حتى ذلك الوقت نقطة النهاية في سباقات السيرك في مدينة كتانيا الإيطالية، ثم نصبها فوق فيل منحوت من حجر التوفا البركاني في أثناء الحقبة الرومانية. والاسم البديل لهذا النصب في لغة صقلية هو «ليوترو»، إشارة إلى إيليدوروس، وهو مشعوذ ومرتدّ من القرن الثامن، سعى من خلال السحر إلى جعل الفيل الحجريّ يمشي.

وكما يوضّح أحد المواقع الإلكترونية بجفاء، «ما من دليل على

الصفحة المقابلة
بناية جيمس ف. لافيرتي
المشيدة على شكل فيل،
والمعروفة باسم عاطفي
هو «لوسي»، مارغيت
سيتي، نيوجيرسي.

تحقيق محاولاته أي نجاح»، بيد أنّ هذا النصب لا يزال مركز ساحة ديومو في كاتانيا.

وإلى الجنوب قليلاً، ساهمت السودان ببعض من الأحافير والنقوش الأولى، ومنها فيل أليف، كما هو واضح، يزين إفريز معبد ليون في مسوارات (القرن الأول بعد الميلاد). وتمثال «الفيل الضخم» المرصوص والآسر، المصنوع من الحجر الرملي الأحمر في المكان نفسه. ولعلّ هذا التمثال الذي له حجم بيت، هو أحد أسلافِ الكثير من «مباني الفيل» الحديثة والغريبة التصميم، على غرار فندق لوسي المشيد في ساوث أتلانتيك سيتي في ثمانينيات القرن التاسع عشر، على يد المهندس والمستثمر الفيلاديلفي جيمس ف. لافيرتي، وبناية «تشانع» تعني الفيل بالتايلاندية. ولا يخفى أن الفيل كان يرمز إلى رفعة المقام والسلطة الملكيتين، ومع ذلك يبقى تبجيل السودانيين له في أي شكل ديني أمراً ملتبساً.

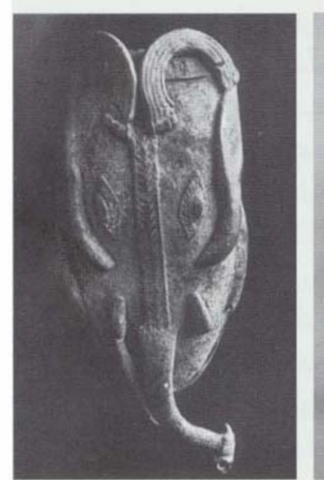
واظبت إفريقيا الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، وإلى مدى معين، على تقاليد تصوير الفيلة وتشريفها التي بدأها القدماء في العصر الحجري، رغم أنَّ الفن الإفريقي الأحدث عهداً تطغى عليه مركزية الإنسان. هناك قليل من أشكال الحيوانات الضخمة التي تقف بمفردها من من دون الإنسان، مع أن زخارف الحيوان ماثلة في جميع تماثيل الإنسان الصغيرة والأدوات الطقوسية. تظهر صور الفيل على المقاعد والأقنعة، الطبول والمذبات، غلايين التبغ والتحف المصنوعة من نبات القرع الجاف. لقد أغفلت معظم الشروحات هذا الجانب، فيقدم ريتشارد كارينغتون في عمله الكلاسيكي «الفيلة»، سنة 1958، بضع صفحات ليست إلا استخفافاً بالحكايات التقليدية عن الفيلة بصفتها «بلا طائل وتفتقد إلى التماسك، وتمثل سذاجة العقل الإفريقي الطفولية»[xliii]. حتى كتاب مارتن ميريديث الذي يبدو موسوعياً «الفيل الإفريقي: سيرة ذاتية»، لا ينطوي إلا نادراً على

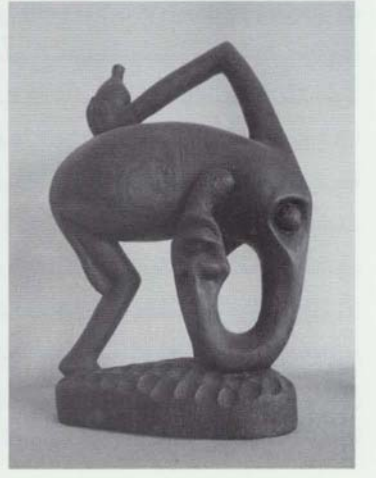
كلمة تشير إلى المواقف الثقافية الخاصة بالأفارقة تجاه الفيلة قبل الاستعمار الأوروبي. وينبغي أن يعود المرء إلى كتاب ألبرت جانين «الفيل الإفريقي» كي يحظى بنظرة عامة أكثر شمولاً.

ومما لا يدعو إلى الدهشة، أن الفيلة غالباً ما رمزت إلى السلطة. ويلاحظ دوران روس، في كتالوج من أجل معرض «الفيل»، عقد في متحف فاولر في جامعة كاليفورنيا عام 1992، أن حوالي أربعين ثقافة إفريقية تستخدم صور الفيل. كما لاحظ صانع الأفلام الكندي دوغلاس كوران أنّ الكثير من شعائر الاحتفالات الكبرى الطقوسية لشعب نياو في مالاوي يبقى طيّ الكتمان الغيور بعيداً عن الدخلاء إلى هذا اليوم. ويهيمن على أحد الاحتفالات شكل فيل، يسمى ذا القلوب الأربعة، يحمله أربعة رجال، ويتأمل كوران قانطاً أنه حتى لو ظل المعنى الكامل غامضاً، فإن ثقافة نياو، وتعني «القناع»، هي نفسها على وشك الاندثار في دنيا العولمة اليوم(xliv).

إننا نفهم بضعة أشياء، فعلى غرار البوذيين، اعتقد بعض الأفارقة أنّ زعماءهم يتناسخون في صور فيلة، ففي إيغبو أوكوو في نيجيريا في القرن العاشر، دفن الزعيم بعد أن وسّدوا قدميه أنيابَ فيل. لقد أصبح الفيل طوطماً لقبائل متنوعة، واتخذت منه اسماً لها؛ الـ «ندوفو» في قبيلة بابيمبوي في تانزانيا، والـ «ندلوفو» في زمبابوي. لقد سمى زعماء الزولو أنفسهم«الفيل العظيم». منذ الزعيم شاكا في مطلع القرن التاسع عشر فصاعداً، وحتى هذا اليوم، تحمل قبيلة الـ «لوزي» شمال زامبيا ملكها إلى التتويج في قارب متعدد المجاذيف اسمه «ناليكواندا»، تزينه صورة فيل. وفي إفريقيا الغربية، قد تكون العروش والمذابح محفوفةً بأنياب فيل بسيطة أو منحوتة. وكانت واحدة من شارات السلطة الملكية الأساسية لقبيلة آسانتي في غانا هي ذيل الفيل الذهبي (Sika mmara). وقد يخيط جلد الفيل إلى نعال الصنادل التي ينتعلها ملوك دانهوم، كي تُفصح عن قوتهم الروحية

مجموعة برونز نيجيرية.





قناع خشبي للورك من بينين؛ ينتهي الخرطوم بيد إنسان.

منحوتة خشبية لفنان مجهول من ماكوندي، شمال موزامبيق.

«bo» كما استحضرها الفن. وما من دليل على ترويض الأفارقة للفيلة حتى القرن الثاني عشر، رغم أن إحدى منحوتات العاج تبدو كأنها تظهر ملكاً يمتطي فيلاً. ولكن إذا لم تستطع الجلوس على صهوة فيل حقيقي، فبوسعك على الأقل الجلوس على تمثال له: كان الـ «asantahene»، أو ملوك آسانتي، الوحيدين المخولين بالجلوس على مقعد خشبي منحوت على شكل فيل.

ولم يقتصر هذا الضرب من الأشياء على إفريقيا، إذ نحت شخص من روميوألدوس عرشاً لأسقف أورسو في كانوزا في القرن الحادي عشر، مزخرفاً وفق الأسلوب البيزنطي، ومسنوداً على فيلين. كان «سليمان» المسكين فيلاً أهداه جون الثالث إمبراطور البرتغال، إلى مكسيميليان ولي عهد الإمبراطورية المجرية النمساوية عام 1552. وبعد تحمله مشقات الطريق من جنوه إلى فيينا، مات سليمان منهكاً بعد عام، ومن ثم عانى شكلاً أقسى من الإهانة، فقد قام محافظ فيينا بتحويل اثنين من عظام ساقه ولوح كتفه إلى كرسي مريع، تم عرضه في مجلس الكهنة البنديكتيين في كاتدرائية كريمس.

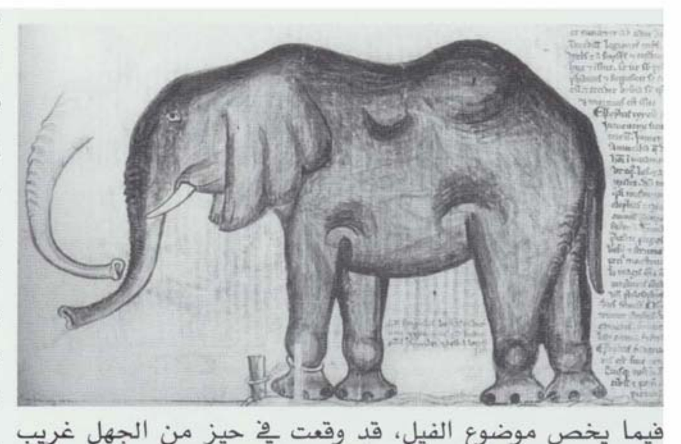
وعلى الرغم من ندرتها، توجد أمثلة عن الفيلة المنحوتة في إفريقيا قبل استعمارها، ومنها مجموعة برونز نيجيرية غريبة تتألف من رجلين يلوّحان بفأسين يقتفيان أو يرعيان فيلين صغيرين شبيهين بالحشرات، مع أيدٍ في طرفي خرطوميهما، وكانا كأضحيتين على الأرجح. وهناك في متحف هامبورغ غطاء لأعلى الخصر طوله ثماني بوصات (20 سم) من «بينين» . إنّه وجه فيل نموذجي مع يد في طرف الخرطوم ترمز إلى البراعة. والمُلاحظ أنّ أقساماً عديدة من القارة تفتقر إلى تراث مديد من النحت، لذلك يتعيّن علينا الرجوع إلى العصر الحديث، عندما أصبح مفهوم «الفن الإفريقي» المستقل مفهوماً إشكالياً. فعلى سبيل المثال، هناك أقاويل شتى عن كون الفنانين الإفريقيين وبيكاسو قد استعار كلاهما من الآخر، حيث



فيل خيالي من كتاب قصص حيوانات يعود إلى أواخر القرن الثاني عشر.

يبدو بعض من النحت الراهن إذن تكعيبياً أو سريالياً، رغم اتكائه الغالب على الفولكلور المحلي أيضاً. وما كان ذات مرة صوراً خلاّقة أبدعها نحاتون فرادى ممتازون، في وقت من تسعينيات القرن العشرين، قيل إن ثلاثة من أعظم نحاتي الحجر الأربعة في العالم فنانون من شونا في زمبابوي، راحوا وبوتيرة متسارعة يتسابقون في صناعة المنحوتات الثانوية الخشبية والصابونية الصغيرة المنتجة بكميات كبيرة كي تباع للسياح على امتداد طرقات إفريقيا.

بعد وقت طويل من تداعي الامبراطورية الرومانية، كما سبق ولاحظنا، خسرت أوروبا الكثير من تواصلها العالمي، وعلى الأقل،

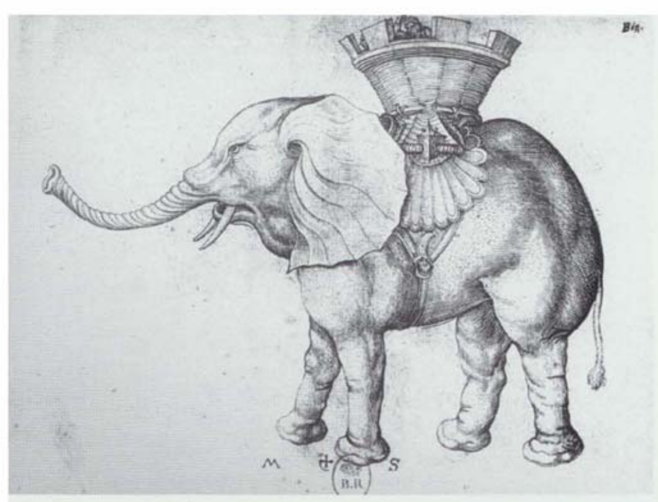


تصوير غريب الدقة للفيل أعطاه لويس التاسع من فرنسا إلى هنري الثالث في إنجلترا عام 1254/55 من أجل معرض وحوشه في برج لندن، ومن الواضح أنه منقول عن فيل حي على يد ماتيو باريس، على الرغم من وجود نسخ مختلفة. هذا الرسم المائي مأخوذ من «Chronica Maiora» أي الأحداث الكبرى.

فيما يخص موضوع الفيل، قد وقعت في حيز من الجهل غريب وطويل الأمد. فتصاويرُ الفيلة في كتب الحيوان والمخطوطات التنويرية والمنحوتات الكاتدرائية التي تعود إلى العصور الوسطى، قد اتخذت منحى تقليدياً في تصوير مخلوقات خيالية تفتقد إلى الدقة التشريحية، في اختلاف يخيب الأمل عن الفسيفساء الرومانية المنفذة بدقة في تونس أو صقلية، إن شئتم، وتتضمن فيلة تقاتل أسوداً وتعبر جسوراً صنعها الإنسان من الأغصان. إن كتاب Physiologus، المؤلَّف في القرن الثاني، والذي راج رواجاً كبيراً أكثر من ألف سنة، يصوّر الفيلة بأنياب كأنياب خنزير، وخراطيم متدلية تشبه الأبواق، وأجسام كالمواشي أو الخيول. وبحسب النص، فإنّ الفيلة لا يمكنها أن تتناسل ما لم تأكل ثمار اللفاح. ويبدو أن هذه الصورة الأوروبية مأخوذة من مصادر شمالية أقدم منها، مثل أواني غوندرستروب الفضية في الدانمارك. ففيلتها الرقطاء الخيالية المكسوّة برقائق الذهب والفضة المطروقة، تتبختر فوق مخلوقات مجنحة لها رؤوس طيور وبراثن شبيهة ببراثن الأسد. ولعلّ هذا الفيلَ المرسومَ دونما إتقان، بخرطوم كالبوق، وأظلاف كأظلاف البقر، نُسخ عبر القرون



تصوير هزلي لـ هانو مع إيمانويل الأول إمبراطور البرتغال (1469-1521) في امتطاء محفوف بالمخاطر. أهدي هانو إلى البابا ليو العاشر عام 1515.

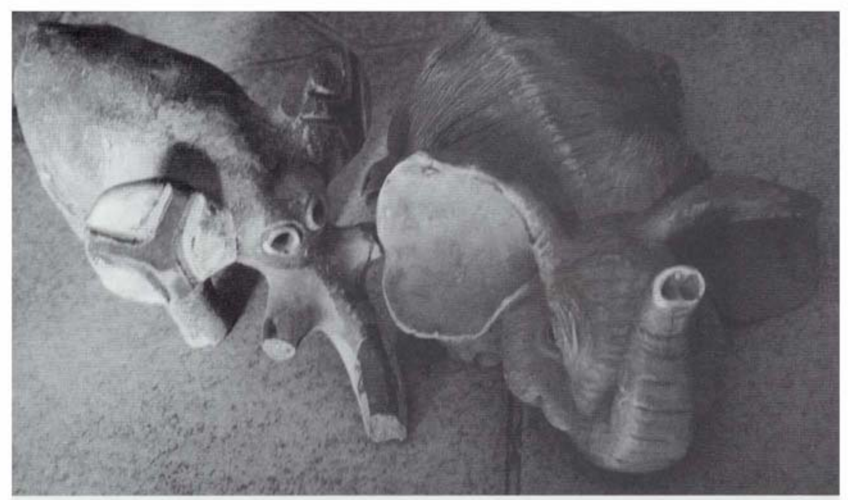


محفورة مارتن شونغاور الشهيرة عام 1480.

في محاكاة عمياء، كما يظهر المخطوط التنويريّ العائد إلى القرن الثاني عشر فيلين وديعين، كلّ منهما بحجم حمار، وفرساناً مسلحين يطعنون صدريهما الداميين بالرماح. وهناك منحوتة أكثر إقناعاً تعود إلى القرن الرابع عشر تزين كاتدرائية ريمس، حيث كان الفيل نموذجاً شائعاً عند معماريي الكنائس القوطية.

ولدى الأخير، على الأقل، أقدام فيل ملائمة، وأذنان مأخوذتان بوضوح عن مثال آسيوي.

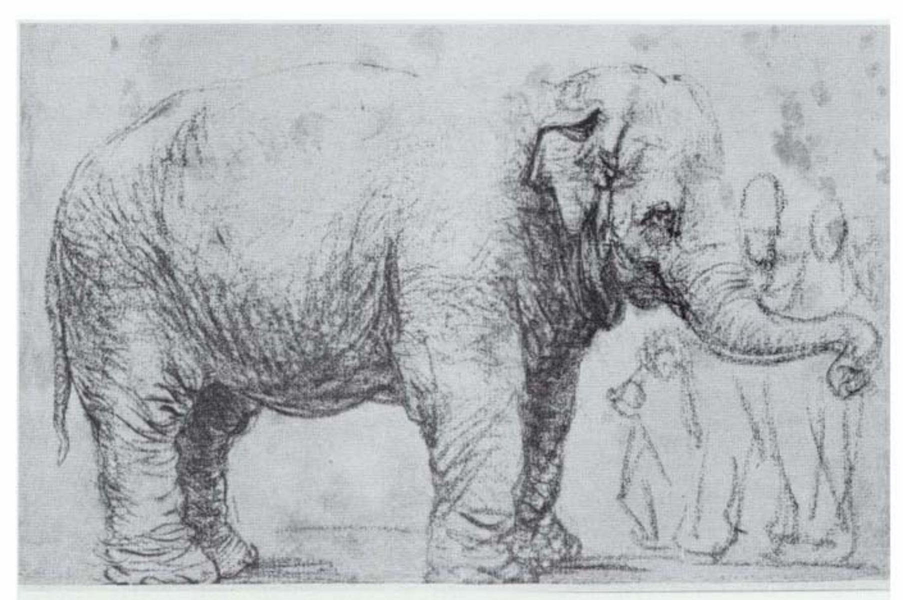
وفي الواقع، ما إنْ بدأت الفيلة الفردية الأولى، وهي عادة هدايا متبادلة بين الملوك، بالظهور من جديد في وسط أوروبا وغربها، حتى تبعتها تصاوير أدق من الناحية التشريحية، وأنجز أحدها يوهانز دي كوبا من ستراسبورغ، يوضح فيه الـ «Horus Sanitatis» عام 1483، وتصوير آخر أنجزه ليوناردو دا فينشي. وفي الوقت نفسه، على الرغم من إرسال الإمبراطور الهندي الشهير «أكبر» منمنمات



مثالان عن النماذج العصرية الرديئة يظهران القناعات الفنية الأوروبية والإفريقية.

تمثل مشاهد معارك تحتوي فيلة مرسومة بدقة عالية وألوان زاهية مع بعض الملامح الكاريكاتيرية الخفيفة والمقصودة، فقد بدا أن المصورين الأوروبيين قد رسوا على تقليد آخر، ألا وهو رسم فيل مشوّه في العموم استناداً إلى نموذج آسيوي، وفي هذا الرسم المشوّه يظهر الفيل برأس ضخم مكسوٍّ بالشعر الناعم، وعينين واسعتين تنظران تقريباً إلى الأمام. واستمر هذا النموذج حتى القرن التاسع عشر، على الرغم من الدليل المتزايد على عدم دقته، بل استمر في بعض الرسوم الرديئة (الكيتش) الحديثة.

وعموماً، على أية حال، فإن ثورةَ العلم التجريبي بعد عصر النهضة، والحضور المتنامي للفيلة الحقيقية في حدائق الحيوان ومعارض الوحوش الملكية، وازدهار سفر الأوروبيين إلى كل من آسيا وإفريقيا، قد أدى إلى تصوير الفيلة على نحو أدقّ من ذي قبل. إنّ أول حالة تشريح معروفة للفيل في الغرب جرت في ضاندي عام 1706، حيث قام طبيب بذلك بينما أوقفت الجماعات المسلحة الحشود



رامبراندت فان رين، «فيل، وفي الخلفية مجموعة من المتفرجين»، أمستردام، 1637.

التي هربت ببقايا الجثمان، وقد عادت هذه الحادثة إلى الحياة في رواية أندرو دروموند عام 2008، «Elephantina». وهناك مئات من الرسوم والنقوش بالأبيض والأسود، مرفقة بكتابات الصيادين الأوروبيين العديدين التي استولدتها الاستكشافات الاستعمارية. وحالما اتضح في القرن التاسع عشر أنّ الفيلة تتعرض للقتل إلى حد الانقراض، حتى ازداد رسم صورها وتحوّل إلى فعل من أفعال التقدير، وأصبحت لاحقاً وسيلة للحصول على التبرعات من أجل الحفاظ على الفيلة. إنّ مثل هؤلاء الفنانين المعنيين بالحياة البرية قد تكاثروا بالمئات الآن.

ولكن ما من أحد فاق بفعاليته في الترويج لصندوق الفيل من خلال رسومه أكثر من ديفيد شيبرد داخل نطاق الإمبراطورية

البريطانية، فهو يسمي نفسه في سيرته الذاتية «الرجل الذي يعشق العمالقة»، والعمالقة الآخرون الذين يهوى رسمهم هي المحركات البخارية. لقد تبرع شيبرد بمئة ألف جنيه استرليني للمحافظة على الفيل عندما احتفل بعيد ميلاده السبعين سنة 2001. ولا بدَّ أن لوحته الزيتية «الفيل العجوز الحكيم»، هي البورتريه الوحيد للفيل الذي أعيدت طباعته على نطاق واسع في الأزمنة الراهنة.

وإذا ما كان شيبرد يمثل النهاية الواقعية القريبة من التصوير الفوتوغرافي في داخل الطيف الواسع للرسم الغربي، فلا بد أن سلفادور دالي يمثل النقيض؛ الفيلة التي تزحف من خضم أفق عاصف في لوحة «إغواء القديس أنطوني» (1946) وهي تتقدم بسيقان عنكبوتية، وتتنكب هوادج عملاقة هي مزيج الصور المأخوذة عن الكاتدرائيات البيزنطية، وعاريات بوتيشيلي وبرج دفاع شبيه بالمسلة. وتماثله في هذا الجانب الكابوسي، رغم اختلافها الكبير، لوحة ماكس إيرنست «فيل المشاهير» (1921)، ومن الواضح أنها تجميع لأجزاء آلات، مع رأس ثور و أنبوب أسود مرن ينوب عن الخرطوم. ولا يخفى أن شغف بعض الفنانين على الأقل بالفانتازيا لم ينقطع، من أرض النرويج قبل المسيحية، إلى غانا القديمة وصولاً إلى الاستوديوهات الباريسية في القرن العشرين. مما يعني أنه كان لدى الفيل دائماً مقدرة على إلهام دهشة مقلقة على نحو غريب.

ولا يدهشنا أنّ الأدب المكتوب الذي يصور الفيل، ليس بتنوع الرسم والنحت. فالفيلة تظهر في كل مكان، من الملاحم الفيدية القديمة في العصور الباكرة للهند، عبوراً بالحكايات الشعبية، والأقاصيص والأقوال المأثورة في كل ثقافة تقريباً، إلى القصائد والروايات الحديثة. حيث القوة، والروعة، والذاكرة، والعلاقات العائلية هي الموضوعات الكبرى. وحيثما تناقلت الثقافات الإفريقية الحكم في أمثالها، باستخدام الفيلة كصورة، تبقى النبرة على الأقل

نبرة تبجيل عادة. وهنا بضعة أمثال من قبيلة شونا في زمبابوي:

«لا يسعل بلغماً فيلٌ له أولاد».

من يحرس كنزاً لا يعرضه للخطر.

«الفيل محظور في العلن، ولكنه لذيذ في السر».

يدعي المنافقون حسن الخلق ولكنهم يفشون أخلاقاً وضيعة تحت غطاء الحميمية.

«لا تثقل الفيلَ أنيابه».

فليكن المرء أهلاً لمسؤولياته.

«مات الفيل بسبب نملة».

إذا ترك الحبل على غاربه لعادة صغيرة، فقد تؤذي المجتمع بأسره(xlv).

وروى لي صديق من مالاوي هذا المثل: «إذا اعتليت ظهر فيل فلن ترى الندى»، ومعناه، لا تحِدْ عن الصورة الأساسية بانتباهك إلى توافه التفاصيل. وهناك المئات من الأمثلة الأخرى، ولكننا سندرج هنا أشهر الأمثال جميعاً، ويمكن الاستشهاد به في مواقف كثيرة، وبلغ رواجه في إفريقيا حداً ضاعت فيه أصوله: «عندما يتعارك فيلان يتعذب العشب».

هناك أمثال مشابهة في كل الثقافات؛ ففي الهند هناك مثل يقول: «لا يحمل عبء الفيل إلا الفيل». وفي سريلانكا: «لا يرى الفيل بعينيه كم هو كبير»، و«لن تسترجع الفرص الضائعة حتى لو استعنتَ بجبروت الفيلة»، وفي إيطاليا: «اعتبر عدوك فيلاً وإن كان نملة». وبالطبع هناك القول الأمريكي المأثور: «انظر إلى الفيل في الغرفة»، في إشارة واضحة إلى ما نتجاهله ولكن يتعذر علينا تفاديه. لقد سمعت مؤخراً آل غور يستخدم هذا القول في إشارته إلى الشكوك

التي تكتنف ارتفاع درجة حرارة الأرض.

ولكن كثيراً ما تعد الفيلة بمثابة تهديد أيضاً، ولا سيما عندما لا يكون الأهالي مسلحين جيداً كي يتقوا شرورها، كما في مناطق عديدة من إفريقيا وآسيا. وبعض من هذا الخوف ينقله إلينا هذا المقطع من قصيدة يوروبا النيجيرية وعنوانها «الفيل»، كتبها إ.أ. بابالولا بلغة إنجليزية قديمة نوعاً ما عام 1954:

إنه يتنفس بأبهة وأنفة.

إنه يمشي بأبهة وأنفة.

يميزه ذيله الضخم.

محالٌ ربطه إلى وتد.

سيدوم حكم الأوبا (الزعيم) الذي يربطه هكذا.

في الدغل، وبين الأحراش، يوقد ناراً كي يتدفأ ويشعر بأنه في البيت.

خطوات فيل وحيد

تجعل كل أشجار الغابة الصغيرة والكبيرة

ترتعد من قمتها إلى جذورها.

لا يطاله العار أبداً إذا عانى الجوع

في بيته الغابة؛ لأنه يبعد الجوع عنه

بصبٍّ جام غضبه على أشجار الغابة،

وهكذا مزهواً يجللها بالعار[xlvi].

كما يمكن تصوير الفيل مفتقراً إلى حدة الذكاء أيضاً. إذ يقال مراراً إنّ الغزال الإفريقي يفوق العملاق دهاء. كما أنّ هناك حكاية شعبية إفريقية أخرى معروفة، توازيها، بشكل يلفت النظر، قصص مماثلة في الهند، تروي كيف خدع الأرنب البريّ الفيل بإقصائه عن انتخابه ملكاً للحيوانات. فقد تَصَادَفَ أنّ قرية الأرنب تقع على الطريق



طباعة على خشب، لسيريشر مايلر، سورية، حوالي 1354، توضح حكاية شعبية هندية الأصل عن الأرنب فيروز والفيل.

المفضي إلى مجمع الانتخاب الكبير، فظل يتجول في تلك الأرجاء إلى أن ظهر الفيل. فتهالك الأرنب على الأرض بعينين جاحظتين وأنفاس مرهقة، وهو بالكاد يقوى على استعطاف الفيل بصوت خفيض كي يقله إلى الملتقى، فرفع الفيل العطوف بطبيعته الأرنبَ إلى ظهره، وعندما بلغا التجمع، تلاشى سقم الأرنب على الفور، فراح يتباهى ويلوح للحشود، ولأنه كان يعتلي أقوى الوحوش، فقد تقلّد اللقب. وتحتمل مثل هذه الحكايات تكراراً لا ينتهي، وإحداها: «لماذا يعيش الفيل والضبع بعيداً عن الناس»، يعيد ألكسندر ماكال سميث الكاتب المعروف برواياته البوليسية الغريبة التي تجري أحداثها في بوتسوانا روايتها من جديد [xlvii].

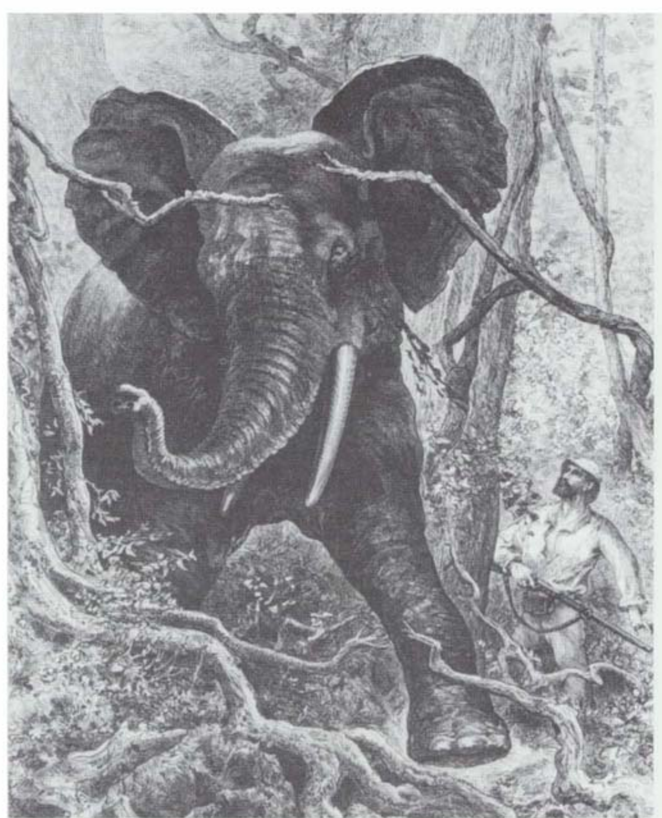
وقد يتبنى أدبٌ شفويٌّ تقليديٌّ آخر وجهة نظر أكثر عطفاً، فهناك قصيدة بين شعب هوروتشه من شمال إفريقيا الجنوبية، وهي نقضٌ لافتٌ للنماذج النمطية المعهودة، وإحساسٌ بالتماهي الحقيقي مع الفيل الذي يسرد القصيدة:

أنا كبيرُ أمِّ الأشجار،

الكبير الذي يأكل الشجر،
قاطفُ الأوراق،
سلة الحبوب الكبيرة في وكر الضبع،
دودة ذات شهية كبيرة،
حفار الأشجار:

فلأحفر شجرة الراعي والـ elandsboontjie.
أنا كبير أم الأشجار.
أنا الفيل، قريب الإنسان،
ولهذا أتملى سبلَ الإنسان بخوف؛
وهكذا، عندما أقتلُ إنساناً، أدفنه، كما يفعل الناس،
ولا أتزوجُ، كما يفعل الناس،
وأتعاطى الدواء، كما يفعل الناس.
أنا كبير أم الأشجار،
ساحق الأشجار[xlviii].

وبطريقة أخرى، يمكن تذكرها بصفتها موئلاً للمعونة، مثل هذا الشعر في أغنية إفريقية تراثية:
يا صياد الأفيال، خذ قوسك!
في الغابة حيث لا شيء يعبر سواك،
أيها الصياد! ارفع رأسك، تسلل، اركض، ثِبْ وسِرْ.
فلحمك ماثل أمامك، شريحة من اللحم هائلة،
لحم يمشي مثل جبل،
لحم ينتشي به القلب.
لحم ستشويه في موقدك،
لحم ستغرز فيه أسنانك،



صيد فيل في برازا، الكونغو، عام 1887.

لحم أحمر جميل، يُشرب دمه ساخناً... (xlix)

هذه أغنية احتفالية على الأقل. أما أدب نوع آخر من الصيادين عموماً، هم «الرياضيون» وصيادو العاج الأوروبيون، فكان إجرامياً. لقد تسبب هؤلاء السادة في ولادة نوع مسرف من أدب الصيد، وكانت قناعات كل منهم تغذي الآخر حتى نهاية القرن التاسع عشر، عندما نشأت صناعة نشر كبرى تدعم هذا النوع الأدبي. وهناك مرويات عديدة تتعلق بالمجزرة اللانهائية لفيلة إفريقيا. إنّ

وليام فيناوتي،ووليام كورنواليس هاريس، وروالين كومينغ، وآرثر نيومان،وفريدريك كورتيني سيلوس كانوا في عداد الأسماء التي بجّلها الصيادون اللاحقون؛ إذ أسسوا أسلوب هذا النوع، فجعلوا من قسوتهم الصريحة فضيلة، وعبّروا بشكل روتيني عن تواضعهم حيال مواطن الخلل التي تشوب مهاراتهم الأدبية، ولكن معظمهم في الحقيقة كانوا غالباً كتّاباً بارعين يعرفون تماماً ماذا يفعلون. والمقطع التالي المأخوذ من كتاب نيومان «صيد الفيل في شرق إفريقيا الاستوائية» (1898)، سيضرب مثالاً عن هذا الصنف من النثر، وعن الدقة العسكرية التي كانوا يسردون فيها رحلات صيدهم:

أسعدني النسيم المواتي هذه المرة، فنهضت ودنوت من من دون مشقة تذكر، واستطلعت اثنين أو ثلاثة من ذكور الفيلة الضخمة واقفة معاً. كان أحدها قبالتي، وآخر بدت لي أنيابه واضحة (من اللمحة التي رأيته فيها)، كان يقف بشكل جانبي. وحالفني حظٌّ طيب عظيم فأبصرتُ نقطة الضعف بين ضلوعه، وراء كتفه بالضبط، من خلال فجوة صغيرة بين الأوراق، إلخ، فتمكنت من إطلاق النار جاثياً. وتالياً، مع اختفائها الفوري إثر إطلاقي للنار، كان هناك فقط لون الدم، بقعة أو اثنتان فحسب، وعلى الرغم من شعوري بالظفر؛ لأن هدفي قد تحقق، بدأ يساورني الخوف من إخفاق آخر. ولكنني، بعد ذلك على الفور، سمعته أمامي، وبعد مسافة قصيرة وجدته واقفاً في مكان أجرد صغير، فأطلقت عليه طلقتين أخريين، فخرّ على الأرض[1].

وستجد الكثير من الخطابة في ركام هذه المواد المحبطة والمتماثلة في جوهرها، لا تلطفها إلا الملاحظات المتعلقة بالشعوب المحلية وعاداتها وفقاً لما يراه المستكشف. ففي وقت كتابة نيومان، كان هناك وعي ملموس بوجود آراء أخرى، وغالباً ما كان هؤلاء الكتاب

صورة التقطها إدوارد فان ألتينا للرئيس الأمريكي تيودور روزفلت متكئاً على طريدته التي قتلها «في مكان ما في إفريقيا»، حوالي 1909.

الصيادون يدافعون عن مهنتهم. غير أنّ سمات كثيرة من أسلوبهم لا تزال محسوسة الحضور في الكثير من أدب الصيد الراهن، بل حتى في اقتضاب أسلوب النثر وفحولته ونقده الذاتي ضمن النوع الأدبي الأحدث المتمثل في مذكرات الصيادين المتجوّلين في المحميات. وبالطبع فإنَّ محور مثل هذه الذكريات، هو مطاردة الصياد من قبل فيل غاضب، كما هو الحال في صورة «الفيل المحتال» المزعومة، في حين يكون، في الواقع، يعاني عادة من جرح تسبب به الإنسان، أو شيء عادي من قبيل ألم الأسنان.

إنّ الغزوات الأولى التي مهّدت الطريق للتجميع العلمي بين بعض من «رياضيي» القرن التاسع عشر (أعاد سيلوس معه إلى بلاده «عينات» لا تحصى من أجل المتاحف الإنجليزية)، وتآلفهم مع الحيوانات وشعورهم المتنامي بالذنب بسبب ما قاموا به من نهب، كل ذلك تحول تدريجياً إلى إيثولوجيا تامّة النضج، أي دراسات السلوكية الحيوانية، وتقارير المحافظين على الأنواع التي اندمجت في النهاية داخل لغة علم البيئة والتنوع الحيوي. وقد أثرت وجهات

النظر العلمية في الأسلوب النثري لأكثر الأعمال الأدبية الرائجة المكتوبة من قبل علماء الأحياء ومدراء محميات الفيلة، مع أن شيئاً من الحماسة الشديدة، مهما خففوا منها بإبداء الأسف، يلازم غالباً تأييدهم العام «للاصطفاء» كوسيلة في تدبر شؤون الفيلة.

كما تطورت صناعة أدبية أخرى أقل رواجاً تتعلق بالذكريات المتمركزة حول الفيل، يكتبها الذين عشقوا الفيلة الإفريقية بشدة مثل: سينثيا موس، دافني شيلدريك، الإخوة دوغلاس هاملتون، ريتشارد ليكي، وجويس بوول، وكاتي باين، وديفيد باينتر وكثيرون سواهم. لقد ترافقت هذه الكتابات مع ثورة في طباعة كتب التصوير الفوتوغرافي ذات الحجم الكبير ومجلات الحياة البرية الصقيلة الأوراق، وقد شجع على هذا الأمر ما استجد من تطور غير مسبوق في معدات التصوير الفوتوغرافي المعقدة، وابتكار تجربة المحميات السياحية المخصصة للحياة البرية. ولم يقتصر الأمر على الكتيبات السياحية، وإنما شمل أيضاً كتب التصوير الفوتوغرافي، إذ طوّرت نماذج شائعة تخصها ويمكننا التكهن بها. وكثيراً ما تنأى الصور بحدّ ذاتها عن الوقائع، لتركز على علاقات الفيل العائلية، والصغار الذين يلعبون بخراطيمهم وتنقذهم أمهاتهم من الوحل، وصور مأخوذة عن كثب للجلد المتجعد، وفيلة وحيدة ترتسم صورها سوداء أمام غروب الشمس المغبرّ، إلخ، إلخ. ومن المحزن العودة إلى كتاب مثل كتاب بيتر بيرد «نهاية اللعبة» (1965) مع تقييمه الكالح لقسوة الإنسان، حيث تتوالى الصفحات التي تتضمن صوراً صادمة لجثث الفيلة، ذات اللون البني الداكن، مأخوذة من الجو، فتكاد تشكل مونتاجاً تجريدياً، وهي الفرضية المضادة تماماً للصور الملونة الهادئة المسلية التي تشكل فحوى الكتب المصوّرة الضخمة.

لقد استمدّت الروايات المتعلقة بالفيلة مادتها من أدب الصيد، وكثير منها يتضمن شخصيات صيادين.

ولا يمكن إغفال الروايات التجارية التي كتبها هنري رايدر هاغارد، وتدور أحداثها في إفريقيا، «مناجم الملك سليمان» (1886) وهي أشهرها، وفيها تذهب شخصية آلان كوارترمين إلى قلب بلاد الفيل، وأسس بهذه الرواية المعايير لمعظم من جاؤوا بعده. وإرنست همنغواي هو أحد هؤلاء الكتّاب اللاحقين، ومع أنه كان يصطاد الفيلة في كينيا، إلا أنّ قصته «تلال مثل فيلة بيضاء» لا تمت في الواقع بأية صلة إلى الحيوانات. وعلى منوال همنغواي، جعل كاتب قصص المغامرات جون غوردون ديفيس من «صياد أبيض عظيم» الشخصية المركزية في روايته الرائجة عام 1975، «أطول من الأشجار». وهذا اسم فيل ذكر كان للصياد معه نزال على الطريقة القديمة، وهو ترجمة لاسم في قبيلة زولو «Dhlulamiti»، كان فيلاً حقيقياً سكن ذات مرة في حديقة كروغر الوطنية.

وبمرور الوقت، طرأت تحولاتٌ في الموقف باتجاه حفاظ على الأنواع أكثر عطفاً من ذي قبل، وقد تمّ تدوينها في الأدب أيضاً. إنّ قصصَ الرعب التي كتبها ويلبر سميث، الطافحة بالجنس والدم، رغم شبهها مع قصص ديفيس، قد بدأت مع ذلك بتصوير حساسية جديدة نحو الفيلة، كما هو الحال في وصف مشهد الاصطفاء في «أغنية الفيل» سنة 1991. فالمسؤول جوني نزو، الذي يعني اسمه مصادفة الفيلَ لدى قبيلة شونا، رغم أن الشخصية هي من الزولو، يبدي ندماً عميقاً على القتل الذي اضطرت دائرته إلى ارتكابه. يطرح دانيال أرمسترونغ، بطل الرواية، سؤالاً استفزازياً: «لقد كانت إدارتُكم لقطعان الفيلة حسنة للغاية... أما الآن فعليكم بإبادة هذه الحيوانات الرائعة وتبديدها». فيجيبه نزو: «كلا، لن نبددها، فسوف نسترد قدراً كبيراً من الأشياء الثمينة من بقايا جثثها... لن يكون موت هذه الحيوانات اندثاراً تاماً». فيقوم نزو بتوبيخ آرمسترونغ على استخدامه لغة «جماعات حقوق الحيوان، العاطفية والمنحازة»، مما

يعكس التوتر القائم بين الموضوعية العلمية و«العاطفية» المستندة إلى حقوق الحيوان، وهذا التوتر يشوش بالفعل السجالات المتعلقة بإدارة المحميات. ولكنّ حالما يصل الاصطفاء إلى نهايته فإن نزو نفسه يودّع الفيلة الأم الميتة بعبارات شبه دينية، فيردد: «اذهبي في سلام واغفري لنا ما اقترفناه بحق قبيلتك»[li]. وهذا نوع أخرق من التضامن الإفريقي. وعلى أية حال، فسرعان ما تختفي الفيلة من القصة، ويستأنف سميث مغامراته الطائشة المعهودة التي يجوب بها الأرض، ولا تساوره إلا فكرة عابرة إزاء المحافظة على الحيوانات العاشبة الآسرة.

أما الفيلة في رواية جنوب إفريقية أخرى، هي رواية دالين ماتيي «عوالم في غابة» (1984)، فهي شخصيات أكثر أهمية بكثير داخل القصة. إذ كتبت القصة أولاً بلغة الأفارقة، وهي تركّز على عائلة حطابين تقليدية، تحيا في تعايش غير مستقر، ولكنه يقوم على احترام عميق، مع الفيلة في غابات كنيسنا في جنوب إفريقيا. وقبل أن تدمّر صناعات الأخشاب والتنقيب عن الذهب هذه الغابات الهائلة ذات الخشب الأصفر في مطلع القرن العشرين، كان يعيش هناك عدد ضخم من الفيلة، وقد تلاشت تقريباً في وقت لاحق، وفقط في عام 2007 أكّدت عينات الـDNA المأخوذة من بقايا الروث أن هناك خمسة فيلة ناجية لا تزال تحيا في الخفاء. أمّا بطل الرواية شاؤول برنار فيتمتع بعلاقة حساسة وعميقة، معرفياً وبيئيّاً مع الغابة وقاطنيها الضخام، ولا سيما الفيل الذكر الأضخم واسمه القدم العجوز، وتسرد هذه القصة المؤثرة محاولاته الكبيرة العديمة الجدوى كي ينقذه من الاستغلال والموت.

منذ ذلك اليوم الأول الذي وقفت فيه القدم العجوز في العراء، حلم (شاؤول) برابطة خيالية تجمعه بالفيل. وعندما أصبح رجلاً وراحت أحلام صباه تتشوش، بدأ شعور بالاحترام يحل مكانها،



الفيل بابار، ابتكره جان دو برونوف.

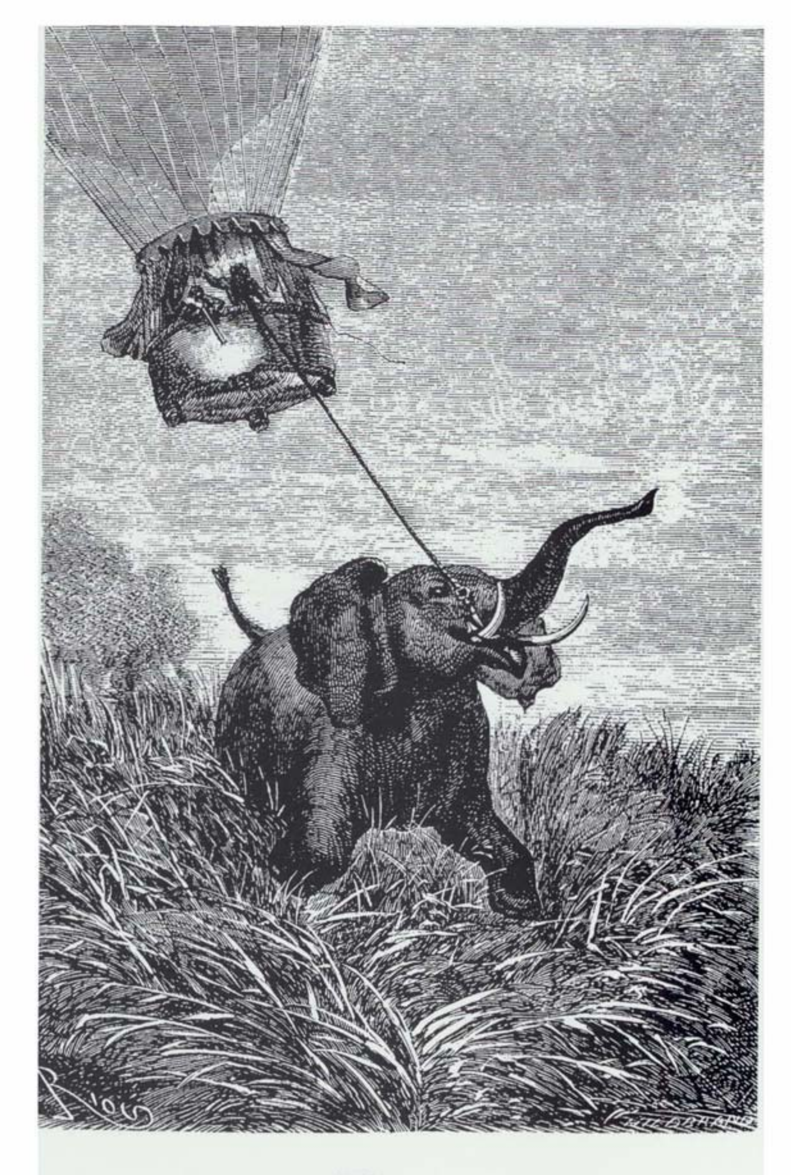
وكذلك وعي حاد حيال بطريرك الغابة العجوز. كلا، كان الأمر أكثر من ذلك. فقد كانت هناك آصرة بينه وبين القدم العجوز لا يستطيع الفكر الأشد رصانة أن يفصمها دائماً[liii].

أما الفيلة في رواية الروائية الكندية بربارة غاودي «العظم الأبيض» (1998) المذكورة آنفاً، فهي شخصيات أكثر أهمية مما أسلفنا ذكره من قبل. فهذه الرواية هي محاولة مكتوبة بطريقة جميلة ومعقدة، وإنْ لم تكن مقنعة بأكملها، كي تتأمل العالم من وجهة نظر فيل، متخيلة تاريخاً وثقافة كاملتين تخصّان الفيل، مع لغته المستقلة، وتسمّي الممارسات والذكريات التي تتناقلها الأجيال. غير أن الرواية تلعب لعبة خطرة على ذاك الحد الفاصل الذي تتجاوز فيه أنسنة الحيوانات الاحتمالات الممكنة،وهذه نقطة شائكة دائماً أمام النماذج الأكثر علمية.

عادة ما نقع على الفيل متكلماً أكثر في أدب الأطفال، حيث

تعد مثل هذه التخيلات، لسبب ما، أكثر منطقية. وهناك في هذا الأدب كمٌّ كبير من الفيلة، من دمبو ديزني إلى هورتون دكتور سيوس، إلى هيفالامب المحير لدى أ.أ. ميلن، ولن أقدم هنا حتى على محاولة الإحاطة بها. ولكننا لا نستطيع إغفال بابار، واحد من أشهر شخصيات الحيوانات جميعاً، وبالتأكيد هو الفيل الخيالي الأكثر شعبية. ابتكر جان دو برونوف هذا الفيل الصغير في فرنسا عام 1931، وبعد أنْ شهد مقتل أمه في إفريقيا، يعثر على طريقه إلى باريس، فيتشرب كل كنوز الحضارة الفرنسية، بما فيها ثوبه الخاص الأخضر، ذو الماركة المسجلة. ثم يعود إلى إفريقيا كي يقنع كل أصدقائه الحيوانات (حرفياً) بأن يتبعوه. كتب دو برونوف نصف دزينة من القصص قبل موته المبكر عن عمر 37 سنة؛ فأكملَ ابنه لوران مسيرته بما لا يقل عن عشرين قصة منذ 1946. وصُنِعَ، من وحيها، فيلم مأخوذ عنها عام 1989، ومسلسل تلفزيوني يصل إلى 78 حلقة عرض على شاشات 150 بلداً، وبيعت 12 مليون نسخة من الكتب، ويمكنكم أن تزوروا متحف بابار على الإنترنت، وقدّر أحدهم أن كل امرأة يابانية من بين اثنتين من دون عمر الثلاثين، لديها دمية بابار. كما ألَّف فرانسيس بولينك، من بين آخرين، موسيقى استلهمها من بابار. ومؤخراً، أنتج رفائيل موستير، الذي اشتهر موسيقياً من قبل باستخدامه لأواني «الغناء» التيبتي، أوبرا للأطفال سينطلق عرضها في 2008. واعتمد فيها على كتاب «أسفار مع بابار» 1936، وهو ثاني تلك الكتب الذي سينطلق عرضه في 2008.

وباختصار، إن بابار هو اسم مألوف، ولكنكم لن تتعلموا منه أي شيء يخص الفيلة الحقيقية. وقد أدان بعض النقاد، من بينهم الكاتب التشيلي آرييل دورفمان، سلسلة بابار لأنها، تحت سطحها الساحر، مهينة سياسياً، وتشير إلى إيديولوجيا الاستعمار الجديد، إنْ لم تكن



تسوّغه. وقد أدرك لوران دو برونوف نفسه هذا الأمر عندما تراجع عن إعادة إصدار أحد كتب أبيه المبكرة، الذي يتضمن قصصاً تكمن فيها العنصرية. ولكنّ الجميع تقريباً قد اقتنوا بابار. أصدرت الكاتبة إنيد بلايتون المعروفة إلى الآن طبعة مختصرة للقصص الأولى في منتصف الحرب العالمية الثانية، نوّه المحرر قائلا: «إن غارات العدو أثناء تدميره للكثير من السجلات الأقل أهمية، قد أحرق نسبة كبيرة من تلك الصفحات الملوّنة البهيجة التي تضافرت فيها عبقرية جان دو برونوف وبراعة طابع الألوان تخليداً للمهنة، ولكن ليس قصف بابار سهلاً»[liii]. إن إيزابيل شيفريل، وهي محاضرة في جامعة رين، تتحدث على الأرجح نيابة عن الملايين قائلة: «ينتمي بابار إلى عالم الأطفال من خلال براءة مظهره، واكتناز شكله المطواع... عالمه هو عالم من الحب والحكمة، والشعر والحنين. إنه عالم مطمئن وثري ومغلق»[liv]. وفي أحدث التقمّصات، هناك المخلوق البضّ المرتدي ثياباً، وهو بابار «عالم البيئة الصغير» p'tit ecolo، الذي يحاول أن يزيد من اخضرار العالم بتجنب مزيلات التعرق.

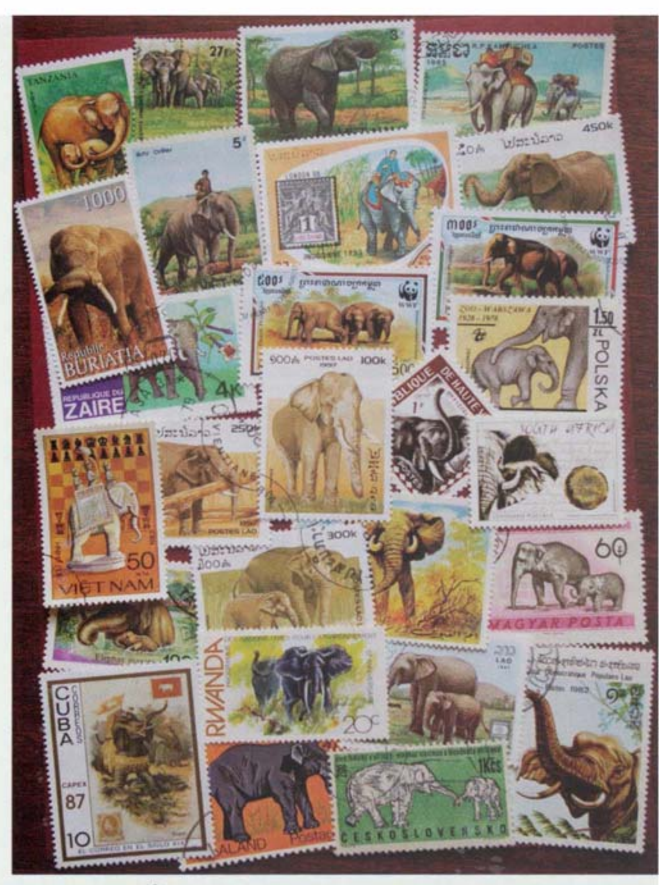
من بين روايات لا تحصى، تصف رواية جول فيرن «Cinq Semaines en Ballon» خمسة أسابيع في منطاد (1863) فيلاً يجر منطاد الراوي.

لنعد إلى عالم الكبار، فهناك عددٌ أكبر من روايات الفيل، ولكن الرواية الأكثر تداولاً وروداً في الأنطولوجيات، هي بالتأكيد رواية رومان غاري «جذور السماء»، عنوانها الأصلي Les Racines du ciel، 1956، كتبت بالفرنسية، مع أنَّ غاري قد ولد في لتوانيا. صنع جون هيوستن فيلماً منها عام 1958. إنها حكاية مثيرة للفضول، تدور أحداثها في إفريقيا الاستوائية الفرنسية في الوقت الذي كانت تتصادم فيه غطرسة الصيد مع حركات حماية الحيوان الجديدة. وتبدو أحياناً ضرباً من التأمل الوجوديّ تقريباً، أكثر من كونها مغامرة تتعلق بالفيل يخوض بطلها موريل، بعد إخفاقه في التقدّم بعريضة لإنقاذ الفيلة، حملةً من الإرهاب المعتدل ضد لصوص العاج والصيادين، كي يحمي الحيوانات الثمينة. وأثناء قيامه بذلك، يخلط بينه وبين المتمردين

السياسيين، وفي إحدى المرات، يخبر موريل نادلة بار أن الفيلة كانت «الصورة الأوحد للحرية الهائلة». ويواصل حديثه، عندما كان سجين حرب بائساً في ألمانيا، «حاول أن يفكر بتلك الحيوانات الكبيرة التي تزحف زحفاً لا يقاومه شيء عبر فضاءات إفريقيا المفتوحة، وقد جعلنا هذا نشعر بالتحسن». وهذا القول لا يتماشى تماماً مع ما كتبه غاري في مقدمة طبعة ثانية في مجلة تايم لايف، ولكنه مع ذلك يقول الكثير فيما يخص قوة معارف الفيل:

... أكاد لا أجد ناقداً لم يشر إلى «جذور السماء» بصفتها رواية رمزية، وما يسعني قوله متيقناً أو بالأحرى يائساً، هو أنها ليست رواية من هذا النوع. قيل أن فيلتي ترمز في الواقع إلى الحرية واستقلال إفريقيا. أو أنها آخر الأفراد المهددين بالانقراض في مجتمعنا الشمولي الآلي الجمعي. أو أنَّ هذه الوحوش الأسطورية تقريباً، تستدعي في عصر الإلحاد هذا، حضوراً أقوى وأكبر إلى ما لا نهاية. أو، من جديد، هي أمثولة عن الإنسانية بحد ذاتها مهددة بخطر الانقراض النووي. ما من حدّ تقريباً للرمزية التي تستطيعون إسباغها على الفيل، ولكنْ إذا أصبحت صورة هذا الحيوان المحبوب ذي الجلد السميك نوعاً من اختبار رورشاخ بالنسبة لكل منا، وكان هذا بالضبط هو مقصدي، فإنَّ هذا الأمر، على الأقل، لا يجعل منه شيئاً رمزياً. بل يثبت بالأحرى أن كلاً منا يحمل في روحه وعقله مفهوماً مختلفاً عن الشيء الجوهريّ الذي يقتضيه خلاصنا، توقاً مختلفاً، وتأويلاً شخصياً، بالمعنى الأوسع للكلمة، لما نقصده بالمحافظة على الحياة[lv].

لقد فازت «جذور السماء» بجائزة غونكور المرموقة، وأثّرت على الأقل في بعض من الروايات اللاحقة مثل رواية «هاموند إن» «آثار الأقدام الكبيرة»، 1977، وهي نسخة أقل تفلسفاً من رواية غاري، وإنْ دارت أحداثها في شبه الصحراء الواقعة في شمالي كينيا.



طوابع تحمل صور الفيل من كافة أرجاء العالم

وبالطبع، بمحض الصدفة المبهجة، سيجد المرء أمثلة لا تحصى ولا تحصر عن استخدام الفيلة كمجاز يرمز إلى شيء آخر. وسنورد هنا ثلاثةَ أمثلة فقط مأخوذة من روايات شهيرة. ففي رواية «البؤساء» Les Misérables، وصف فيكتور هوغو، أهالي باريس وهم يشيدون «فيلاً ارتفاعه أربعون قدماً، مصنوعاً من سقالات مكسوة بألواح

الماسونيت، ويحمل على ظهره برجاً يشبه بيتا»، وهذا بمثابة «نوع من الرمز يشير إلى قوة الشعب»(lvi). ووصف تشارلز ديكنز، في معرض نقده العظيم للعصر الصناعي في«أوقات عصيبة»، كيف «كان يعمل مكبس الآلة البخارية برتابة صعوداً وهبوطاً، مثل رأس فيل في حالة من حالات جنون الكآبة»(lvii). وفي رواية فرجينيا وولف «الأمواج»، فإنّ فيل السيرك هو صورة إحدى الشخصيات للتعبير عن الشعور بالضيق: «الوحش يخطو، الفيل بقدمه المكبّلة بالسلاسل»(lviii).

وسوف أجد روايات عديدة في آسيا تتطرق إلى الفيلة، وعلى الرغم مما يقال عن الهند بأنها تنتج كميات هائلة من المواد المطبوعة، فإن روايات الفيلة معدودة بالتأكيد. وبين المطبوعات الراهنة، هناك رواية عنوانها «رماد من أجل الإله الفيل»، للكاتب فيجايا شارتز، وهي على صلة بغانيش أكثر من صلتها بالفيلة، ورواية آشوك ماثور «حدث ذات فيل»، تصوّر دخول عبادة غانيش إلى مجتمعات المهاجرين الهنود الحديثة في كندا، ورواية راجيكا راو، «الفيل والـ ماروتي»، المبنية على افتراض حادث تصادم بين فيل وسيارة ماروتي، ومع ذلك، ليست الحيوانات مركزية في هذه الرواية أيضاً. النص الهندي الأكثر رواجاً أثناء كتابة هذا الكتاب، هو دراسة غير أدبية للهند الحديثة قام بها الروائي شاشي ثارور، بعنوانها الموحي «الفيل والنمر والهاتف الخليوي».

وعلى أية حال، هناك قصة رائعة كتبها فيكرام سيت شعراً، هو الروائي المعروف بروايته الضخمة «صبي مناسب»، وتستمدُّ قصتَها من حكاية شعبية حديثة مكتوبة في أبيات مثنوية مقفاة، تقوم فيها جماعة من الحيوانات الناطقة، يقودها التدرّج الآسيوي، نوع من طيور التدرج، بغزو مكتب الزعيم البشري المحلي الكبير كي تحتج على مخطط بناء سد.فيحدث أنْ ينشبَ شجارٌ، ويموت التدرج موتاً مأسوياً؛ وما يقوم به الفيل لا يزيد إلا قليلاً على سكب إبريق من

الشاي الساخن فوق الزعيم العظيم. وتمعن الحكاية في الامتناع عن إقحام أي مثال أخلاقي، على الرغم من أنَّ الحساسية البيئية واضحة بما فيه الكفاية، ويبكي الفيل تناقض الإنسان فهو «شرس ولطيف»، «عاقل ومجنون»، في آن معاً، ويدمر العالم في حالة من «الأنانية المضطربة»(lix).

هناك عدد كبير من القصائد التي تصوّر الفيل، بدءاً بالملاحم الهندية الأولى، المهابهاراتا والريغ فيدا، إلى الرثاء المزوّد بالرسوم التوضيحية لدى هيثكوت وليامز. وهناك استبيانات قليلة عن الفيلة تغفل سخرية جوناثان سويفت التي تتناول صناع خرائط خياليين يرتهنون فيلاً كي يملأ مكاناً شاغراً؛ «بسبب شح المدن»، أو شعر جون من دون في قصيدته «تقدم الروح»، ويتحدث فيها عن «تحفة الطبيعة، الفيل، الشيء الوحيد الكبير الذي لا يتسبب بأي أذى». وبورتريه الفيل لدى إدوارد لير في «أبجدية حيوان» هو بالطبع صورة لا تقاوم، والسبب بالضبط هو عبثيتها:

الفيل المتحمس، الذي ينقل نفسه عبر الماء
ومعه مسعر المطبخ، وزوج جديد من الأقراط.

غير أننا سنورد هنا مثالين أقل شهرة، وأكثر أهمية، من جنوب إفريقيا. وكلاهما يتخذ من الإبادة العالمية للفيل خلفية له، وارتهانها المطلق بنزوات الإنسان. كتب هارولد فارمر قصيدته «غياب الفيلة» في زمبابوي؛ وهي قصيدة تنبؤية كئيبة تتناول الزيادة المفاجئة الجديدة في نهب الفيلة هناك.

القصائد عن الفيلة خيرٌ من الفيلة.
ماذا تعني النجاة؟
من يعبأ باقتلاع الأشجار؟
على مهل تتسمك أرض الغابة بالبقايا وتتراكم مخلفات الفيلة،

النمال القلقة المذعورة تحدق بالجذوع في دربها،
استيقاظ البوم المباغت إثر تهشم الأنياب،
وتضافرها ينغص سكينة النهر،
هذا كله ليس إلا العلامات الخارجية المرئية للقصيدة.
القصيدة في الفيل هي أنفاس الفيل.
هل تتنفس الفيلة؟ أبداً لم نفكر بها على هذا النحو،
لم نفكر بالتنهيدة التي لا تدرك لمخلوقات أقل شأناً.
الفيلة تتقدم عبر مقاطع القصائد، والأناشيد، والملاحم.
تدفش بأقدامها الألواح السوداء الصقيلة، في حلبات السيرك القاريَّة. آه! يصيح الحشد.
إنها تتخذ مكانها في المنحوتات الحجرية للقديس جيروم، وتتنفس بصوت خفيض ناعم عندما ترى العابدين.

الفيل كاهن جلالة الروح...[lx]

وهناك قصيدة أكثر إمتاعاً، ولكنها لا تقل إقلاقاً عن سابقتها من حيث مضامينها، وهي قصيدة «فيل واحد» للشاعر الجنوب إفريقي دوغلاس ليفينغستون:

إبّان ذلك الوقت قام فيلٌ واحدٌ
من بين القطيع كله، فتوقف وتنحنح
وقال: لا أستطيع بتاتاً، من أجل العالم كله
أن أتذكر ما كان ينبغي علي قوله؛
وما أعرفه هو أنه كان في غاية الأهمية فحسب.
هزَّ أذنيه، وبدت عليه الحيرة، وصفع نفسه
على ظهره بحيوية بالغة وأثار الغبار؛
أزاح الطرفين السفليين لرجل الأعمال المقتدر

المرتدين سراويل غير مناسبة؛ تنحنح وحدق غاضباً
بأشجار الشوك البريئة؛ جمهوره.
آه نعم! سيأتي وقتٌ يقترف فيه الفيل، رغماً عنه،
أقصى الأشياء! والغثيان
ينتابه، إزاء الوحوش الأنانية، أنواتهم، ونتانتهم،
مكر قسوتهم، وتدميريتهم،
عابساً، ورغماً عنه، يلتفت إلى الإنسان...(lxi)

وربما من المناسب أكثر، أنْ نختتم بمقتطف تنبؤي من كتاب هيثكوت وليامز «فيل مقدس»، إنه ينهي قصيدته الطويلة بالتساؤل كيف تؤثر رؤية قوة فيل حقيقي على ذاك السؤال القديم قدم الدهر، «من أنا؟!»

يتعمق إدراك الطفل
حين يرى الفيلة القاصية،
ويحسُّ بقوتها التي تناهت إليه،
قبل أن يتحول انتباهه عن الحيوان
بعيداً صوب الآلة؛
قبل أن يُرغَم على الدخول إلى مجتمع صنعه الإنسان
بدائل الفيلة فيه؛
البنايات الشاهقة، القوى الهائلة،
وعديد الأمم المتناحرة،
الأسواق الوحشية، الطيارات النفاثة العملاقة، والأوتوسترادات...
قبل أن يسحقه داء الفيل التكنولوجي،
حيث تضيق الفسحة شيئاً فشيئاً أمام أي ثدييات
أكبر من الجرذ.
وحيث، من الآن فصاعداً، قد يتواجد الفيل
فقط في فيلم بالٍ عن الطبيعة،

حيواناً عجيباً معدماً في حديقة الحيوان في فيلم فيديو..[lxii]

إن صلةَ الشعر وثيقةٌ بالموسيقى، وكذلك الفيلة التي يتطرق إليها، ولا يقتصر الأمر على أوركسترا الفيل التايلاندية التي سنلتقي بها مجدداً في الفصل الرابع. ومن الأحداث الشهيرة، إدخال كميل سان سان الفيل إلى عمله «كرنفال الحيوانات»، على الرغم من أنه لم يعرض قبل وفاة المؤلف عام 1921. كما تعاون المؤلف الموسيقي الروسي إيغور سترافنسكي عام 1942 مع مصمم الرقصات جورج بالانشين، كي ينتجا عرض باليه يتضمن 50 فيلاً من أجل صديق بالانشين مالك السيرك جون رنغلينغ نورث. وفي الوقت الحاضر، فإنّ العديدَ من المؤسسات والفرق الموسيقية، الغامضة بهذا المعنى أو ذاك، تستخدم صورة الفيل واسمه، والقلة القليلة منها تكترث بتحسين أوضاع الفيلة. يبدو أن بعضهم على الأقل قد اختاروا الفيل كأيقونة تدل على قوة الاستقلال، فرقة الروك «جابونايز إيلفانتس» من بلومنغتون إنديانا، يقودها صاحب الاسم العجيب «إيمبرك زيرلوك»، ورفضت فرقة الموسيقيين التشيكيين «فيلة الجيب» الخضوعَ لأي ماركة تجارية «قد تقيّد أرواحهم الطليقة وأحاسيسهم الموسيقية بشكل لا يرتضونه»[lxiii]؛ وتعمّدت فرقة «الفيلة في الغرفة» تقديم مواضيع لا تبعث على الارتياح. ولكن ما من منطق ينظم فوضى التظاهرات الأخرى، فوسط الفرق الموسيقية والماركات التجارية والطرقات، ستجد الفيلة في «أمستردام»، وفي «العلية»، وفي «الحب»؛ فيلة «وردية طائرة، وبيضاء بلون العقيق اليماني، بنفسجية، متجمدة، مندفعة، صغيرة». وبوسعك أن تتخيل نفسك «مغتصباً من قبل الفيلة»، وأن تسترخيَ مع مختارات «موسيقى الفيلة الساخنة» «e.a.s.y.». (حتى الفيلة شابة أحياناً Even Elephants Are Sometimes Young)؛ أو أن تتملى أغنية أندريا شي المتميزة بوعي

سياسي أكبر «حيث تنتحب الفيلة»، التي تشير إلى العواقب المريعة للإبادة العرقية التي ارتكبها بول بوت في كمبوديا.

ومن الواضح هنا أننا سنجازف، كما حذرنا هيثكوت وليامز، بالدخول إلى منطقة اللامعنى بكمياته الكبيرة التي تنتجها صناعة الإعلانات والتجارة المتعلقة بها. حتى أنّ أحد المدونين قد وسم «أصحاب الإعلانات الأشرار» بـ «الفيل في الغرفة»!. كما أنّ التصوير المذهلَ يضاهي كل شيء، فامتلاك لقطة، أو، ما هو أفضل، تنزيل مقاطع فيديو معدّة في المنزل على موقع يوتيوب) هو أمر أكثر مدعاة للرضا عن النفس من التجربة الحقيقية. فما كان ذات مرة أمثلة فريدة وذات شأن عن الفن الصخري الشاماني، مثل رسوم الكهوف لدى سكان الأدغال، أو كانت له أهمية دينية تتعلق بالعبادة، مثل غانيش في الشرق الأقصى، قد تكاثر الآن عبر الأسواق السياحية إلى ملايين من الدمى التجارية الرخيصة. وبوسعي، على سبيل المثال، الذهاب إلى المتجر في حديقة آدو الوطنية للأفيال، حيث أقيم،



كثيراً ما تترافق الموسيقى والفيلة، فقد ابتكر و.ف. شوبرت من كليفلاند هذا الملصق من أجل فرقة "موسيقيو جورجيا الأصليون»، في عام 1876.

لأشتري صوراً للفيل على شكل علاقات مفاتيح وأكواب وقمصان تي شيرتات، وقبعات، وورق كتابة، وبطاقات وطوابع بريدية، وأقراص DVD، وتماثيل صغيرة مصنوعة من الزجاج المنفوخ، والسيراميك، والعشب، والورق، والخشب، والحجر الصابوني، والفولاذ، أو طباعة على أقمشة باتيك، أو لوحة مائية أو زيتية.

وتظلُّ الفيلةُ في كل مكان عبر الإعلانات، حتى في الأماكن التي لم يطأها الفيل قط، وما من مكان يفوق الولايات المتحدة في هذا المجال. وشعار الحزب الجمهوري، فحسب، هو أشد الأمثلة وضوحاً. ومما يثير السخرية، إنّ الرجل نفسه قد ابتكر شعاري الحزبين الرئيسيين كليهما. لقد رسم توماس ناست، في كاريكاتير ظهر في مجلة «هاربرز ويكلي» عام 1874، حماراً يرتدي جلد أسد، مفزعاً كل الحيوانات في حديقة الحيوان. وكان أحد تلك الحيوانات، وهو الفيل، موسوماً بـ «الناخب الجمهوري». وهذا كلُّ ما تطلبه الأمر كي يبقى الفيل شعاراً للحزب الجمهوري. أما الآن بالطبع، فهم يزعمون أنه يعني القوة والكرامة.

واليوم تستخدم مثل هذه الارتباطات في كل مجال يمكن تخيّله. ففي منطقتي فقط، لاحظت أن رمز الفيل قد استخدم للترويج لكل من الاسمنت، وشركة نقل، وسمسار عقارات، ورحلات سياحية بالعربات، والبيرة، ومعدات الرفع الثقيلة. إنّ المواقع الإلكترونية المختصة بالفيل، تفرد دزينات من قوائم استخدامات صور الفيل في الترويج الدعائي لأي شيء، من الطابعات إلى السجاجيد، ومن أرضيات الغرف التي لا تصدر صوتاً إلى خدمات البريد السريع، وهي بالطبع ليست دعايات عن الفيلة أبداً، وإنما تستغل خصائصها النمطية التي تتضمن الذاكرة الثاقبة، والقوة، والثقل، والمصداقية[lxiv].

كثيراً ما تقترن الفيلة، ولأسباب واضحة، بشهيات هائلة، ولهذا



"ثيرد تيرم بانيك»: كاريكاتير توماس ناست عام 1874، رسّخ الفيل والحمار كرمزين للحزبين السياسيين الأمريكيين الرئيسيين، وقد تعزز بمئات من رسوم الكاريكاتير وصولاً إلى الوقت الحاضر.

السبب تستخدم في الترويج الدعائي للمطاعم. فتماثيل الفيلة ذات التصميم الرديء تزحم مداخل المطاعم أو داخلها على امتداد الولايات المتحدة، بدءاً من «ممشى الفيل» في بوسطن إلى مبالغات الفيلة الوردية في شيلتون في فلوريدا. هناك فيل وردي آخر، وهو فيل بلاستيكي، يزين مخزن جامبو ليكير ستور في جوهانسبورغ في منطقة هيلبراو، ويسخر منه إيفان فلاديسلافيتش في روايته «متجر لا يهدأ»، «عيناه كطبقي فنجان، يخشخش فيهما بؤبؤان مرسومان بالأسود مثل أشجار الغبيراء»، و«أذناه المستدقتان تنتصبان على طرفيهما مثل جناحين حزينين». وفي مستهل الرواية، يحاول سكران أنْ يمتطي «مؤخرة الفيل الوردية الصادمة»(lxv). ولا يبدو أنّ أحداً متأكد تماماً من سبب ارتباط «الفيلة الوردية» بهلوسات السكر، ولكن جاك لندن على الأقل، عام 1913، استطاع أن يكتب في «جون بارليكورن» –جون حبة الشعير–:

هناك، إذا ما تحدثنا بشكل عام، نوعان من السكارى. هناك

السكير الذي نعرفه جميعاً، الأخرق، العديم الخيال، الذي تقضم عقله الخدِر يرقاتٌ خدِرة؛ ويمشي بخطوات واسعة على ساقين مترنحتين منفرجتين، ويقع مراراً في المجارير، ويرى، في ذروة نشوته، فئراناً زرقاً وفيلة وردية. إنّه النموذج الذي تدور حوله النكات في الجرائد الساخرة.



قوة الفيل في شعار شركة إسمنت. (ورق شجر Portulacaria المرئي بالكاد في القمة، هو طعام مفضل لدى الفيل).

وفي عام 1932 حقق غاي لومباردو نجاحاً جماهيرياً ساحقاً مع أغنية «الفيلة الوردية»، التي ألفها مورت ديكسون وهاري وودز:

فيلة وردية على الطاولة.
فيلة وردية على الكرسي.
فيلة وردية على السقف،
فيلة وردية في كل مكان.
وأنا الآن بينها أصيح ووووبي،
رفعت يدي وأقسمت
إنه ما عاد في نيتي قط
رؤية تلك الفيلة الوردية.

وكما ألمح أحد المعلقين: «ينبغي علينا ملاحظة أنّ الأغنية قد أشارت أيضاً إلى تمساح بلون الخزامى، بقرة بنفسجية، وأفعى بوا عاصرة منقطة، خنفساء، قرد، وطائر سبد. ولكن ما التصق بالذهن هو الفيل الوردي»(lxvi). ومن هنا على الأرجح، ماركات البيرة المتفرقة التي تصور الفيلة، وتتضمن بيرة هايفر الأمريكية، وتاسكر الكينية، وروغ الجنوب إفريقية، وويندوهويك الناميبية، وإيليفنت ستاوت السنغفورية، ومالت ليكور الدانماركية. وهناك دعاية تلفزيونية معروفة أجمل مما أسلفنا، تحكي كيف ابتكر صبيٌّ هندي صغير «برجاً كالفيل»، باستخدام رغبة الفيلة المزعومة في شرب البيبسي.

وبعيداً عن مذهب «الماركات» المعاصر، يعد الفيلم السينمائي بلا



تصنع مشروبات «أمارولا كريم» من ثمار المارولا، وهذه الثمار تشكل وجبات خفيفة مفضلة لدى الفيل أيضاً.

ريب الوسيلة الأقوى في عصرنا، حيث تظهر الأفيال بشكل منتظم في الدعايات التلفزيونية أيضاً، على الأقل في المنطقة التي أعيش فيها من العالم في إفريقيا الجنوبية، حيث الفيلة الحقيقية متاحة للتصوير. وبالطبع كانت الفيلة موضوعاً جذاباً، أو مجرد إكسسوار لإلهات الشاشة وفحول الأبطال على السواء، منذ توافر صناعة الأفلام تقريباً. يعدد موقع إلكتروني ما يزيد عن مئة فيلم يتناول الفيلة أنتجت حتى عام 2004، وكان أولها «فيل فراك ميلفيل المزيف» عام 1899[lxvii]. وقد صنع هذا الفيلم من أجل الترويج لسيرك فورباو و براذرز، وأظهر فيلاً يدوس جسدي مهرين منبطحين. ومثل هذه المقاطع المصورة، مهدت الطريق أمام تصوير الأفلام. وهناك فيلم شبه وثائقي صنعه ميريان س. كوبر وإيرنست شويداك، «تشانغ»



«T» نموذجية من كتاب كيبلينغ «كتاب الغابة».

(1924)، تدور أحداثه في تايلاند، واستبدلت فيه الفيلة الهائجة بالقبائل البربرية المعهودة، وينتهي المطاف بالحيوانات إلى الأسر والترويض. واعتمد فيلم روبرت فلاهرتي «الصبي الفيل» (1937) على قصة روديارد كيبلينغ «توماي» المأخوذة من «كتاب الغابة». وكان هناك فيلم «مشية الفيل» (1954) الذي يصور أليزابيث تايلور الشهوانية كزوجة لبارون مزارع شاي في سيلان، ويدور عشقها المحظور على خلفية من «وعيد مشؤوم تحوم به الفيلة العدوانية التي تمقت الزرع»[lxviii]. وواحد من الأفلام الأكثر حساسية تجاه الفيلة من الناحية البيئية، هو فيلم «صياد أبيض، قلب أسود»، أخرجه ومثّل فيه كلينت إيستوود، ولم ينل الكثير من الشهرة. إنّ الفيلمَ المأخوذ عن كتاب ألّفه بيتر فيرتل، هو سيرة مواربة للمخرج جون هيوستن وصناعته لفيلم «الملكة الإفريقية» عام 1951. وفي نسخة إيستوود الجديدة، يكون المخرج شخصية تتآكله الرغبة في قتل فيل معين، ثم يقرر في النهاية ألا يقتله، ولكن النتائج مأساوية. وتم تصوير كلا الفيلمين في زمبابوي، وأعاد إيستوود استخدام السفينة البخارية الصغيرة نفسها التي استخدمها هيوستن. ولعب «دور» الفيل فيل بري يعيش في حديقة ماتوسادونا الوطنية شمال البلاد.

وهناك بالطبع دزينات من أفلام الأطفال وأفلام الصور المتحركة التي سارت على نهج «دمبو» ديزني 1941. وبالمناسبة، فإنَّ فيلم ديفيد لينش المصوّر بالأبيض والأسود «الرجل الفيل» (1980)، لا يمتّ إلى الفيلة بأي صلة، ما عدا مظهر المسكين جون ميريك الذي يزعم شبهه بالفيل، اسمه جوزف في الحياة الواقعية، والحالة الطبية لجلده المنتفخ والفظيع التجاعيد، والطريقة المريعة التي عرضوه فيها كواحدة من أعاجيب السيرك.

وتنتج الهند من الأفلام السينمائية ما يفوق أية أمة أخرى على الأرض، ولهذا لن نتفاجأ بالعثور بينها على أمثلة تتناول الفيلة. فهي



ملصق فيلم سينمائي، مأخوذ من رواية إدغار رايس بوروز الشهيرة، طرزان، حوالي 1921.

غالباً ما كانت تظهر في الأفلام التاريخية أو الأسطورية الباكرة، غير أنها حظيت بظهور أعظم عام 1971، في فيلم Hathi Mera Sathi «صاحبي الفيل». فالبطل الشاب راجو، لعب دوره راجيش خانا الذي تنقذه الفيلة مراراً فتطرد عنه فهداً، وترتب اللقاء العاطفي الأساسي بجرّها سيارة معطلة، وتساعد راجو في الخروج من فقره عبر قيامها بأدوار بديلة، تحضر طبيباً، وفي النهاية يضحي أحدها بحياته ويتلقى الرصاصة عوضاً عن راجو[lxix]. وهناك صانع أفلام شهير من كيرالا، اسمه ن. بالان، صنع فيلماً يدعى «الفيل الثامن عشر» عام 2003، يرثي فيه إبادة الفيلة في منطقته. ويمكننا أن

نختتم، وفي قلوبنا بعض من الدفء، عند فيلم «أكبر من الحياة» (1996)، وفيه يحصل متشرد على فيل فيعيده سيراً على الأقدام من أمريكا إلى بلاده تايلاند.

وختاماً، هناك الآن أفلام وثائقية بأعداد هائلة، تصعب الإحاطة بها هنا. وأفلام سينثيا موث عن «صدى الفيلة»، وهي الملكة في دراستها الكينية، لا بدَّ أنْ تحسب أفلاماً رائدة عظيمة التأثير في هذا المضمار. وهناك أفلام «إفريقيا: مملكة الفيلة»، وفيلم ناشيونال جيوغرافيك «تأملات عن الفيلة» و«غضب الفيل»، وفيلم ديفيد مالاكوف «الفيل المديني»، وهو حول يتامى الفيلة في بانكوك، وفيلم أنجيلا باسيت «همسات: حكاية فيل»، وأفلام عديدة سواها. أما الآن، وقد تعقدت تقنيات هذا النوع، فيمكننا أنْ نشاهد جنين الفيل حياً في رحم أمه، أو، في مجازفة أخرى، من خلال كاميرا مخفية في روث فيل وُضِع في مكان استراتيجي، على الأقل هناك ذكر واحد أحس بوجود خلل ما، فرمى بالآلة المزعجة في النهر المجاور. ربما ما من وسيلة قوية الفعالية في صياغة المواقف البيئية عبر العالم، ولكني لا أعرف أية دراسة تناولت أفلام الفيل الوثائقية وباشرت بمعاينة هذا الموضوع. وحتى لو كان بمستطاعنا معرفة الفيلة وفهمها من خلال الأفلام بشكل أحسن من أي وقت مضى، فما من شيء بوسعه التعويض عن رؤيتها شخصياً في أماكنها الطبيعية، أو على الأقل في الأماكن الشبيهة التي قمنا نحن بتصميمها. وهكذا، في الفصول الأخيرة، يمكننا العودة من الفن إلى الحياة، واستكشاف وقائع حياة الفيل والمحافظة عليه حالياً.

4 - استخدام الفيلة

«بهيٌّ هو فيل يمتطيه ملك؛ وجليلٌ هو ملك يمتطي فيلاً... وهكذا ينبغي حماية الفيلة كما تحمى حياة ملك»[lxx].

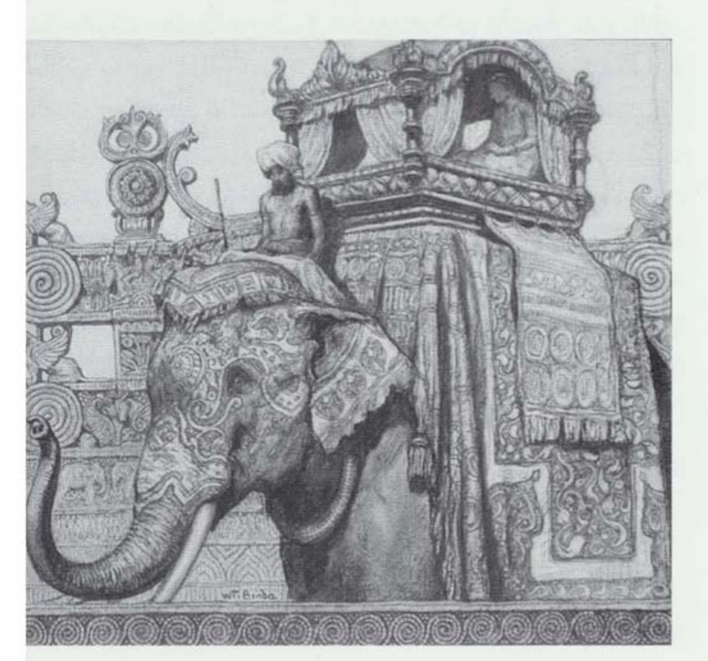
هذا ما رواه كتاب هندي مبكر يتعلق بمعارف الفيل. فالتعايش بين الفيل والملك هناك لا يفتقد إلى الصحة بالضرورة، غير أنّ البشر قد قاموا بحماية الفيلة عموماً فقط كي يستخدموها بطريقة ما، واستخدموها عموماً تمجيداً لأنفسهم فحسب. وعلى العموم، لم يصبّ هذا الأمر في مصلحة الفيلة التي مُنيت بحالات أسر مروعة، وترويض مؤذٍ، ورعب على جبهات المعارك، ورحلات بحرية مفزعة، وأقفاص خانقة، ونزالات مع النمور، واستعراضات شائنة في وضعيات غير طبيعية، فضلاً عن العمل الشاق في قطع الأشجار الذي كان نصيبَ معظم الفيلة الأسيرة. والقليل مما ذكرناه قد حسّن بشكل ملحوظ أقدار تلك الفيلة القليلة المتروكة في البراري، وربما فقط في العصر الحديث للمحافظة على الأنواع حيث سمحت تلك المحميات وحدائق الحيوان الكريمة باقتراب الفيلة من حياة طبيعية، بدون أنْ تنقطع في الوقت نفسه عن مدِّ آسريها البشر بمداخيلهم.

ولا يعني هذا الغياب المطلق للعطف والرعاية عن العلاقات بين الفيل والإنسان. إذ لا تزال المودة العميقة المتبادلة والإعجاب وحتى التقدير، تشكل خيطاً مستمراً في تاريخ عمره 5.000 سنة، ولكنْ هناك بشكل دائم تقريباً الأقفاص والسلاسل أسفل البطن، والقضيب المسنون أو عصا الفيل التي تنخز الأذن أو القدم كي توجه الحركة نحو الخضوع النهائي البائس.

في اليوم التاسع من احتفال ديزارا، عندما يكرم الهندوس حيواناتهم، إذا ما رأيت فيلاً يتقدم عبر شارع في نيودلهي يكاد لا يُرى تحت غلالات الذهب الكثيفة، مزيناً بالحرير وأجراس النحاس،

ملوناً بأساليب رائعة، وحلقات الفضة في نابيه، فسوف تتساءل فيما إذا كان هذا الفيل حقاً مكرّماً بحد ذاته، أم أنه مستخدم كقماشة فحسب في استعراض فن الإنسان.

تقتضي بعض الاستخدامات أن يكون الفيل حياً و(أو ثم) ميتاً في آن معاً. عندما ينتاب الهلع صياداً أثناء مطاردته، والمطاردة تعود «إليه هو» بشكل دائم تقريباً، ممتحناً رجولته وجسارته بمقارعة أكبر الثدييات على وجه الأرض، فإنّ الغاية من ذلك هي فقط برهنته على جسارته بقتل الفيل. وتزوّدنا بقايا فيل ميت بالدليل الدامغ؛ منحوتات العاج، قدم تحولت إلى عمود مظلة، أو في واحد من أشدّ الأمثلة غرائبية، أذن محفوظة بأكملها، رسم عليها فيل في حالة هجوم، معروضة بين تذكارات رؤساء الولايات المتحدة، انظر



فيل يحمل هودجاً مزيَّناً تزييناً باذخاً.

إلى الموقع الإلكتروني ذي العنوان الموحي hailtothechiefs.com، لقد سمّى أحد الكتاب ذلك «كيتش الهاوية». إنّ الفيلةَ الميتة بالطبع، قد وفّرت دائماً اللحم والجلود وفي المقام الأول العاج. بيد أنّي أودّ في هذا الفصل التركيز على الاستفادة من الفيلة الحية.

لدينا دليل على ترويض الفيلة منذ بداية الحضارات القوية تقريباً؛ فالفيلة رموزٌ للسلطة الملكية والإمبراطورية، وأسلحةٌ في الحروب ورحلات الصيد، وحيواناتٌ للحمل، وعمّالٌ في قطع الأشجار وبناة جسور، وحيوانات مسلّية في المحميات وحدائق الحيوان وحلبات السيرك. ومؤخراً، كفرجة شبه برية من أجل السياح. وفي وقت مبكر يعود إلى 3.000 سنة ق.م، كان المصريون يصممون رسوماً هيروغليفية ميزت بين الفيلة البرية والمدرَّبة، مستخدمين على الأرجح الفيلة الإفريقية التي انتشرت في أرجاء إفريقيا الشمالية، إلى أن أبادها الصيد وتصحّر الصحراء الكبرى. وتعود منحوتة صلصالية سومرية تصور فيلاً وراكباً إلى 2.000 سنة ق.م. وفي وادي إندوس في الباكستان، في موهينجودهارو وهارابا المعاصرتين لسومر وبابل، كانت هناك حضارة مدنية متقدمة تستخدم أختام التجارة المنحوتة من الحجر الصابوني، وأحد هذه الأختام يظهر بوضوح فيلاً مُسرَجاً.

وليس مرجحاً أن الفيل قد أدّى دوراً كبيراً في هذه المجتمعات الأولى. وعلى أية حال، فإنّ الآريين، وهم غزاة انحدروا من سهول تركستان على دفعات بين عامي 2.000 و1.700 ق.م، عند وصولهم إلى شمال الهند، وجدوا في بعض الأماكن ثقافة متقدمة فيما يخصّ ترويض الفيل. ولا يتضمن هذا جعله أليفاً؛ إذ يبدو أنه لم يكن هناك أبداً أيُّ برنامج لإكثار الفيلة الأسيرة، فيتم تعويض الخسارات بأسر فيلة جديدة من الجمهرات التي كانت البراري لا تزال تزخر بها.

ويتجلى الدليل بشكل أساسي في كتب الفيدا، وهي سلسلة استمرت كتابتها بين عامي 1.200 و600 ق.م، والرامايانا والمهابهاراتا وقصص الجاتاكا. يبقى الترتيب الزمني لهذه الكتب قبل الألف الأولى ق.م. مبهماً، كما أنّ توثيقها موضع جدل أحياناً. وعلى أية حال، ومع أن الآريين قد عدّوا الحصانَ حيوانهم الأساسي كما يبدو، في الأصل كانت عربة إلههم الناري إندرا تجرها الأحصنة، إلاّ أنهم قد تبنوا رويداً رويداً «تقنية الفيل» المحلية.

ولا تدهشنا إلا قليلاً رغبةُ الملوك الآريين وخلفاؤهم أيضاً في ركوب الفيل، وإدخال هذا الوحش، واقعياً وأسطورياً في آن، إلى وسائل تعبيرهم عن القوة. لقد تبنى الآريون استخدام الشعوب الدرافيدية للفيل كآلة حرب، وتبنته كذلك أقوى الجمهوريات والممالك وأكثرها تنظيماً على امتداد الألف الأول ق.م. فقد اندمجت معتقدات طوطمية موغلة في القدم، مع بنى السلطة السياسية الجديدة. كما أنّ السلطة السياسية قد تكفّلت، بدورها، بجعل عظمة الفيل شأناً مركزياً في نظم الإيمان الديني الناشئة.

ومع تطور علوم الكونيات الهندوسية والبراهمية تمّ تصوير الإله الآري إندرا، إله الحرب والرعد والمطر، وهو يركب فيلاً اسمه إيرافاتا. لقد ارتبطت الفيلة ببداية العالم. فالفيلان ماهابادما «الغابة العظيمة»، وساوماناسا «حارس سوما، العصير المقدس»، كانا يسندان العالم برمته مثل عمودين. كما كانت الفيلة تمثل الخصوبة أيضاً. كان إندرا الذي ارتبط تقليدياً بالسُّحب التي تمنح المطر، بالإضافة إلى نوبة هياجه الجنسي العاصفة، يتحول إلى نوعين من الفيلة غاجالاكشمي – لاكشمي. وكما يصف ستيفان آلتر حضور تماثيل لاكشمي في معبد كايلاش، وهي «تطلع من زهرة لوتس، وفي داخلها بذور الحياة، رؤيا من رؤى الجمال والكمال، ثدياها منتفخان وإيماءاتها تستدرج الفيلة مثل غيوم تصبّ الماءَ فوقها، وهذا جزءٌ

أساسيٌّ وفعَّال من الخلق»[lxxi]. وكان خلق الآلهة التقليدية أمراً جوهرياً في هذه التطورات الدينية، مثل الإله الأشهر غانيش أو غانيزا.

إن عبادة غانيش وحضوره واسعا الانتشار؛ من الهند إلى أندونيسيا، ومن كمبوديا إلى الصين، حتى أننا لندهش عندما نعلم التاريخ المتأخر لنشوء هذا الإله. وفضلاً عن ذلك، فإن تطوّرَ غانيش يستوجب تحولاً غريباً لبعض من الآلهة الشريرة الأولى المعروفة باسم vinayakas إلى نقيضها التام. وتحدد النصوص الفيدية عدّة آلهة متعلقة بالفيل، وقد استلزمت بعض منها نعوتاً من قبيل Vighnesa وVighnesara، المشتقة من vighna، أي عقبة. وفي بعض الأماكن انصهرت هذه الـ vinayakas في إله وحيد له رأس فيل هو «رب العراقيل» الذي أصبح، حوالي القرن الخامس بعد الميلاد، غانيش، «مزيل العراقيل».

لقد ترافق تطور صورة غانيش مع حظر متنام يمنع أكل لحم الفيل شمالي الهند، ويرتبط كلاهما بوقائع بيئية ارتباطاً مباشراً؛ فمن جهة، كانت المجتمعات الزراعية المتوسعة تواجه تنافساً متزايداً مع الفيلة، ولا يمكن الاستغاثة إلا بإلهٍ فيل كي يدافع عنهم الأمر الذي يفسّرُ ترافق صور غانيش عادة مع فجلة أو أيقونات من قصب السكر. وفي الوقت نفسه، كانت جمهرات الفيلة البرية تجنَّد على نحو متزايد في نشاطات عسكرية. ولذلك يتملّى رامانِ سوكومار الفكرة القائلة: إنَّ المجتمعات الهامشية قد وجدت في أَسر الفيلة، من أجل بيعها، مصدراً يدرُّ عليهم الربح الاقتصادي أكثر من قتلها بحثاً عن الطعام أو ذوداً عن المحاصيل. وكان المزاولون الأوائل لعبادة غانيش هم النخبة وأولئك الذين تقبل بهم عامة الناس على مضض. وباختصار، لقد بدأت الممارسة «الدينية» كلعبة صُمِّمت من قبل السلطة كي يمكن الاستمرار في استخدام الفيلة الحية[lxxii].

ومن هنا، حيثما رُوِّضت الفيلة، فإن الملوك والأباطرة الذين يزعم العديد منهم حقوقاً إلهية، كانوا يتقدمون إلى الاحتفال والمعركة على ظهورها في موكب مهيب، وهو تقليد استمر ألفي سنة أخرى. وفي بعض التصاوير المبكرة، يصعب القول فيما إذا كانت الفيلة تحمل «أبراجاً» عسكرية أم «هوادج»، وهي منصات للجلوس تشبه العرش ازدادت تعقيداً بمرور الوقت. والمثال الجميل هو لوحة مرسومة بالذهب والغواش على الورق، من بيجابور في عام 1645 ب.م، تصور السلطان محمد عادل شاه راكباً فيله الباذخ الزينة، وخلفه رئيس وزرائه الذي كان عبداً أثيوبياً سابقاً. يحمل السلطان عصا الفيل ankush، أحد رأسيها مستقيم والآخر معقوف، وهي آلة للتدريب والتوجيه في آن معاً، ورمز يدل على النفوذ السياسي. غير أنّ اللوحة تصوّر، أيضاً، الأصفادَ حول كواحل الفيل. وتوجد عصا مماثلة محفوظة في متحف فيكتوريا وآلبرت في لندن، صنعت عام 1870 من أجل مهراجا جايبور، مصاغة من الذهب بشكل بديع ومرصعة بالألماس والميناء، وطرفاها معقوفان على شكل ثعبانين منبثقين من فم فيل.

كما كانت إحدى علامات انتقال السلطة رؤيةَ أمير ويلز في نيسان 1876، وهو يتسلق خاصرة فيل ليدخل هودجاً مذهباً ببذخ كي يستكمل زيارته إلى الهند الإمبراطورية. وعند تتويج الأمير بصفته إدوارد السابع، نظّم نائبُ الملك اللورد كارزون احتفالاً بتلك المناسبة في دلهي داربار عام 1903، وكان يعي استخدامه لطريقة رومانسية في تقليد مواكب الفيل الخاصة بالهند تأكيداً منه على التفوق البريطاني. وصل كارزون بطريقة مؤثرة على ظهر فيل مزين بمظلة ذهبية، مما أفزع تقريباً، وبطريقة مؤثرة أيضاً، أرستقراطية اللورد كيتشنر. وقد ذاعت شهرة هذا الرياء الأجوف الذي هجاه جورج أورويل في مقالته الباهرة «قتل فيل».

وهناك بُعدٌ قبيح آخر لسلطة الفيل الإمبراطورية يكمن في استخدامها في اصطياد حيوانات أخرى. لقد تواجدت هذه الممارسة على الأرجح منذ أن رُوِّضت الفيلة، فقد كتب بلوتارك، في عمله «الهند» (حوالي 100 ب.م)، أنَّ البشرَ في اصطيادهم للمانتيكور (حيوانات أسطورية) والنمور (الحقيقية)، «يركبون الفيلة كي يصطادوها»[lxxiii]. أما السجلات الأشدّ مصداقية فأحدث عهداً؛ فقد تمّ تصوير الإمبراطور المغولي بابور وهو يقتل وحيد قرن من على ظهر فيل مطلع القرن السادس عشر. وقام خليفته أكبر (1560-1605) بتنظيم رحلات صيد ضخمة، قيل إن إحداها، عام 1567، قد دامت أياماً عديدة، وشارك فيها عشرة آلاف جندي قاموا بتطويق منطقة قطرها ستون ميلاً. وكان «أكبر» يصول ويجول بحرية هنا، قاتلاً الخنازير البرية، والنمور والأسود بالرمح والبندقية القديمة (الماسكيت) معاً. كما استمر اصطياد النمر حتى عهود الإمبراطورية البريطانية؛ فقد شهد إدوارد، أمير ويلز، نمراً يهاجم فيلاً أثناء إحدى رحلات الصيد، وهو نفسه كان يسدد النار خلالها دونما تمييز على الدببة ووحيد القرن أيضاً. وعلى الرغم من أنّ ممارسة الصيد بمعاونة الفيلة تقترن بالهند عادة، إلا أنها كانت تجري في إفريقيا أيضاً.

لا يخفى أن استخدام فيل في الصيد أو العمل أو شنّ الحروب، يقتضي أولاً الإمساك به. إنّ أسر حيوانات برية يزن كل منها بضعة أطنان عمل مرهق وخطير. وعبر القرون تغيرت الوسائل تغيراً طفيفاً. فالوسائل الأولى أُخِذت على الأرجح عن وسائل العصر الباليوليتي في محاصرة فيلة الماموث؛ قُدِ الهدف إلى منطقة مستنقعات ثم أمسكه بأنشوطة أو اطعنه بحربة. وكان هذا الأمر يتم أثناء الفصل الممطر، فالفيل الذي أوقعته جماعات من حاملي الحراب في فخّ المياه العالية، ستتعين عليه السباحة في دوائر إلى أن تخور قواه بما يكفي



عمل وحشيٌّ دائما؛ قتل فيل صغير في سيلان.

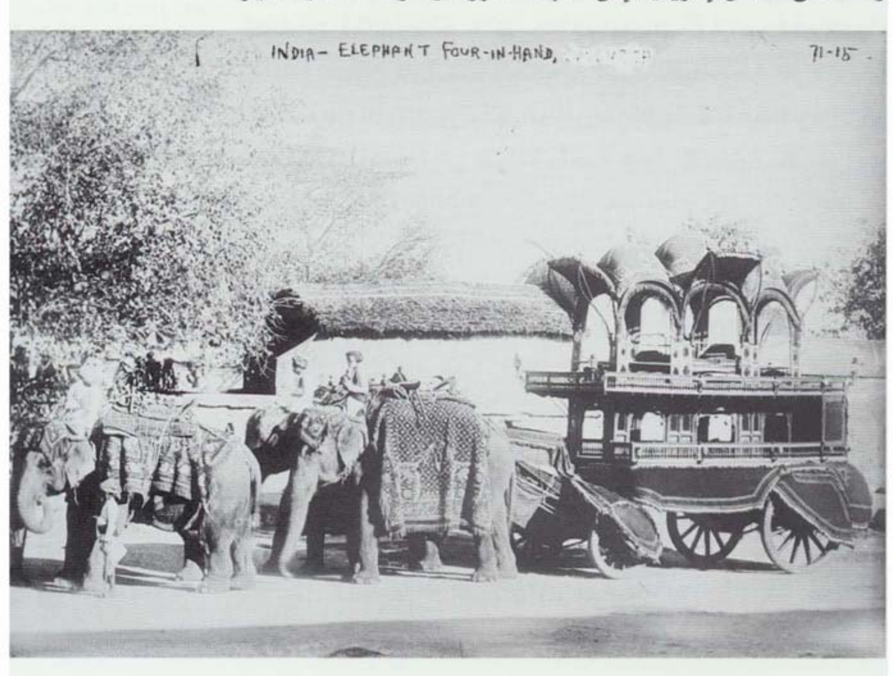
لشدّه بالحبال. لقد عرف عن الإفريقيين والآسيويين على السواء استخدامهم للمصائد في أسر الفيلة، غير أن هذه الطريقة غالباً ما تؤذي الحيوانات أذية مميتة. لقد كانت طرائق الصيد بالأنشوطة متنوعة أيضاً، فالرجال الذين يقومون بذلك راجلين، كان عملهم محفوفاً بأخطار جسيمة صريحة؛ وقد تخصص بعض الناس في هذه الطريقة مثل pannikians، وهم طائفة مسلمة في سريلانكا. وكان الصيد بالأنشوطة بمعونة من الفيلة المروَّضة، وهي عملية ألمح إليها أرسطو بكل وضوح في كتابه «تاريخ الحيوان» Historia animalium وسموها في الهند mela shikar، أي: أكثر أمانا، ولكنه قد يقتصر على فيلة معزولة فحسب.

لقد كانت هناك طريقة أكثر فعالية، وأقل إضراراً، وهي سوق قطيع صغير إلى مكان مغلق مُسيَّج بالأوتاد، حين يمكن تعيين

حيوانات منتقاة وتهدئتها عند ربطها بالحبال، ثم تجويعها وإلحاقها بفيلة مروضة من قبل (تسمى koonkies في الهند). وكانت الإناث في مرحلة الإباضة تستخدم أحياناً لاستدراج الذكور إلى مثل هذه الفخاخ:

يروي المؤرخ آريان (95-175 ب.م) كيف استخدمت الإناث مرة واحدة على الأقل في إغواء بعض الذكور لتقطع جسراً لا يمكنها التراجع منه. وحتى هذه العملية كانت لها مشقاتها؛ فالحيوانات بطبيعتها تحاول الفرار، أو تردّ الهجوم، أو تحاول مساعدة بعضها بعضاً، وتفيد التقديرات أن تسعة فيلة كانت تموت لكي يصل فيل واحد من شمال إفريقيا إلى حلبات الرومان. وهذه عملية تثير

أربعة فيلة تجر عربة في الهند، حوالي 1922.



الغثيان دائماً، حين «يُنتزَع الصغار من أمهاتها، وتضرب الفيلة المروَّضة الذكورَ إذا ما قاوموا الأنشوطات، وتتناطح الفيلة المهتاجة في القطيع نفسه في محاولة مسعورة للنجاة»[lxxiv].

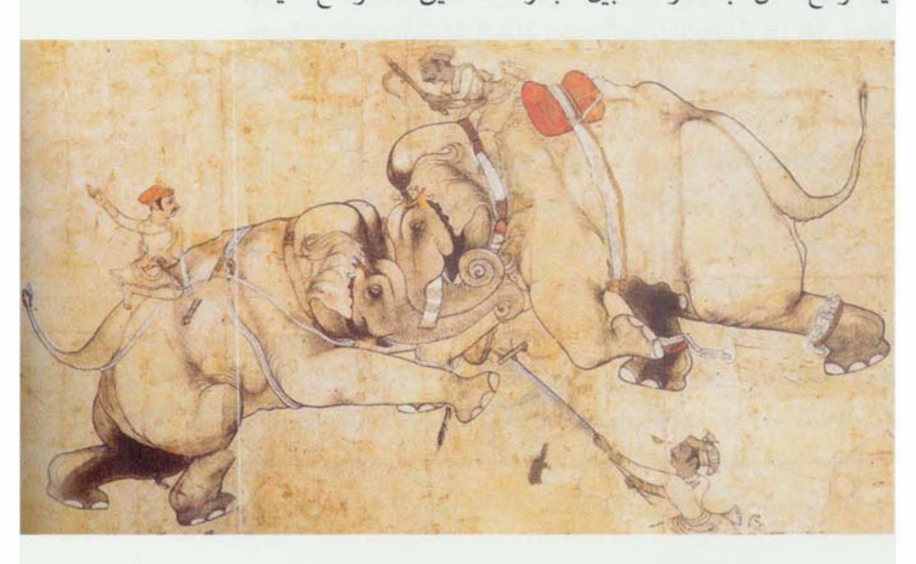
وفي آسيا، ازدادت تقنية تجميع القطيع أو kheddah تطوراً، رغم أنها لا تنجح دائماً. حاول حيدر علي، حاكم مايسور، أن يوقع بالفيلة في الفخ، في تلال بيليغيريرانغان في الهند، ولكنه ترك نصباً تذكارياً يخفف من فشله، علامة حجرية نقشت عليها لعنة تطال كل شخص آخر سواه حاول أن يأسر الفيلة. وفي عام 1873 جاء إلى هذه التلال نفسها شخص اسمه ج.ب. ساندرسون، وأقنع السلطاتِ البريطانيةَ بالسماح له بمحاولة kheddah. أعقب النجاح فشل البداية، ثم جرت محاكاته على امتداد آسيا. واستمر ساندرسون في إدارة kheddahs في بورما، ثم عاد إلى مايسور ليتم تعيينه «المدير المسؤول للمؤسسة الحكومية لصيد الفيلة». وفي الواقع، طور المستعمرون الهولنديون والبرتغاليون طرائق مماثلة أيضاً، إذ تسجّل النماذج التي تعود إلى منطقة واحدة فقط في سريلانكا، من بين سجلات كثيرة، 96 فيلاً أسرت في مستعمرة هولندية واحدة في عام 1666، 270 عام 1681، 160 عام 1690، و400 في عملية أسر إنجليزية عام 1797. لا بدَّ أنّ مئات الفيلة قد شحنت إلى الخارج كنتيجة لهذه العمليات. جرت آخر عملية kheddah في سريلانكا عام 1950؛ فهناك، كما في الهند، حلّت مكانها أشكال أخرى من الأسر ،تمتاز باللطف حيث تعتمد على المنومات الكيميائية.

وقد يستغرق ترويض فيل فتيٍّ، كان فيما مضى صعب المراس ومؤذياً أيضاً، بضعة أسابيع إذا ما تم الترويض برهافة. كما تم تطوير التربية أيضاً، على الرغم من أن الطرائق الحديثة هي نسبياً أقل إيذاء للروح عما كانته في الماضي. إذ يلزم تدريب لا يستهان به

للتغلب على خوف الفيل من عدو قديم كالنمر أو الأسد، من العصر الذي استحوذت فيه النمور ذات الأنياب الحادة على صغار الماموث، إلى بوتسوانا في الزمن الحديث، حيث انفردت جماعة من الأسود بقتل حتى الفيلة البالغة، فهذه القطط الكبيرة كانت على الدوام العدو الأساسي للفيل، والإنسان مستثنى هنا بالطبع. ومن المفارقة أنَّ التدريب يعتمد بشكل دائم تقريباً على علاقات ذات ألفة فريدة بين الفيل ومدربه، اسمه mahout في الهند، وoozie في بورما، ومزيج حكيم من مكافأتها بالطعام ونخزها بالعصا في حوالي 85 مركزاً عصبياً معروفاً. وفي نهاية المطاف، يمكن إطلاق معظم الأوامر شفوياً أو بأقلّ الحركات التي يقوم بها جسد الراكب على كتفي الفيل.

ولا يعني هذا أنّ تلك الحركات كانت فعّالة دائماً في خضمّ المعركة. فالجميع يعرف قصة هانيبال وفيلته الحربية، إلا أنّه كان في الواقع الأقلّ نجاحاً وشأناً بين الجنرالات الذين تعاملوا مع الفيلة،

لقد استخدمت الفيلة في الرياضة بدءاً من مجابهات حلبات المصارعة الرومانية إلى لعبة البولو الحديثة. فيلان يتعاركان، كوتا، راجستان، الهند، حوالي 1720.



حيث كانت الصين والهند بشكل أساسي قد سبقتاه إلى استخدام الفيلة في الحروب بألف عام على الأقل.

الفيلة قويّة وعديمة الرحمة كالسيف...
إنها لا تتخلى عن حيواتها بسهولة؛ فلها أجسام عظيمة.
يموت الإنسان أو الحصان بضربة فأس،

ولكن قد ينجو الفيل إذا نالت منه مئة ضربة فأس في المعركة. إنَّ المحارب الذي يترك فيلاً في ساحة المعركة، ليسلك الطريق إلى الجحيم الذي يتربص بقاتل براهما... حيثما تكون الفيلة يكون النصر[lxxv].

هكذا يغالي وصف هندي مبكر يفتقد إلى الواقعية نسبياً مذكور في نصوص الفيدا، وهو يحدد الوحدة العسكرية الأساسية أو patti بأنها تتألف من فيل واحد، وعربة، وثلاثة خيول وخمسة جنود مشاة؛ وقد تتألف التشكيلة النموذجية من 45 باتي إجمالاً. كانت الفيلة تقود الهجوم، مُحدثة البلبلة بين الأعداء؛ قيل إنّ كل فيل يعادل 6.000 حصان.

إلا أنّ حصولَ المواجهات الغربية مع فيلة الحرب الآسيوية هو ما أفضى إلى توثيق كل التفاصيل الكبيرة. وقد بدأ هذا التوثيق في الواقع مع المشاهدات العيانية للاسكندر الكبير (336-323 ق.م) ومقارعته لفيالق فيلة بوروس الآسيوية في معركة هيداسبس. وكانت مواجهة الاسكندر للفيلة وجيزة في غوغاميلا (331 ق.م)؛ وبعد انقضاء خمس سنوات، امتلك هو مئة فيل، على الرغم من أنّها لم تكن قد دُرِّبت على المعارك بعد. وكما جرت الأمور، فإنّ فيلة بوروس المئتين لم تنقذه؛ فقد طوقتها قوات الاسكندر، وعزلتها، وبترت خراطيمها، وقتلت سائسيها، وألحقوها بقواتهم «تدعيماً لصفوفهم». قيل إنّ بوروس نفسَه قد همّ بالنزول عن ظهر فيله؛ فأمر السائسُ الفيلَ

بالركوع، فجارته جميع الفيلة في ما فعل، كما لقنت أثناء تدريبها، وهكذا وقعت في الأسر. بل قيل إنّ الفيل قد حاول انتزاع الرماح من جسد الملك، والدفاع عنه في وجه الذين حاولوا تجريده من درعه.

وعلى الرغم من فعّالية الفيلة المحدودة، فقد واصل قادة الحرب اللاحقون المتنازعون الذين تقاسموا فيما بينهم إمبراطورية الإسكندر الآيلة للسقوط، لا سيما السلوقيون والبطالمة، استخدام الفيلة في المعارك. واستخدم الحاكم المسمّى برديكاس الفيلة في إعدام خصومه بسحق رؤوسهم تحت قدم فيل. كما هاجم بطليموس أيضاً على ضفاف النيل، مستخدماً الفيلة في تهديم أوتاد الأسيجة، بل حاول حتى استخدامها في رتل يقف حائلاً أمام مياه النهر، إلا أن التيار جرفها، والتهمت التماسيح كثيراً منها.

لم يكن هناك بدٌّ من شروع قادة متنوعين بتطوير تقنيات مضادة للفيل؛ فعندما حاصر كاساندر بولبرخون في ميغالوبوليس، استُخدِم نوعٌ من حقل الألغام البدائي بوضع ألواح غرزت فيها المسامير كي تخرق أقدام الفيلة، فتشلها بذلك وتجعلها مكشوفة أكثر لرماة السهام. وقد قام بطليموس بشيء مماثل في مدينة غزة مدخل مصر، عندما تعرض للهجوم عام 312 ق.م. ولاحظ الكاتب ديودروس أنّ الفيلة «تظهر على الأرض السهلة واللينة قوة لا تضاهى في الهجوم المباشر، غير أنّ جبروتها عديم الجدوى في الأرض الوعرة والقاسية بسبب طراوة أقدامها». ومن هنا، وعلى الرغم من استمرار الفيلة في تأدية دور ما في مختلف المعارك، فقد كان حضورها الحاسم نادراً، وكثيراً ما استخدمت في بثّ الرعب أكثر من الهجوم الفعلي. ويبدو أنّ هذه كانت خدعة بيرّوس الشهير ملك إبيروس، عندما أدخل الفيلة إلى إيطاليا، وقد قام ماكولي بتخليدها لاحقاً في الشعر:

سيجابهك الإغريق يا فاتح الشرق؛
فإلى جواره ينخرط في القتال

الوحش الضخم الذي يزلزل الأرض،
الوحش الذي تنتصب فوقه القلعة
بكل حراسها،
الوحش الذي له بين عينيه،
عوضاً عن اليد، ثعبان.

ربما قام بيرّوس بأطول نقل بحريّ للفيلة حتى هذا التاريخ، عندما عبر البحر الأدرياتيكي إلى تارنتوم مصطحباً عشرين حيواناً عام 281 ق.م. وباستخدامه لها قلب كفة المعركة لصالحه ضد الرومان الذين تعوزهم الخبرة في هيراكليا، وفي أبوليا مرة أخرى عام 279 ق.م. وفي معركة أخيرة جرت في بينيفينتوم، قيل إنّ ما تسبب في هزيمته فيل صغير فقِدَ أو تعرض للأذى مما أفقد أمه صوابها. وبعد طرده من إيطاليا، واصل بيرّوس استخدام الفيلة في مغامرات إسبرطية ويونانية متنوعة، ومن ضمنها حصار آرغوس. وفي هذا الوقت، يبدو أن استخدامَ الأبراج المنصوبة على ظهور الفيلة، والتي تأوي رماةَ سهام مدرعين، قد بلغ أوجه؛ ففي هذه الحالة، كانت بوابات المدينة واطِئة للغاية كي تسمح بدخولهم، فتوجب عليهم تفكيك الأبراج ثم إعادة تركيبها في الداخل. وتسبب هذا التأخير بسقوط بيرّوس؛ فقد علق في مظلة أحد السقوف فقطع رأسه على الفور. وعندما أحرق جثمانه، كما قال الرحالة باوسانياس بعد 400 سنة-،نصِب له ضريح يحمل نقوش فيلة نافرة.

كان أنتيوخوس مؤيداً آخر للفيلة الحربية، ففي عام 275 ق.م فاجأ الغاليين الغافلين بهزيمة نكراء، ولكنه عنّفَ قواته قائلا: «يا للعار، يا رجالي الذين جاءتهم بالخلاص هذه الوحوش الستة عشر. فلو لم تلقِ هيبة مظهرها بالرعب في صفوف العدو، ماذا كان سيحل بنا؟». وعندما غزا سورية بعد نصف قرن تقريباً، وجد فيلته في مواجهة فيلة أخرى. كتب بوليبيوس عن معركة رفح:

أعداد قليلة فحسب من فيلة بطليموس انخرطت في قتال قريب مع خصومها، وقام الرجال في الأبراج المنصوبة على ظهور هذه الوحوش بمناورات قتالية بارعة، وهم يتبادلون الطعنات برماحهم (sarissas) في قتال قريب، ويضربون بعضهم بعضاً، بينما كانت الفيلة نفسها تتقاتل ببراعة أكبر منهم، مستخدمة قوتها كلها في النزال، وهي تدفع بعضها بعضاً جبيناً لجبين... بأنيابها التي انعقلت وتشابكت تشابكاً شديداً كانت تتدافع بكل جبروتها، كلٌّ منها يحاول إرغام الآخر على التنحي، إلى أن يزيح الأقوى خرطوم الآخر، وعندها، حين يجبره على الالتفاف، يخرقه بنابه...[lxxvi]

وكانت الحصيلة هي الهدنة، وكما تعلّموا مراراً، فإن الفيلة نادراً ما حسمت معركة. لقد استخدم أنتيوخوس أيضاً الفيلة في نزاعه المستمر مع اليهود، وفي عالم العمليات العسكرية نفسها، كما سجل في كتاب ماكابي الأول، تقدم يهوذا من خيمة السوريين الملكية التي تذود عنها الفيلة:

كانوا يحضُّون الفيلة على القتال بشرب عصير العنب والتوت. ثم يوزّعون الوحوش العظيمة بين الكتائب؛ فيضعون وراء كل وحش ألفَ رجل مسلح بدروع من الزرد وخوذ من البرونز. كما كان يحدَّد لكل حيوان خمسمئة خيّال شديد البأس. وكان هؤلاء يوضعون في المقدمة أمام الوحش؛ وأينما ذهب ذهبوا معه ملازمين إياه أبداً. كان لكل حيوان برج خشبي متين مثبت إلى ظهره مع عتاد حربيّ خاص، من باب الحماية، وكان يحمل أربعةَ مقاتلين بالإضافة إلى سائس هندي.

أخطأ أليعازر شقيق يهوذا، فحسب أن فيلاً مزيناً تزييناً باذخاً، هو فيل الملك، فهرع تحته وطعنه في بطنه، فتهاوى الحيوان فوقه وسحقه.

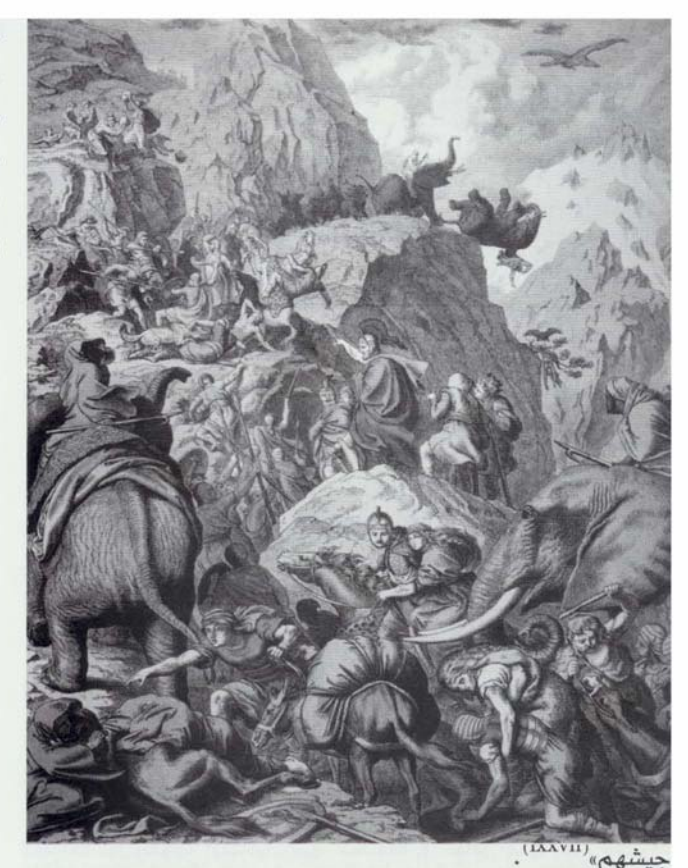
وما إن انسحب بيرّوس من إيطاليا حتى أصبحت النزاعات الإقليمية الرئيسية بين الرومان والقرطاجيين. لقد واجهت القوات القرطاجية القادمة من شمال إفريقيا فيلة بيرّوس في صقلية، واتبعت الطريقة نفسها. وربما للمرة الأولى، أسرت الفيلة الشمال إفريقية ودرّبت على غرار أقرانها الآسيوية، على الرغم من مرور وقت طويل على صيدها، وخلافاً للمعتقدات الشعبية، كانت هذه الفيلة أقل (أو أكثر) طواعية.

وأفلح زانتيبوس في استخدام الفيلة كي يعجّل بانسحاب الغزو الروماني،أما القادة القرطاجيون هاسدروبال وهانو وهاميلكار فجميعهم قد استخدم الفيلة، وإنْ كانت النتائج متضاربة؛ فقد خسر هاسدروبال قطيعاً صغيراً أمام ميتيلوس الروماني، الذي أعاد فيلته الأسيرة عبر مضايق مسّينا على متن قوارب غطيت أرضها بالتراب. ولكن كما يكتب هـ. هـ. سكولارد في دراسته الكلاسيكية عن هذه الحقبة، «الفيل في العالم الروماني واليوناني»، «هناك شيء واضح مُفاده: لقد كان جلياً قرار الرومان بتأمين سلاح ذي حدين يتبناه



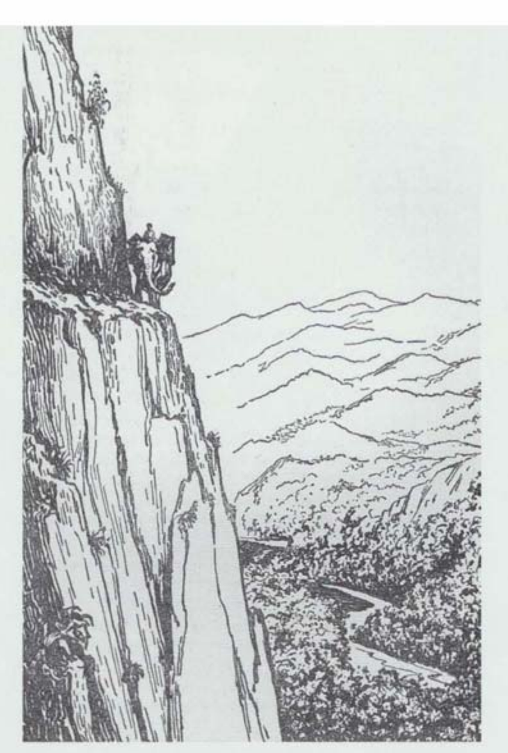
قام هنري بول موت، حوالي عام 1890، بتصوير القرطاجيين وهم يأخذون الفيلة إلى معركة زاما عام 202 ق.م.

عالج هـ. ليوتيمان بطريقة دراماتيكية عبور هانيبال جبالَ الألب في محفورة خشبية ملونة، حوالي عام 1865. والحقيقة، بالطبع، هي أنه لم يسقط أيّ فيل.



جيشهم»(LXXVII).

ومع إقدام القرطاجيين على غزو إسبانيا عام 221 ق.م، قطع هانيبال الشهير نهر الرون مع 37 فيلاً، وخدع قوات سيبيو المعادية، وسلك نهجه المشهور عبر جبال الألب، عبر طريق كلابييه الذي يبلغ ارتفاعه 8.143 قدم (2.450 متر). وعلى الرغم من انزلاق أرضيٍّ أعاقه طوال ثلاثة أيام من الثلج، فقد عبر إلى شمال إيطاليا من دون أنْ يخسر فيلاً واحداً. إلا أنه بخوضه معركة على نهر تريبيا، لم ينجُ



ج.هـ. وليامز ينجو من بورما مع فيلته عام 1943، صورة توضيحية مأخوذة من كتابه «الفيل بيل» (1954).

من فيلته تلك إلا سبعة فقط. وقد استمر هانيبال في القتال خاسراً المزيد من الفيلة في برد جبال الأبينين، علاوة على أنَّ الحصار ازداد تطويقاً له جنوب إيطاليا. وفي محاولة لا طائل منها كي يجيره، استخدم هاسدروبال الفيلة، غير أنّها في معركة في وادي ميتوروس، أثارت الرعب وتسببت بفوضى شديدة لكلا الطرفين. وآخرُ الفيلة المسكينة التي نجت من عبور هانيبال لجبال الألب، قتلت على يد سائسيها الذين دقّوا بالمضارب الأزاميل في أعناقها. وبعد اندلاع الحرب البونيقية الثالثة بخمسين عاماً، لم يكن قد بقي بحوزة القرطاجيين أي فيلة على الإطلاق.





استخدم يوليوس قيصر، وكثيرون سواه من الرومان، الفيلة على النقود ترميزاً للسلطة؛ تظهر هذه الصورة الإمبراطور كوينتوس كايسيليوس ميتيلوس بيوس، حوالي 81 ق.م.

غير أن مسير هانيبال يبقى القصة الكلاسيكية في مغامرات الفيلة الحربية. وعندما تعين على ج.هـ. وليامز عام 1943، وهو «الفيل بيل» الشهير والمنظم رقم واحد للفيلة في مستعمرة بورما، القيامُ بفرار ملحمي إلى الهند برفقة نساء وأطفال وفيلة، قبيل الغزو الياباني، قام بعقد مقارنة صريحة بين مسيره عبر الجبال الوعرة وبين مسير هانيبال. وفي سبتمبر 1979، قام بعض مالكي فيلة السيرك الجريئين مع حيواناتهم بتكرار مأثرة هانيبال، ووجدوا في الهبوط من معبر كلابييه الجزء الذي تحدّق به أشدّ المخاطر.

لقد رغب الرومان بدورهم، في حيازة بعض الفيلة، إلا أنّهم قلما استعملوها في المعارك. فقد تداولت الإشاعات أنّ يوليوس قيصر قد أدخل فيلاً إلى بريطانيا، واعتقد بعضهم أن كلمة قيصر كانت في الواقع كلمة مَغربية تعني الفيل، ولكن يبدو هذا الاحتمال مستبعداً. غير أنّ المؤكد، على أية حال، هو عودته إلى روما بحاشية تضم موكباً ظافراً من أربعين فيلاً؛ وكانت له، على غرار العديد من أسلافه، نقود مسكوكة، استخدمت فيها صور الفيل رموزاً للسلطة الإمبراطورية. إلا أنّ مظهر السلطة الرومانية الأساسي يكمن في استخدام الفيلة سيئة الطالع في تسليات حلبات المصارعة المتنوعة والدمويّة عادة، أكثر من استخدامها في المعركة. كما كتب ليفي بإيجاز بليغ «elephantomachae nomen tantum sine usu fuerunt» أي:

«كانت الفيلة المحاربة مجرّد اسم يخلو من أي تأثير عملي».

إنَّ اختفاء الفيلة من الوعي الأوروبي، ما بعد عصر الرومان، بالإضافة إلى السحر الذي تمارسه الفيلة بوصفها آلات حرب، ينعكس بعد وقت طويل في فانتازيا ج.ر.ر. تولكين «سيد الخواتم»، حيث يتلو القزم سام Sam the hobbit قصيدة مضحكة عن «oliphaunts»، التي أصبحت في مجتمعه مخلوقات أسطورية تماماً. لقد اشتق تولكين هذا الاسم، بلا ريب، من كلمة وُجِدت في إنجليزية القرون الوسطى، وهي olifant أو olifaunt، وقد تعني الفيل وبوقاً مصنوعاً من عاج الفيل في آن معاً، واستخدم أشهر مثال عنها، تأخر الوقت كثيراً كي ينفض هذا القتال، في رونسيفال في جبال البيرينيه عام 778 م، على لسان البطل الذي تضرب به الأمثال في «أنشودة رولان» Chanson de Roland. وفي ملحمة تولكين، يواجه الأقزام المغامرون فيما بعد حيوانات oliphaunts حقيقية وأخرى شبيهة بالماموت mûmakil تحمل، مثل نسخها الأصلية في الحياة الواقعية، أبراج حصار ومحاربين «بسيقان كبيرة كالأشجار، وآذان كبيرة مفرودة كالأشرعة، وخرطوم طويل مرفوع مثل ثعبان ضخم يوشك على البطش»(lxxviii). ويصدمنا تولكين، بترديده صدى العالم الحقيقي مرة أخرى، بمرثية في الكتاب الأخير من ثلاثيته، عن اختفاء هذه الوحوش الهائلة من «الأرض الوسطى».

بيد أنّ استخدام الفيلة كمكوّن حيوي في التشكيلات الحربية قد استمر في الشرق، فقد كان الملك الأبرز في الإمبراطورية الساسانية أو الفارسية العظيمة الثانية، شابور الثاني، (حكم بين عامي 309-379 ب.م)، قد استخدم الفيلة ضد الرومان وكي يسحق تمرداً مسيحياً في مدينة سوسه التي سوى بها الأرض. وعندما هاجم تيمورلنك ومغوله مدينة دلهي عام 1398، لم يواجه 30.000 من جنود المشاة الهنود

فحسب، وإنما واجه أيضاً كتيبة مخيفة من الفيلة الحربية؛ إلا أنه أبادها بإطلاقه جواميس وجمالاً حمِّلت بالقش بعد أن أضرم فيها النيران، فهرعت بين الفيلة التي انتابها الهلع طبعاً. كما استخدم بابور (1483-1530)، مؤسس سلالة المغوليين في الهند، الفيلة إلى جانب فرسانه، وترك سيرة ذاتية لافتة مكتوبة باللغة التركية، هي البابورناما Baburnama، وتضمّنت فصلاً يزخر بالمعلومات عن الفيلة الآسيوية. أما «أكبر» حفيد بابور الذي حكم بين عامي (1560- 1605) فقد فاقت شهرته شهرة جده في مهارات ترويض الفيلة، زاعماً أن الله قد أنعم عليه بموهبة التعامل حتى مع الذكور المهتاجة جنسياً «التي قتلت سائسيها وفتكت بالإنسان». إن «أكبرناما» Akbarnama، التي كتبها أبو الفضل، تلهج بمدائحه:

وحين عمَّ الرخاء الهند إثر قدومه المجيد، أولى «أكبر» اهتماماً خاصاً بالفيلة، وهي حيوانات رائعة شكلاً وسلوكاً. لن أفلح في محاولتي إذا ما قارنت حجمها بجبل... ولن أفصح عن الحقيقة إذا ما قارنت بصيرتها وذكاءها وحكمتها بالحصان[lxxix].

لقد ورث «أكبر» في عهده آلافاً من الفيلة الداجنة والأسيرة. كما ترك بعضاً من المنمنمات الملونة البديعة التي تصور فيلته أيام الحرب وأيام اللهو؛ لقد اشتهر على الأخص بإخضاعه لحصن ندّه المسلم أوداي- سنغ في تشيتور، عام 1567، وإخضاع رانثامبور بعد ذلك بسنتين، مستخدماً الفيلة في كلتا الحالتين. إنها رمز سلطته الأساسي، كما سجل أبو الفضل:

كان أضخم الفيلة الإمبراطورية وأقواها يحمل لقب «القائد الفيل». وعندما يظهر في البلاط مزيناً بتلك الغلالات النفيسة، كان ينتظره في احتفال عظيم مهيب، رتل من الفيلة، ويحيونه بالصنوج والأبواق والنايات، واستعراض عظيم من البيارق...[lxxx]

فيل يرافق المحاربين إلى المعركة، في نقش حجري نافر في بيلور-هاليبيد، يعود إلى إمبراطورية هويسالا، جنوبي الهند، حوالي 1200.



فيل حربيّ في نقش حجري نافر، آنكور ثوم، كمبوديا.

واعتباراً من ذلك الوقت، بدا أنّ حضور الفيلة قد تكرّس بين المغوليين بصفتها زينة احتفالية أكثر من كونها آلات حرب، حتى وصول البريطانيين إلى الحكم. وكانت الجيوش أيضاً تستخدم الفيلة الحربية أحياناً في أقصى الجنوب في سيلان أو سريلانكا، اللتين وفرتا الفيلة للملوك الشماليين منذ عصر الإسكندر. فالتاريخ الملكي السيلانيّ يروي قصة كاندولا، وهو فيل حربي لا غنى عنه في صدّ هجمات الغازي إيلالا القادم من التاميل، جنوب الهند. يقال إنّ كاندولا قد أسقط

برأسه بوابات حصن إيلالا، وصُدّ كاندولا مؤقتاً بالقار المغلي وكرات الحديد المحمّى، فذهب إلى بركة ماء ليبرد جراحه قبل أن يعاود الهجوم بطاقة تجددت، ليفلح أخيراً في تحطيم الأبواب.

أما الشرق الأقصى، بورما مايانمار اليوم والبلدان المجاورة، فلديه ثقافة تخصّ الفيل على درجة عالية من التطور، بما فيها الفيلة الحربية. إنّ المنحوتات على جدران آنكور وات في كمبوديا، ويعود تاريخها إلى مطلع القرن الثاني عشر، تُظْهِر فيلة في المعركة. وفي عام 1283 سحق جيش صينيٌّ من الخيالة تحت إمرة قبلاي خان قواتِ ملك بورما في هزيمة نكراء، وأسر مئات من فيلته الحربية. كما لاحظ الرحالة ماركو بولو الذي ترك وصفاً شيقاً لهذه المعركة، مدى الحضور الطاغي للأفيال في احتفالات المملكة الوسطى في الصين، على الرغم من انقضاء وقت طويل على اختفاء الفيل كحيوان بريّ مقيم من كافة أرجاء الصين تقريباً. لقد وصف ماركو بولو المجلس الحربي الهائل لقبلاي خان قائلا:

كان قبلاي يجلس في هيكل خشبي ضخم، تحمله أربعة فيلة أجسادها مغطاة بدرع من جلد سميك مقسّى في النار، وكان الدرع مغطى بأردية منسوجة بالذهب. وكان هناك نشابون ورماة سهام كثيرون يربضون في الهيكل، وفوقهم ترفرف راية الإمبراطورية.. (lxxxi)

لم ينقطع الزعماء في جنوب شرق آسيا عن استخدام الفيلة، ففي وقت متأخر في منتصف القرن التاسع عشر، كان ملك سيام يمتلك قوة مؤلفة من 400 فيل حربي مدرَّب، مكسوّة بجلد مقسّى ودروع مصفّحة بالحديد، وتحمل على ظهورها مدافع هاوزر صغيرة. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، وفي كل مكان، تراجع استخدام الفيلة كحيوانات تشارك في المعارك، لتحل مكانها باضطراد الأسلحة



لقد تم تصوير الفيلة من حين لآخر وهي تجر المحاريث، ولعل هذه هي الصورة التوضيحية القروسطية الأولى، مأخوذة من طبعة كتاب بليني «التاريخ الطبيعي» Historia naturalis.

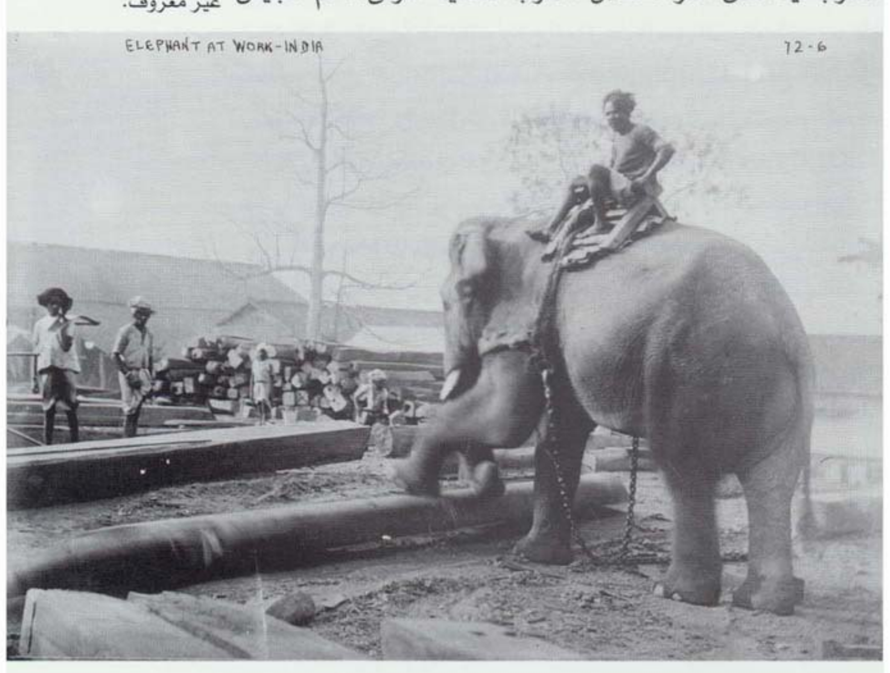
النارية ووسائل النقل الآلية. وربما ما من مثال على هذا الامر أوضح من المثال الذي شهدته حرب 1824، عندما قامت بورما، المتورّطة في النزاعات البريطانية الفرنسية، بمهاجمة أسّام؛ فلم تتمكن فيلتها من مجاراة البنادق البريطانية. ومع ذلك، قبل وبعد ضم بورما بأكملها إلى الإمبراطورية البريطانية عام 1886، كان جميع الأطراف يستخدمون الفيلة كي تحمل البنادق، وتبني الجسور والطرقات، وتنقل البشر في المناطق التي لا تجدي فيها الخيول والمركبات نفعاً. لقد استخدم الجيش البريطاني في الهند الفيلة بطرق مشابهة، بالإضافة إلى نشر الذعر بين القبائل الصغرى، والجدير بالذكر نشر سرية من الفيلة الأنغلو- جوركية على الحدود مع أفغانستان.

ومع تفاقم النزاعات، أكرِهت الفيلة العاملة على العودة بشكل منتظم إلى الخدمة الحربية. فقد وجد ج.هـ. وليامز نفسه، كما يروي في كتابه الكلاسيكي «الفيل بيل»، وهو يستخدم فيلته المخصصة لقطع الأشجار في مساعدة جهود الحلفاء في الحرب ضد الغزاة اليابانيين

الذين استخدموا بدورهم فيالق من الفيلة كي يشقوا طريقهم عنوة في أدغال ماليزيا. فأسروا حيوانات بعضهم بعضاً، ومات الكثير منها أو جرح في تبادل إطلاق النار. لقد استمرت هذه الاستخدامات حتى العصر الحديث، حيث استخدم ملك فييتنام الفيلة في النقل عبر الأدغال أثناء كفاح فييتنام المبكر من أجل الاستقلال، وفي ستينيات القرن العشرين أدّت الفيلة دوراً أساسياً في شق طريق «هوشي مين» الشديد الأهمية بالنسبة لمقاومة فييتنام ضد الهجوم الأمريكي. كما استخدمت القوات الكمبودية الفيلة ضد الفيت كونغ الحركة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام.

لقد وجد أفراد غريبو الأطوار أيضاً أنفسهم مستغرقين في مسارح الحرب في مكان آخر؛ فخلال الحرب العالمية الأولى، قام الجيش

فيل يعمل في نقل جذوع الأشجار في الهند، التاريخ غير معروف.



الألماني بتجنيد فيلة هندية جلبوها من حديقة حيوان هاغنبك في هامبورغ. فرزت «جيني» إلى الجبهة الفرنسية، حيث قامت بنقل أطنان من العتاد الحربي matériel وأخشاب البناء وساعدت في حراثة الحقول. ونقلت فيلة أخرى من حديقة حيوان هاغنبك إلى بلجيكا، والتقطت صورها وهي تنقل جذوع الشجر عام 1915 من أجل صحيفة «المنجزات العظيمة» (T.P's Journal of Great Deeds)، ثم نشرت تحت عنوان عريض يدق ناقوس الخطر «غابات فرنسا وبلجيكا: كيف تدمرها الحرب». والتقطت صورة فيل آسيوي آخر، «تابع بطريقة غير رسمية لإدارة السيد لويد جورج»، على شبكة سكك القطارات الكئيبة في شيفيلد، وهو يتنكب آلة مربعة الشكل.

وفي الواقع، إنّ هذا النوع من العمل هو العمل الذي استخدمت فيه معظم الفيل الحية؛ نقل الأشياء الثقيلة، ولا سيما جذوع الأشجار، وشقّ الطرقات في مناطق الجبال والمستنقعات. واستخدم الحكام الأوائل الفيلة في حمل المواد التي تلزم مشاريعهم التعميريّة المكلّفة. فعلى سبيل المثال، يقال إن تيمورلنك قد سخّر زمرة دائمة من 95 فيلاً أثناء بناء المسجد في سمرقند. إلا أنّ أكثر ما يعرف عن الفيلة هو مشاركتها في تدمير مأواها الطبيعي أثناء الحكم البريطاني لجنوب شرق آسيا. فهناك على امتداد سيام وبورما وسومطرة، كانت عمليات قطع الأشجار الإمبريالية، ومن ثم المتعددة الجنسيات، هي المسؤولة عن تجريد مئات آلاف الأميال المربعة من غابات الخشب القاسي. ففي عام 1900، كانت مساحة غابات الشجر القاسي الاستوائية، تقدر بحوالي 250 مليون هكتار، وتقلصت الآن إلى ما يقل عن 60 مليون هكتار، وهذا الرقم يتضاءل. ولولا مساعدة الفيلة لما تمَّ إنجاز الكثير من الأشياء. سجّل ج.هـ. وليامز أن فيلاً من فيلته التي تقطّع الأشجار اسمه باندولا، قد حمل في موسم واحد «ثلاثمئة طن من

خشب الساج مسافة تقدر وسطياً بميلين من مكان قطع الأشجار إلى الجدول الجاري»(lxxxii). لقد قطنت مئات الألوف من الفيلة البرية غابات آسيا في مطلع القرن العشرين، أما اليوم فعددها يقل عن 35.000. وفي الوقت نفسه، وبالمقارنة مع الفيلة المروَّضة التي بلغ عددها 100.000 في تايلاند عام 1900، لم يبقَ هناك إلا 4.000 لا تزال تعمل، على الرغم من توافر فرص جديدة من حين إلى آخر. وهناك ضغطٌ إضافي يتمثّل في نسبة التناسل المنخفضة للغاية بين الفيلة الأسيرة، ولذلك السبب لا تزال الاستعاضة عنها تجري من خلال فيلة البراري.

وأيّاً كانت مشقات دحرجة وجرٍّ جذوع الشجر الضخمة، قد يصل وزن بعضها إلى أربعة أطنان، فإنّ حيوات الفيلة التي تعمل في قطع الأشجار لا تعاني من حرمان تام. وفي أحسن الأحوال، فإنها تلقى الرعاية والاهتمام، وتعمل ساعات محددة، وتحصل على وجبات إضافية من كرات الرز الممزوجة بالدهن وقصب السكر والخبز، وتمضي ساعات بصحبة سائسيها في أوقات الاستجمام المديدة والضرورية، وغالباً ما يسمح لها بالتجوال بعض الوقت، على الرغم من تضييق الخناق عليها، في مأواها الطبيعي في الغابة. وبالتأكيد، فإنّ الفيلة المُعتنى بها على أحسن وجه، تنعم بوقتها أكثر من أقرانها في حدائق الحيوان الغربية، بل ربما أكثر من محميات ومياتم الفيل المتنوعة التي حاولت أنْ تستوعبَ الأعداد المتزايدة من الفيلة إثر الاستعاضة عنها بآلات قطع الأشجار. لقد وجد رامان سوكومار ثلاثة فيلة عاملة ناهزت عمر 75 عاماً، «وهو أمر مستبعد في حديقة حيوان». كما أنّ التجمعات الأكثر حرية في تاميلنادو وميانمار تظهر أيضاً معدلات تناسل أعلى، وانخفاضاً ديموغرافياً أبطأ من أيّ مكان آخر تتواجد فيه جمهرات الفيلة الأسيرة. وعلى العكس من ذلك، تنخفضُ أعداد الفيلة في حدائق الحيوان الغربية، ما لم يتم التعويض

من الخارج، بمعدّل 8 بالمئة، لأنّ تناسلها نادرٌ، وأقلّ من 30 بالمئة منها تتجاوز أعمارها 40 سنة.

ولعلّ المثال الذي سنورده عن المعونة التي تقدمها الفيلة هو الأشهر بين الأمثلة الراهنة، حين ساعدت الحيوانات التايلاندية والسريلانكية في جهود الإنقاذ عندما ضربت أمواج تسونامي سواحلها عام 2004. وبحسب سائسي الفيلة في منتجع كاولاك الساحلي في تايلاند، فقد أطلقت الفيلة «صيحات» غريبة قبل حدوث تسونامي، ثم ركضت تلوذ بالتلال، متوقفة فقط كي تنتشل بعضاً من السياح الفارّين. وتكتنف شكوك كثيرة القصص البطولية التي تتناول تفاني الفيلة وهي تهرع بالناس إلى برّ الأمان. وقد لاحظ العلماء أنّ الفيلة المزوّدة بأطواق لاسلكية، والقريبة من الشاطئ في حديقة يالا الوطنية في سريلانكا، لم تبدِ أيَّ ميل للتحرك باتجاه الداخل عند وصول تسونامي. ولكنْ قليلة هي الأسباب التي تدفعنا للشكّ بأنّ فيلةً كثيرة، إلى جانب الطيور والكلاب، قد أظهرت إحساساً ما بتحول خطير. وعلى أية حال، لقد أثبتت الفيلة فائدتها في أماكن مختلفة بمساعدتها على إزالة الأنقاض والبحث عن الناجين، قبل وصول آلات الرفع الميكانيكية.

وفي عام 2003، قدّر سوكومار أنّ هناك ما يتراوح بين 14.500 و15.000 فيل، أي ما يقارب ثلث المجموع الكلي للفيلة الآسيوية، تعيش في أشكال مختلفة من الأسر في بلدانها، ويمكن تقسيمها تقريبياً على النحو التالي: ميانمار 5.000، تايلاند 4.000، الهند 3.500، لاوس 1.350، كمبوديا 300، سومطرة 362، سريلانكا 227، نيبال 171، فييتنام 165. وكما ألمح مارك شاند في كتابه «ملكة الفيلة»، في وصفه المفعم بالحياة لمسير فيل يقطع الهند مع سائسة فاتنة اسمها بارباتي بيهار، أنّ الفيلة (والسلطات) في كل مكان محكومة بمأزق لا حلّ له. فمع تناقص الطلب على الفيلة الأسيرة، ازدادت أعداد الفيلة

البرية، ولكنّ مأواها الطبيعي لا يزال ينحسر، مما يفاقم صراعها مع البشر. وببساطة فإنّ الأمكنة التي تعيش فيها الفيلة تَقلُّ شيئاً فشيئاً، سيّان الأمر في الفيلة البرية أو الأسيرة. وربما هناك حوالي ألف فيل آسيوي خارج آسيا يتدبر كل منها حياته في حديقة حيوان أو في السيرك، حيث تقدر إحدى المنظمات أن هناك 90 فيلاً في حلبات السيرك الألمانية وحدها.

وإذا بحثت على موقع غوغل عن «الفيلة في السيرك» فستواجهك فوضى من المواقع التي تهاجم الإساءة إلى الفيلة، وقلما تصادف موقعاً يدافع عن استخدامها. وهناك خيطٌ رفيعٌ مثيرٌ للجدل يفصل بين تزيين الفيلة في المواكب المنظّمة في العبادة الدينية وبين تزيين الفيلة بغاية التسلية في حلقة سيرك، أو استخدامها في لعبة «بولو فيلة». إلا أنّ إرغامَ الفيلة في الغرب على اتخاذ وضعيات تعذبها، كالتوازن على رؤوسها، أو على الدراجات، أو على مقاعد صغيرة، قد بلغ ذروة الاستغلال. ومما لا شكّ فيه أنّ هذا الاستغلال قد بدأ مع الألعاب الرومانية، حيث كان يُزَجُّ بالفيلة في نزالات مع المصارعين أو الأسود أو مع بعضها بعضاً، لإمتاع الحشود المتعطشة إلى الدماء في السيرك العظيم Circus Maximus. ولكن حتى آنذاك، وإذا ما صدّقنا رواية بليني التي تعود إلى القرن الأول ق.م، كانت طلعة فيل جسور تجعل الحشد يقف على رؤوس أصابعه في ضوضاء ملؤها الاستحسان. كما دوّن بليني أيضاً أنّ الفيلة كانت تلقّن الرقص، والتوازن على حبال مشدودة وقذف الحصى.

لقد كان الأمريكيون المسؤولين الأوائل عن الاستعراضات المسرفة في مشاهد السيرك الحديث، وقد بدأت بداية رمزية «بسرقة» سيئة الصيت، قام بها ب.ت. بارنوم ليختطف الفيل اللندني «جمبو» عام 1882، ولم يعمر جمبو المسكين طويلاً، إذ مات عن عمر 25 عاماً في حادث قطار. لقد كثرت حلبات السيرك وصولاً إلى القرن العشرين،



ملصق فرقة الفيل النحاسية، في سيرك رينغلينغ براذرز، حوالي عام 1899.

وبمستطاعكم أنْ تشاهدوا على الإنترنت عدداً هائلاً من مقاطع الفيديو المصوَّرة المثيرة للغثيان وهي تتناول مدربي سيرك يرغمون الفيلة على تأدية الطاعة باستخدام عصا الفيل المعقوفة (ankush)، أو منخس كهربائي لسوق الماشية، أو قضيب حديدي بسيط. ومن الحالات التي اشتهرت مؤخراً كانت «نجاة» جانيت، وهي فيلة سيرك مذعورة ركضت «مسعورة» في بالم باي، في فلوريدا عام 1992، وعلى ظهرها أمٌّ وخمسة أطفال، قتلها ضابط شرطة مرور، بتسديد 34 طلقة عشوائية عليها، والحالة الأخرى هي مجموعة سيرك رينغلينغ براذرز التي استدعيت إلى المحكمة عام 2006 بتهمة الإساءة إلى الفيلة. كما قتل حوالي 40 أمريكياً، معظمهم من المدربين، من قبل فيلة أسيرة مشكوك في حسن ترويضها ناهيكم عن سائسي فيلة آسيويين كثر[lxxxiii]. أما المثال الأكثر عبثية مؤخراً، فكان مثال

فريدريش رايزفيلد في بادربورن في ألمانيا، الذي أطعم فيله ستيفان المصاب بالإمساك 22 جرعة من الملينات الخاصة بالحيوان، والعليق وكميات كبيرة من الخوخ المجفف، قبل أن يلجأ إلى حقنة من زيت الزيتون أدت عملها بغتة، لينطمر الحارس المشدوه ويختنق تحت 200 رطل من الروث.

إن السردَ المطول للأمثلة المذكورة قد يروق للمناصرين لحقوق الحيوان أكثر من إظهاره مدى المشكلة الحقيقية. وخلص أحد الباحثين، على الرغم من ملاحظته أن الممارسة التقليدية لتقييد الفيلة أو ربطها قد أسفرت عن نسب أعلى من السلوك النمطي وعن المزيد من الأداء المليء بالأخطاء، إلى القول: إنّ الفيلة تعامل معاملة حسنة مثل أنواع أخرى في الاسطبلات أو الوجار(lxxxiv). وهذه الملاحظة تتجاهل بالطبع الفروقات الهائلة بين الفيل وبين كلب أو حصان. ويبدو أنّ هناك حججاً واهية تدفعنا إلى الشك في أنَّ مشاهد السيرك تكاد لا تخدم أيّ غرض تعليمي، وأنّ الفيلة المسافرة، المضطرة إلى تأدية خدع مهينة لا تناسب طبيعة جسمها، والمقيدة بالسلاسل أو داخل أقفاص في أوقات راحتها، والمحتجزة ساعات طويلة على الطريق، إنما تعيش حياة بائسة نسبياً إنْ قورنت بحياة مثيلاتها في البراري.

وقد حاولت بعض حلبات السيرك على الأقل تطوير طرائق أكثر إنسانية لكسب طاعة فيلتها. لقد أصبح رالف هيلفر، على سبيل المثال، مدرباً للحيوانات معروفاً، في 5.000 فيلم هوليوودي مدهش. فقد اعتمد اللطافة والمكافأة كوسائل أساسية حتى في تدريب الأسود والفيلة. إنّ كتاب هيلفر «مودوك»، والفيلم المأخوذ عنه من بطولة كيفن كوستنر، ليس بالضبط «القصة الحقيقية لأضخم فيل عاش على الأرض»، كما يزعم عنوانه الفرعي. فقد لاحظ صحفيٌّ نبيه



دعاية حفل موسيقي تصور «جمبو» الشهير من سيرك بارنوم، حوالي عام 1882.

أنّ رينغلينغ براذرز التي اشتغل معها هيلفر حيناً من الوقت كانت لديها ثلاثة فيلة على الأقل باسم مودوك، ولم يعش أيّ منها طويلاً. ومع ذلك، فإن مودوك، كرواية، تستدرّ الدمعَ وقد شجّعت عدداً من القراء على القيام برحلة إلى محميّة الفيل الحقيقية في هوهنوالد في تينيسي، التي يسهم هيلفر فيها أيضاً. لقد اشترى هيلفر، من بين آخرين، فيلة خطرة وأسيئت معاملتها اسمها مستي وأخذها إلى هوهنوالد، وقصتها تذكرنا بقصة «مودوك»، فقد نقِلت أيضاً من سيرك إلى سيرك، قبل عثورها على ملاذ في هوهنوالد. إنّ هوهنوالد التي تبلغ مساحتها 2.700 فدان، واحدة من الأمكنة القليلة في أمريكا حيث تستطيع الفيلة المطرودة من السيرك وحدائق الحيوان أنْ تقصدها، وتعيش ما يشبه حياة حرة.

لقد نشأ عدد لا يستهان به من محميات الفيلة، في الغرب وفي آسيا على السواء، كي تأوي الفيلة اليتامى وتلك المتقاعدة إثر تناقص أعداد معسكرات قطع الأشجار وحدائق الحيوان. وحتى في هذه المحميات، يصعب تحاشي الإحساس باستغلال الفيلة من أجل التسلية المحضة. أياً كانت النقاشات التي تقول باستيفاء المقاصد التربوية والمحافظة على الأنواع، أو بإعالة الفيلة نفسها بنفسها. وأحد الأمثلة هو فرقة الفيلة للعزف على الكسيلوفون، قام بتأسيسها كل من ريتشارد لير وديفيد سولدجر في مركز تايلاند للمحافظة على الفيل: اشترِ القرص المدمج! وفي زعمهما أنّ الفيلة تختار النوتات الموسيقية بنفسها. وبالمناسبة، ليس هذا بالجديد؛ فكاتب المقال الفرنسي العظيم مونتيني في مقاله «ذريعة ريموند سيبوند»، يذكرنا بأن المؤرخ أريان، الترجمة هنا تمت عام 1603،

يعترض على رؤيته فيلاً عُلق صنجٌ إلى كل فخذ منه، وثُبّت صنج في خرطومه، ولدى سماع باقي الفيلة رنينَ الصنوج قامت ترقص في

حلقة، فتصعد عالياً في حين، وطوراً تنحني تماماً في بعض الرقصات، بحسب ما توجهها الآلة، وكان سرورها بالتناغم عظيماً.... لوحظ أنّ بعض الفيلة قادرٌ على مزاولة دروسها، وبذل الكثير من الحرص والدأب، لأنها تبغض تعنيف السادة لها وضربهم إياها.

وهناك، بالطبع، تكمن المشقّات.

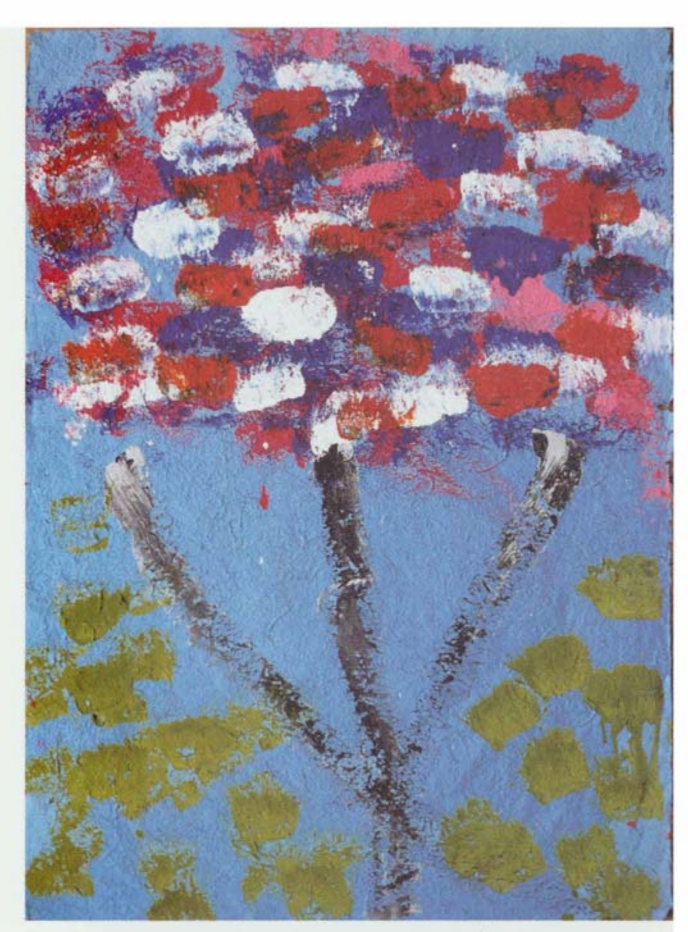
ثمة مثال آخر ألطف بالتأكيد وهو مشروع المحافظة على الأنواع وفن الفيل الآسيوي في تايلاند، يموّل هذا المشروع الاعتناء بفيلته اليتامى تمويلاً جزئياً من خلال التبرعات التي تأتي من بيع لوحات ترسمها الفيلة نفسها- وهي فكرة، كما يصرح بيان المنظمين، توسع «من حدود الفن كعمل خيري، وتطرح تساؤلاً عن آرائنا المتعلّقة بالفنان ومقاصده!»، فبمبلغ 400 دولار يمكنك شراء لوحة مرسومة بمواد غير سامة - ويبدو أنّ الفيلة تعكف على تطوير أساليبها الفردية[lxxxv].

ومن ثمّ هناك كل عمليات «رحلات السفاري على ظهر فيل» التي شهدت مؤخراً ازدياداً كبيراً، فهذا الأمر الذي شاع في آسيا طوال آلاف السنين لا يزال يمثّل تجربة جديدة في إفريقيا. لقد وجدتُ تجربة روحية مذهلة في التواصل مع الفيلة عبر العين والأنامل، في زمبابوي وجنوب إفريقيا كلتيهما، غير أنّ الركوب على ظهر فيل لم يعلمني المزيد، وبدا لي فقط امتداداً آخر لغرور اعتدادنا بتفوقنا وهيمنتنا. وبطريقة تضاهي ما ذكرناه، تقوم الممثلة كاميرون دياز التي تتسنّى لها فرصة رائعة للفت الأنظار إلى قضايا المحافظة على الأنواع، ويبلغ الاستعراض الدرك الأسفل عندما تستخدم الفيلة كخلفية مشهد وعربة تحمل عارضات ألبسة السباحة المؤلفة من قطعتين من أجل مجلة «Sports Illustrated». كثيرون هم من يناهضون الآن رحلات السفاري على ظهر فيل. ولقد واجهت طرائق الأسر تحديات واسعة

صورة مأخوذة من معرض وحوش ياباني، «الفيل»، 1871-1889، بتوقيع كيوساي غا، وختم إيشو كييكو: «طوال حياتي كنت أتمرّن فحسب».



معظم لوحات الفيل هي لوحات «تجريدية».



النطاق، وقال ريك آلان، رئيس وحدة الحياة البرية في NSPCA في جنوب إفريقيا: «من يزعم أنّ هذا النوع من الأسر والتدريب بقصد الاستخدام التجاري يصبّ في مصلحة المحافظة على الفيل، إنّما هو يشطح في ضرب من ضروب الخيال»[lxxxvi]. وشهدت أواخر 2007 قراراً قانونياً مهماً عندما ارتأت محكمة جنوب إفريقية، بناء على

ترسم توكتا، وهي أنثى فيل عمرها 13 عاماً، صوراً أقرب إلى الطبيعية.

دعوى رفعتها وحدة SPCA، أنْ تمنع حديقة سياحية من الحصول على الفيلة وتدريبها تدريباً خاصاً من أجل رحلات «السفاري»، وفي فبراير 2008 أقرّت البروتوكولات الجنوب إفريقية تشريعاً يحظر أسر أية فيلة من أجل استخدامها في السيرك ورحلات السفاري. فهي ليست مريحة تلك الراحة العظيمة، كما سخر ذات مرة الراوي بيتر أوستينوف قائلاً: «هناك حيزٌ على متن دراجة فسبا Vespa أكبر من المساحة الموجودة على ظهر فيل».

وأحياناً لم ينقطع العمل بهذه العمليات المتعلّقة بالفيلة الأسيرة في تلك المواقع الأقدم عهداً المخصصة لأسر الحيوانات، أعني حدائق الحيوان. لقد وجدت حدائق الحيوان، بمعنى من المعاني، منذ آلاف السنوات أيضاً، ومن الطبيعي أنْ تمثل الفيلة بالنسبة لها كسباً عظيماً.

وربما أدرج الفراعنة المصريون الأوائل الفيلة في مجموعات الحيوانات البرية. وربما امتلك الملك سليمان الأسطوري فيلة، حوالي عام 1000 ق.م، فضلاً عن عرشه الباذخ المصنوع من العاج. ومن المؤكّد أنّ آشور بانيبال الذي حكم مملكة آشور حوالي عام 630

ق.م، كان يملك أكثر من فيل واحد في أوائل «حدائق علم الحيوان» المعروفة. كما أرسل الإسكندر الكبير فيلة إلى مقدونيا كي يدرّسها معلمه أرسطو، وكان بحوزة عدد من مدن الدول الإغريقية مجموعاتٌ من الحيوانات يحتمل أنّها قد تضمّنت الفيلة. وحوالي 280 ق.م. بنى بطليموس الثاني مجموعة من حدائق الحيوان في الإسكندرية، وكانت أضخم الحدائق التي عرفها العالم، وكان مرورُ المواكب الاحتفالية



لقد وصلت بعض الفيلة على الأقل إلى اليابان: «فيل كبير مستورد» هو عنوان طباعة خشب على ورق، أنجزها يوشيتويو أوتاغاوا (1830-1866).



بديل بائس عن النهر: فيل في حديقة حيوان أمريكية حوالي عام 1926.

التي تضمّ، عادة، 96 فيلاً يستغرق يوماً كاملاً. كما أسّس الصينيون الأوائل حدائق الحيوان أيضاً؛ فقد أسس وين وانغ الذي حكم حوالي عام 1000 ق.م حديقة مساحتها 1.500 هكتار، أُطلِق عليها حديقة الذكاء أو Lu-Ying. ومع أن الفيلة قد استقطبت الاهتمام الدائم على الأرجح، إلاّ أننا لا نجد دليلاً قاطعاً على وجودها في حدائق الحيوان الصينية إلا مع قبلاي خان، بحسب ما شهده ماركو بولو.

وكما رأينا، فإن الفيلة في الغرب قد تراجعت إلى عوالم الأسطورة تقريباً، إلى أن بدأ استيراد الفيلة الحقيقية من جديد، وكانت في البداية هدايا للحكام من أجل معارض الوحوش الخاصة. ولعل أشهر

هذه الفيلة هو فيل شارلمان الذي أهداه إياه هارون الرشيد، وأعقبته تلك الفيلة التي اقتناها فريدريك الثاني، ولورنزو العظيم، ولويس الرابع عشر، من بين آخرين. وفي أواخر القرن السادس عشر، كان هناك عدد من الفيلة الأسيرة في أوروبا وإنجلترا، تشغل «مكانة ملتبسة بين الحيوان المحارب وحيوان الاحتفالات المهيبة»[(lxxxvii)].

إنّ الانتقال من معرض الوحوش الملكي أو السراي «seraglio» والعروض المتنقلة إلى حديقة الحيوان الحديثة، مشروح شرحاً تفصيلياً من قبل إيريك باراتاي وإليزابيث هاردوين- فيوجييه في كتابهما الممتاز «حديقة الحيوان». وحسبنا القول هنا: إنّ حديقة الحيوان قد وصلت إلى شكلها الحديث فقط في القرن التاسع عشر- أي بصفتها مؤسسة تتلقى تمويلاً شعبياً لا ترمي إلى إمتاع الناس فقط، وإنما تهدف أيضاً إلى المحافظة على الأنواع والقيام بالأبحاث. ومع تكاثر حدائق الحيوانات كالفطر، إلى جانب الثروة المدينية الجديدة والفضول العلمي، ازدادت أعداد الفيلة الأسيرة أيضاً. فقد وضع أعضاء أنظمة المعلومات العالمية الخاصة بالأنواع لائحة تتضمن 100 فيل و378 فيلة في كافة أرجاء العالم عام 2002؛ أما قائمة أحد المواقع الإلكترونية فتضم 296 فيلاً آسيوياً موجوداً في حدائق الحيوان الأوروبية عام 2006، و144 في أمريكا الشمالية[(lxxxviii)]. أما عدد الحيوانات المقتناة بطرق غير شرعية فلا أحد يعرفه على وجه التأكيد. وهكذا فإنّ أعداد الفيلة في المؤسسات العامة قد بقيت مستقرة نسبياً خلال الأعوام القليلة الماضية.

إلا أنّ مبررات الاحتفاظ بالفيلة تواجه تحديات متزايدة. وقد أجاد بيبر لونغ من حديقة الحيوان الوطنية في واشنطن دي سي في سجاله التعليمي عندما قال: «فبالنسبة لـ 1.8 مليون شخص يزورون حديقة الحيوان الوطنية كل سنة، ما من شيء يعوضهم عن فيل حي»[(lxxxix)]. ويؤكد الكثيرون أنّ لقطات الأفلام رائعة في الوقت


天竺渡来
大評判
象乃戯遊
楯ヲ貫ク
鼎釣り
曲持

الحالي، بحيث لا يمكن ترخيص الإبقاء على الفيلة أسيرة إلا نادراً. واليوم، على الرغم من تحسن معرفتنا بفيزيولوجيا الفيل وسلوكه، وهو واقعيّاً لا يتاح غالباً إلا من خلال حيوانات حديقة الحيوان، وعلاوة على التحسن التدريجي في التصميم المعماري لهذه الحدائق، فإنّ وضع الفيلة نفسها ليس جيداً. صرح أحد مدراء حديقة الحيوان مؤخراً لمجلة تايم « لقد استنتجت، بعد سنوات عديدة، أنّ حدائق الحيوانات لا تتمكّن ببساطة من توفير احتياجات الفيلة»[xc].

معرض وحوش ياباني: «فيلة تلعب، الشهر الرابع»، طباعة على خشب، 1863.

ويبقى تبريرٌ آخرُ كثير التداول في موضع شك وهو: أنّ برامج الإكثار من الفيلة الأسيرة أساسيةٌ للتعويض عن الفيلة المهددة في البراري. ولكنها لم تقم بهذا التعويض الذاتي بعد. إنّ الفيلة البديلة تؤسر دائماً من البراري، فكثيراً ما وجد كارل هاغنبك، وهو أحد أشهر مدراء الإنتاج في عالم الفيلة الاستعراضية، نفسه «مرغماً على قتل» الفيلة الإناث التي تحاول حماية صغارها من الأسر[xci]. ويبقى هذا صحيحاً إلى حد بعيد. أما اليوم، وعلى الرغم من ولادة المزيد من الصغار في الأسر، فإن معظمها تولد ميتة أو تموت قبل أن تبلغ عمر ست سنوات. بمعنى أنه لا توجد هناك عائلات فيلة أسيرة ذات حجم قابل للحياة، يمكن حقن السائل المنوي اصطناعياً، ولكنه لا يزال أمراً صعباً، ونقل الذكور إلى الإناث في مكان آخر هو أمر شاقٌّ ومكلّف مما يقلل من استخدامه. ولهذا السبب عنون أحدُ الباحثين مقالته التي تتناول هذا الموضوع بـ: «الفيلة الآسيوية في حدائق الحيوان تواجه انقراضاً عالمياً، فهل ستقبل حدائق الحيوان بما لا مناص منه؟»[xcii] ومع ذلك، قد يعرض سيرك رينغلينغ براذرز المثير للجدل، على موقعه الإلكتروني، ملاحظة دفاعية ومتبجّحة في آن معاً:

إن رينغلينغ براذرز، وبارنوم وبيلي، هو أروع سيرك في العالم. وجدير بالملاحظة أنّ سيرك رينغلينغ براذرز يحتفظ بأضخم قطيع

خصب من الفيلة الآسيوية في العالم، خارج تامبا (فلوريدا). ولولا الجهد الذي بذله رينغلينغ براذرز مع الفيلة الآسيوية، صحيحاً كان أو خاطئاً، لما كان للفيلة الآسيوية بعد الآن أن تبقى هنا 50 أو 100 سنة أخرى. تلك حقيقة فحسب[xciii].

ليست «ما كان» «حقيقة» بعد، وهناك بالتأكيد جدال يدور عما إذا كان مثل هذا البرنامج «صحيحاً أو خاطئاً»؛ إن هذا الإعلان يلخص بدقة المآزق والمشاعر المختلطة التي تؤثر في ترويض الفيل. ولكن ها نحن هنا ننتهك موضوع فصلنا الأخير: المحافظة على الفيل في عالم اليوم الذي يزداد اكتظاظاً.

5 - المحافظة على الفيل

إنّ الوضع الراهن للفيلة البرية، على غرار أي «حيوان ضخم رائع» بوسعكم تسميته، هو وضع حرج عموماً. فالجهود الحالية المبذولة لتغيير النهج من قبل حدائق الحيوان والحدائق الوطنية، والوكالات العالمية للمحافظة على الأنواع والتشريعات الحكومية، هي جميعاً محفوفةٌ بالتحفظات؛ لأنها محكومةٌ بالنمو السكاني البشري، الذي يتكشف الآن فضلاً عما سبق على خلفية التغيّر المناخي المدمر. والأسباب بسيطة: لقد قتل أناسٌ كثيرون الفيلةَ من أجل عاجها؛ كما سلب أناسٌ كثيرون الفيلة مأواها الطبيعي التاريخي. وكما رأينا، فإنّ البشرَ قد اصطادوا الفيلة واستخدموها بشتى الطرق، بعضها من باب العبادة، والطرق الأخرى عديمة الرأفة. ولكنّ عدد الفيلة التي أسرت حية من أجل شنّ الحروب، وحلبات السيرك وحدائق الحيوان، والغذاء، وقطع الأشجار والعبادة، (على الرغم من الانتشار الواسع لهذه الممارسات)، تضمحلُّ أهميته إذا ما قورن بالأعداد التي قتلت من أجل أنيابها.

إنّ طمعَ الإنسان بالعاج هو لعنة الفيلة؛ وتجارة العاج قديمة قدم مهنة التجارة نفسها تقريباً. ومن المرجح أنّ قتل الفيلة من أجل عاجها قد تولّد من استفادة الإنسان من الحيوانات التي ماتت موتاً طبيعياً؛ فقد استخدم السيبيريون القدماءُ أنيابَ الماموث ليثبتوا خيامهم، قبل اكتشافهم أنّ بمقدورهم بيعها للصينيين. وفي نهاية المطاف ازدهرت هذه التجارة. وتفيد التقديرات أنّ 2000 طنٍّ من العاج قد غادرت ميناء ياكوتسك وحده بين عامي 1825 و1914. وعلى الرغم من اتخاذ الاتحاد السوفييتي إجراءات تدريجية للحؤول من دون ذلك، فقد ظلت قضية «عاج مستحاثات الماموث» قناعاً معقداً تتنكر به تجارة عاج الفيل حتى يومنا هذا.

لقد أسست شعوب متنوعة لتجارة عاج الفيل عبر آلاف السنين: الهارابانيون، والفينيقيون، والرومان والبارثيون. وتحكم كل شعب من جهته بالطرق الرئيسية المؤدية إلى أوروبا والشرق الأوسط، أو بقسم من طريق الحرير المفضي إلى الصين. وعلى الأرجح، فإن فيلة شمال إفريقيا، قد شارفت على الانقراض على يد صيادي العاج مع انهيار الامبراطورية الرومانية، لقد اشتكى بليني من شح العاج عام 77 ب.م. وفي باقي إفريقيا، قدح التجار الخارجيون الزناد وأسفر الاستخدام المحلي الطبيعي عن وقوع مجزرة. كما ساهم تجار العبيد العرب، والتجار البرتغاليون والوسطاء السواحليون في خروج التجارة من نطاق إفريقيا الشرقية إلى الهند غالباً، وهو أمر غريب، حيث عُدَّ العاج الإفريقي أفضل من العاج الآسيوي. وكثيراً ما كان يحرق العاج الآسيوي في الاحتفالات الدينية أيضاً، مما جعل النحاتين الأوروبيين يردفون عاج فرس النهر وعاج حيوان الفظ بعاج الفيلة المجلوبة من مصر، وأثيوبيا وإفريقيا الغربية لاحقاً.

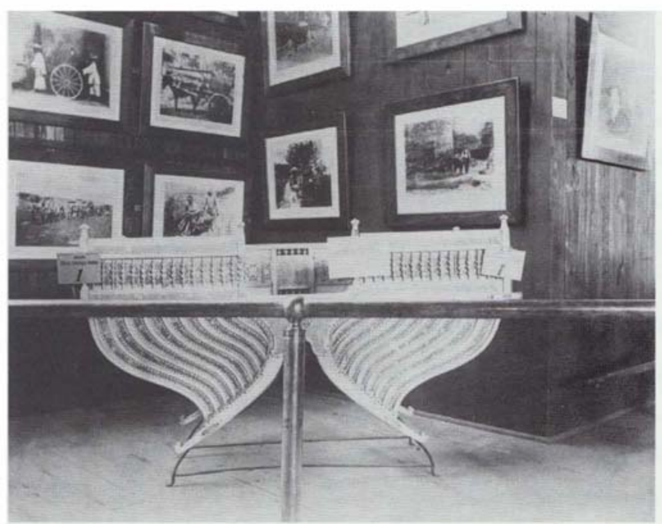
وفي العصور الوسطى في أوروبا، كان العاجُ نفيساً لاعتقاد الناس بأنه يأتي من الممالك الأسطورية لملكة سبأ. وتقول أسطورة أخرى: إنه كان قرن الحصان الأسطوري ذي القرن، وهو رمز العذرية. ومن هنا يأتي استخدامه الخاص في الأيقونات الدينية المكرسة لمريم العذراء. وصُنعت منه أعدادٌ كبيرة من الصلبان، والأيقونات المزدوجة والثلاثية التي تصوّر مشاهد من الكتاب المقدس، وصولجانات الأساقفة، وأوعية الذخائر المقدسة، وخرز السبحات، وتماثيل وأشياء دينية أخرى، وبهذا الصدد كتب دانتي، يا للغرابة، إنّ العاج يرمز إلى الزيف. لقد شهد القرن الرابع عشر استخداماً موسّعاً للعاج شكّل ثروة من الأشياء غير الدينية؛ قوالب الإسكافيين، المغازل، ساعات رملية، أبازيم الأحزمة، لوحات تصور مشاهد كلاسيكية أعيد اكتشافها من جديد، أغطية السلال وعلب المرايا،

أغطية لأوراق الكتابة، مقابض الخناجر، أغطية لرؤوس الصقور، السروج وعلب النرد، أطر القيثارات والملاعق وقوارير المساحيق، وحتى الأحذية وزلاجات الجليد[xciv]. ثمة أمثلة كثيرة يمكن إدراجها بين أروع الأمثلة عن النحت عبر التاريخ.

وفي إحدى الإحصائيات، بين عامي 1500 و1700، كانت كمية العاج التي تغادر إفريقيا سنوياً ما يزيد عن 100 طن كل سنة. وفي السنوات اللاحقة، استوردت الهند وحدها ما يزيد عن 250 طناً كل سنة، وكان الكثير من هذا العاج يرجع من مشاغل المغوليين إلى الغرب، على شكل منحوتات ساحرة. لقد تحولت «بينين» في القرن الخامس عشر على يد التجار البرتغاليين الذين وطدوا تقليداً لافتاً فيما يتعلق بالنحت المحلي، وعلى صلة متينة بالملكية على الخصوص، بالإضافة إلى ازدياد الطلب في أوروبا الغنية على الأمشاط، ومقابض السكاكين، وبيادق الشطرنج، وترصيعات الأثاث، ومئة قطعة فاخرة أخرى[xcv]. لقد طور اليابانيون تراثاً فريداً يخصُّ منحوتات العاج



مذبحة ألف فيل: مستودع عاج في شرق إفريقيا، مطلع القرن العشرين.



«سرج» من العاج لا يبدو مريحاً، من المعرض الكولومبي العالمي في شيكاغو، 1893.

المصنوعة على شكل تماثيل صغيرة netsuke تعلق إلى أحزمة الرجال. وقد تكون هذه التماثيل نفيسة: فإذا زرتم الموقع الإلكتروني لدائرة الشرطة في لوس أنجلوس، ستجدون في قسم السرقات الفنية، صورة تمثال ياباني، يعود إلى القرن التاسع عشر، وهو تمثال صغير جميل مسروق يصور أطفالاً صينيين يلعبون مع فيل. إنّ مجتمعات كاملةً من اسكتلندا ودييب إلى سمرقند وهونغ كونغ، وكيوتو وأوساكا، قد تأسست في نهاية المطاف بناء على تخصصها في نحت العاج.

إنّ ازديادَ الطلب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من أمريكا وأوروبا والصين، كان له التأثير الدراماتيكي الأقوى. فالاستعمار الأوروبيُّ المقرون بتطور الأسلحة النارية، بدءاً من بنادق الموسكيت القديمة، إلى البنادق الآلية، أتاح – من بين أشياء أخرى- فرصة لتأمين اللوازم الخيالية لصناعة مفاتيح البيانو وكرات البلياردو. لقد قفز الإنتاج الأمريكي لآلات البيانو من 9.000 عام 1852، إلى

350.000 عام 1910. واستخدم في جميعها عاج مصقول بمقدار رطل ونصف من أجل كل لوحة مفاتيح. وبين التاريخين المذكورين نفسيهما، استوردت بريطانيا وحدها حوالي 500 طن من العاج كل سنة، أي حوالي نصف الاستهلاك العالمي. وقد اقتضى هذا موت قرابة 65.000 فيل كل سنة. وازدهرت السمسرة الإفريقية، من بينهم الوسيط السيئ الصيت تيبو تيب. وكانت زنجبار القناةَ الرئيسيةَ التي تأتي عبرها آلاف الأنياب، مجلوبة في الواقع على ظهور العبيد، ذاهبة باتجاه الشرق، حيث استخدم العاج بكميات هائلة في صناعة أساور الزواج الهندية، والمنحوتات ورسوم الحبر الصينية. لقد كان لعنف الاستعباد المتوارث واستخلاص العاج معاً تأثيرات دراماتيكية على كل من البيئة والمجتمعات على سواحل إفريقيا، وقد ساهم هذا، إذا ما أخذنا مثالاً واحداً فقط، في نهوض دولة شاكا ملك الزولو في مطلع القرن التاسع عشر. وعندما عبر هنري مورتون ستانلي الكونغو



كان العبيد الأفارقة يرغمون على حمل العاج إلى السواحل، كما تصورهم رواية هنري رايدر هاغارد «انتقام مايوا» (1888).

إلى لقائه الأسطوري مع ديفيد ليفينغستون، قام بالحساب التالي:

لقد كلّف كل رطل (من العاج) حياة رجل أو امرأة أو طفل، واقتضت كل خمسة أرطال إحراق كوخ، ودُمّرت قرية من أجل كل نابين، وكان ثمن الحصول على كل عشرين ناباً يعادل مقاطعة بكامل سكانها، وقراها، ومزارعها[xcvi].

لقد أرضت هذه التجارة الغرور الذكوريَّ أيضاً، إلى جانب الربح الصافي. لقد شدَّ سحرُ «الفيل»، المُخَلَّد في أبشع صوره،

في خلاصة رولاند وارد عن أحجام الغنائم، الصيادين الأوائل، وكان فحوى الرسالة: تتناسب جسارة الرجل طرداً مع ضخامة الناب. وبإيجاز، خلال قرن من الزمان أبيدت جمهراتُ الفيلة،إلى حد بدأ فيه الصيادون أنفسهم يحذرون من خطر انقراضها في مناطق عديدة. وفي عام 1881، لاحظ فريدريك كورتيني سيلوس، وهو النموذج البدئي «للصيادين البيض العظام»، أنّ «الفيلة تزداد ندرة وضراوة كل عام جنوب نهر زامبيزي، مما جعل من الاعتماد على الصيد في كسب العيش أمراً مستحيلاً تقريباً»[xcvii]. وبطريقة غريبة لا يمكن تبريرها تماماً، أرضى الصيادون أمثال سيلوس غرورهم أيضاً بتأمين «العينات» للمتاحف الأوروبية. إنّ هذه الظاهرة التي حصلت بالصدفة إثر انتهاكاتهم، وإن كانت مفيدة تعليمياً، قد مهدت الطريق أمام المزيد من الاستقصاءات المتعلقة بالحيوانات في المكان in situ. وهناك مثال عن هذا الانزياح، ففي 6 ديسمبر 1905، جمع مدير متحف التاريخ الطبيعي في باريس عدداً من المبدعين اللامعين، منهم المؤلف الموسيقي كميل سان سان، لتأسيس جمعية أصدقاء الفيل التي كانت الأولى بين جمعيات عديدة مشابهة. وقد أحيا بول هيبيو تلك التسجيلات ببعض من الشعر الساخر، الذي غُنّي قسم منه:

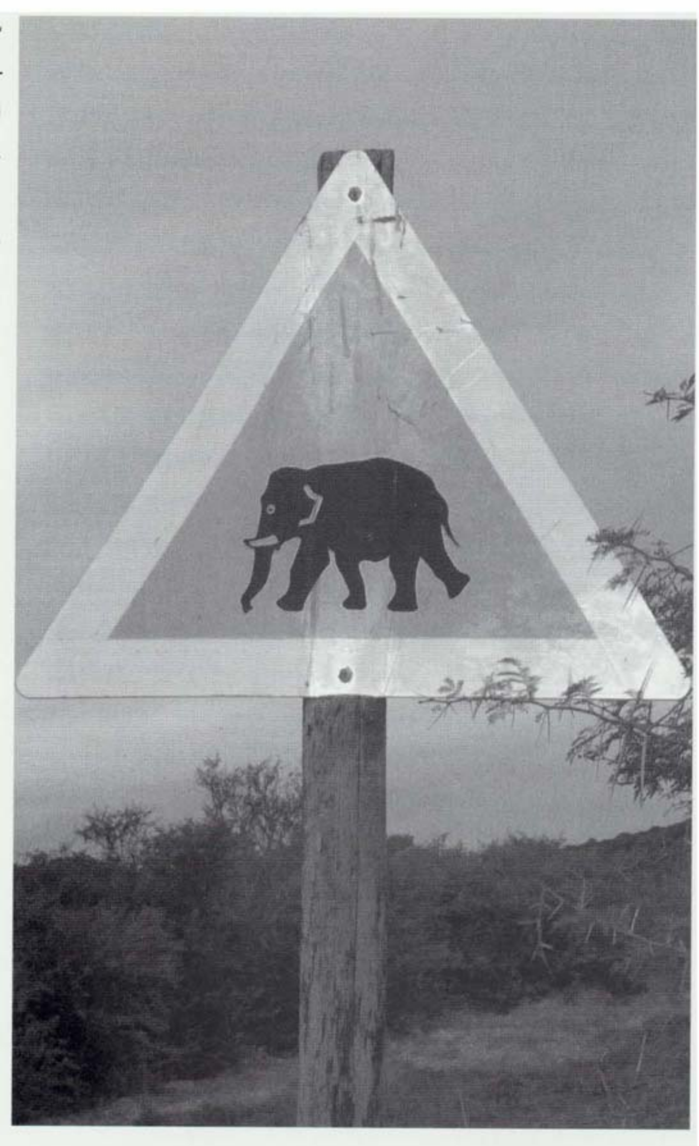
الفيل، يا للحقيقة المشينة،
يختفي في إفريقيا.
وما لم نسرع بالنظر في ذلك،
فكيف لنا أنْ نعالجه؟
الفيل صديق الإنسان؛
أكثر من الكلب، إنه دائم الحضور.
والآن قد حان دورنا حقاً
كي نصادق الفيل[xcviii].

إلى جوار موت أنواع عديدة أخرى كما لاحظ العلماء البيولوجيون أكثر فأكثر، فإنّ تناقص عدد الفيلة قد ساعد في الحثّ على تطوير مقاربات جديدة للمحافظة على الأنواع. ففي شرق إفريقيا وجنوبها على الأخص، أسفر هذا عن تأسيس محميات مختصة مع انعطافة القرن العشرين، ونخصُّ بالذكر حديقة كروغر الوطنية في جنوب إفريقيا. وكانت بلدان أخرى أبطأ في تشريع المحميات، ففي كينيا، أعلن رسمياً عن تخصيص تسافو كمحمية، فقط عام 1948، وسيرينغيتي عام 1951، وهو العام نفسه الذي صادف تأسيس أولى الحدائق الوطنية في بريطانيا. كما بدأ تخصيص المحميات البرية في آسيا أيضاً، وعلى سبيل المثال، حديقة كازيرانغا الوطنية عام 1905، وحديقة جيم كوربيت عام 1936. وعموماً، كان التقدم بطيئاً هنا أيضاً، فقد أعلن رسمياً عن حديقة ناغارهول، وهي حديقة الفيل الأساسية في الهند، فقط عام 1955. وفي تايلاند، خصصت الحديقة الوطنية الأولى كاو ياو عام 1961. وتأخرت لاوس عن اللحاق بالركب فلم تتأسس المناطق الوطنية للمحافظة على التنوع الحيوي، حوالي 21 بالمئة من مساحة البلاد، إلا عام 1993. وهذا يعني أن أطر حماية الأنواع الفردية مثل الفيل كانت إلى وقت طويل

ذات تأثير محدود.

ولكنّ هذا التطور الصريح في المحافظة على الفيل لم يوقف تجارة العاج، بل جعلها تنعطف إلى منحى آخر. فبالنسبة للصوص العاج، أصبحت جمهرات الفيلة المتمركزة في المحميات البرية مصادر متاحة في متناول أيديهم. وعلى الرغم من التراجع الشديد في طلب العاج بعد الحرب العالمية الأولى، وعودة الفيلة إلى ما يشبه التعافي، فإن الخطرَ لم ينته. ففي سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، اجتاحت موجة من نهب العاج سكينةَ المحميات البرية على امتداد إفريقيا. وجاء معظم الطلب على العاج من الصين ومن اليابان التي بدأت تزدهر مجدداً، حيث كانت أختام العاج «hanko»، أختاماً للتوقيع، تستقطب شعبية كبيرة حيث صنع مليونا ختم عام 1988 وحده. وارتفعت أسعار العاج من 5.50 دولار أمريكي للكيلوغرام الواحد عام 1969 إلى 74 دولاراً عام 1978، وإلى 300 دولار عام 1989. لقد تواطأ على إحداث فورة إجرامية في هذه التجارة ازدياد الطلب على العاج من قبل الأغنياء من جهة، والفقر المحلي من جهة أخرى، وفرص الربح العديدة للوسطاء بينهما. لقد وجد ديفيد شيلدريك نفسه في محمية تسافو في كينيا، من بين حراس آخرين، متورطاً، وخاسراً على الأغلب، في معارك طويلة الأمد بالبنادق مع المهاجمين المسلحين بأسلحة أوتوماتيكية. وفي عام 1976 وجد أنه قد خسر نصف الفيلة في تسافو، أضيفت إلى الخسائر التي نجمت عن قحط بالغ السوء حيث مات 6.000 فيل في الفترة الواقعة بين عامي 1969 - 1970. لين وأوريا دوغلاس هاميلتون اللتان طورتا في أثناء دراساتهما الرائدة في مانيارا علاقات شخصية حميمة مع الفيلة، نكبتا في منتصف ثمانينيات القرن العشرين عندما اكتشفتا النقص الهائل في قطعانهما الثمينة. وكانت لهذه التجارب المذكورة في كتابهما «بين الفيلة» تجاربُ موازيةٌ في أرجاء القارة. وهذا التهديد

شاخصة على الطريق
في واحدة من المحميات
الخاصة العديدة في
جنوب إفريقيا، تشير إلى
الفيلة المنقولة إلى هناك
حديثاً.



مستمر، على الرغم من تراجعه الكبير، حيث قتلت سبعة فيلة على يد لصوص العاج في تسافو خلال شهر حزيران 2007.

كما كانت حكوماتُ الدولِ المعنية شديدة الضعف كي تقوم بدور فعّال في هذا الصدد، أو أنها كانت متورطة حقاً في تجارة العاج. وعلاوة على ذلك، كانت الوكالات الغربية الراغبة في المساعدة متورطة في صلب المشكلة والإجراءات المتخذة تجاهها. ومما وضح هذه الأزمات جدال جرى بين دوغلاس -هاميلتون وأيان باركر، وهو ناشط آخر في مجال المحافظة على الفيلة في كينيا. حيث كانت إحدى القضايا هي معرفة العدد الدقيق للحيوانات الموجودة. وقد قدّر باركر عددها تقريباً بضعف العدد الذي قدرتاه دوغلاس - هاميلتون، وقلل من شأن المخاطر التي تتهدد الفيلة، وجادل بخصوص استمرار تجارة العاج تحت شروط تخضع للمراقبة. وعلى الرغم من اتضاح أن باركر كان مخطئاً، فقد انتشرت آراؤه مما أسفر عن استغراق CITES، اتفاقية التجارة غير المشروعة بالأنواع المهددة بالانقراض، المبرمة عام 1973 سنتين، حتى وضعت الفيلة الإفريقية على الملحق الثاني في لوائحها، واستغرقت اثنتي عشرة سنة أخرى كي تدرك تحذيرات دوغلاس - هاميلتون من انقراضها الوشيك وترفعها إلى الملحق الأول. أما الفيل الآسيوي فقد وضع بلا إبطاء في الملحق الأول. ولكنّ هذه الاتفاقية تأخرت كثيراً بالنسبة لمئات آلاف الفيلة. وفضلاً عن ذلك، فإنّ تركيبة مجتمعات الفيلة قد انحرفت انحرافاً شديداً بواسطة الشراء الانتقائي للفيلة وإناثها الضخمة.

أما النقطة الشائكة الأخرى فهي أنّ CITES عديمة الحيلة في جميع الأحوال، حتى بين الدول الـ 113 التي وقّعت عليها. كانت هناك ثغراتٌ كثيرة للغاية في قوانينها، وفرصة ضئيلة للتمييز النهائي على أرض الواقع بين «المشروع» و«غير المشروع»، وبين العاج «المشغول»

والعاج «الخام»، حيث قدر تقريرٌ حديث أنّ 94 بالمئة من تجارة العاج المباع على موقع إي باي eBay، وهو أضخم مزاد عالمي على شبكة الإنترنت، كانت في الواقع تجارة غير مشروعة، ولهذا السبب قام الموقع بحجبها حالياً. ومما يزيد الطين بلة، هو أنّ CITES كانت ممولة جزئياً في بعض الأحيان من قبل تجّار العاج أنفسهم، ولذلك امتنعت عن إدانتهم. لقد اكتشف دوغلاس تشادويك، كما يصف في كتابه المخيف الممتاز «قدر الفيل»، أنَّ تجار العاج اليابانيين في أواخر ثمانينيات القرن العشرين فرضوا نوعاً من الضريبة الذاتية على منتجاتهم، كي يغطوا ميزانية CITES. في حين كان اهتمام اليابانيين في ذلك الوقت خاصة منصبّاً على حفظ أيقونة الثقافة الموسيقية اليابانية، الـ baachi، وهي ريشة ضخمة للعزف على آلة shamison الشبيهة بالعود، تنحت من ناب واحد وتصدر صوتاً يُزعم أنه فريد وقدسي في ثقافتهم. وفوق ذلك، كان يوجين لا بوانت، مدير CITES، يستغل طوال سنوات الثغرات القانونية كي يشحن أطناناً من العاج الإفريقي المتراكم إلى تجار الشرق الأقصى. وحتى هذا اليوم، صحَّ هذا الزعم أم أخطأ، فإنّ مناهضي CITES يتهمونها بشكل منتظم بالإسهام الفعال في تجارة العاج أكثر من كبحها. وفي يوليو 2008، أذعنت CITES لضغط الشعوب الجنوب إفريقية وسمحت لهم بعرض كميات كبيرة من العاج في السوق المفتوحة، في مواجهة الاحتجاجات الشرق إفريقية على أنّ هذا السماح هو إحياء لسرقة العاج بطريقة أخرى. وتفيد الإحصاءات الحالية أنّ نسبة موت الفيلة في إفريقيا بسبب نهب العاج قد ارتفعت 8 بالمئة عما كانت عليه قبل عشرين عاماً[xcix].

نستخلص مما سبق، ومع توقيع بلدان أخرى على الاتفاقية، أنّ حظر CITES لتجارة العاج عام 1989، مع أن هذا الحظر قد لا يكون السبب الوحيد، فقد أسفر عن تراجع ملحوظ في حجم هذه

التجارة. إلاَّ أنّ هذا التصريح قد يضللنا عن حساب الكميات التي لا بد أنَّ المتاجرة بها تتم خلسة، وخصوصاً العاج القادم من المناطق الممزقة بالحروب مثل جنوب السودان وجنوب أنغولا. وفي الحالة الأخيرة، استغلت القوات العسكرية الجنوب إفريقية في ثمانينيات القرن العشرين حالة الفوضى كي تسرق الأنياب وتبيعها في السوق السوداء. وحسب مزاعم أحد التقارير، فقد قتلت قوات أونيتا في أنغولا 100.000 فيل كي تسدد تكاليف المساندة العسكرية التي قدمتها جنوب إفريقيا. ومن ثَمَّ فإنّ هناك جدالا مستمراً، حول المدى الذي يدفع فيه الحظر العالمي إلى ازدهار التجارة «تحت الأرض»، وفيما إذا كان الخيار الأحسن هو طرح المنتجات المتعلقة بالفيل في الاقتصاد المفتوح، كما مورس للحصول على بعض المنفعة المحلية في زمبابوي وجنوب إفريقيا.

إنّ الجدال بين دوغلاس - هاميلتون وباركر قد سلط الضوء أيضاً على مشكلة ثالثة هي: تحديد دور عناصر أخرى مثل، الأسعار العالمية، وصرعات الأزياء، والسياسات المحلية، والممنوعات الثقافية، وطرائق استخدام الأرض، والفقر والتغيرات البيئية القصيرة والطويلة الأمد، فهي عوامل قد تؤدي دوراً في إنقاص أعداد الفيلة. ولأنَّ توزع الفيلة مبعثر بشكل لا مناص منه حالياً، فإنَّ كل جمهرة تقاسي وتستمتع بمزيج فريد من المؤثرات والتهديدات والمزايا، ولذلك فإنَّ سياسة التغطية التي لفقَّتها المنظماتُ العالمية لا تكفي، على الأرجح، لمجاراة كل الحالات. ولهذا النقاش أولويته، على نطاق واسع، في الانشقاق بين جنوب إفريقيا وشرقها. فالعلاّمة رامان سوكومار، المتخصص بالفيلة الآسيوية، يختزل هذه التعقيدات اختزالاً بارعاً في مذكراته «نهارات الفيل ولياليه» إذ يقول:

إننا نعيش في عالم من التناقضات، حيث التفاوت الفاحش بين الأغنياء والفقراء، وحيث هناك جذب وشدٌّ من كل اتجاه، وحيث

هناك حاجة للحاقِ من لا يملكون بمن يملكون، وحاجة إلى التحديث والحفاظ على ما هو قديم في الوقت نفسه. وإذا ما واصلنا اعتداءنا الأرعن على أنظمة الأرض الحيوية، فإن قلوبنا تتفطر أحياناً إزاء محنة أروع المخلوقات – اللقلق، والنمر، والفيل. وكثيراً ما تدفعنا فوضى القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والبيولوجية المتعلقة بالجهد المبذول لإنقاذ أحد الأنواع، إلى رفع أيدينا يأساً[c].

ولكنّ جميع الأطراف متفقة تقريباً على قضية واحدة على الأقل وهي أنّ هناك عاملاً حاسماً يكمن في فقدان المأوى الطبيعي وحرية التنقل في المناطق التي يعيش فيها الفيل. ففي آسيا، على الرغم من حدوث نهب كارثي هناك أيضاً، كانت هذه القضية أهمَّ من نهب العاج الذي لا يزال مستمر الحدوث. ولكي نلقي الضوء على هذا الموضوع، يمكننا الإشارة إلى المهنة اللافتة لناهب العاج فيرابان في جنوب الهند. فقد كان رجل العصابات المراوغ هذا مسلحاً بأسلحة جاءته من سريلانكا الطافحة بالنزاعات، وكان مطلوباً لوقت طويل بسبب ارتكابه عدة جرائم قتل بحق رجال الشرطة والحرس الجوالين. كانت لديه شبكة مخابرات أكثر تعقيداً من شبكة السلطات، وكان بمنزلة روبن هود محلي في بعض المجتمعات الريفية. كان له، هو وشبكة من اللصوص أمثاله، تأثير ملحوظ على نسبة تكاثر الذكور الكبيرة وسط جمهرات الفيلة في جنوب الهند. وتشير آخر الإحصائيات منذ وفاة فيرابان إلى عودة أرقام الفيلة في منتجعه كاماتاكا إلى الارتفاع مجدداً من حوالي 4.500 إلى 6.000. ومن جانب آخر، تصف تقارير حديثة العهد نهبَ العاج في مقاطعة جايبور بأنه «خارج عن السيطرة».

كان لفقدان المأوى الطبيعي عدد من التأثيرات السلبية، أحدها هو أنّ جمهرات الفيلة المعزولة وغير المتكاثرة على نحو مضطرد قد

تظهر لديها بمرور الوقت عيوب وراثية. ففي آسيا، لم تعترض نقل الفيلة المتناسلة بين المجموعات أية مشقة. أما في إفريقيا الجنوبية فطريقة النقل هذه أكثر شيوعاً، على الرغم من تكاليفها الباهظة. ومما يعيقها في التنقّل فقدانُ التنوع الحيوي حتى بين الفيلة الأليفة المعرّضة لخطر الانقراض تقريباً شأن أقرانها البرية. وفي أحد الإحصاءات، كان في تايلاند حوالي 100.000 فيل أليف مع انعطافة القرن العشرين، أما اليوم فليس هناك غير 3.800).

والأكثر أهمية، هو أنَّ تقلص المأوى الطبيعي في كل مكان قد أسفر عن استفحال الصراع بين الفيل والإنسان. وبالطبع، فقد أغارت الفيلة دائماً على محاصيل الإنسان الشهية. ومن ذا الذي لا تغريه مثل هذه الكميات المتوافرة من المواد الغذائية؟ وهذا الأمر واسع الانتشار في آسيا خصوصاً، حيث الكثافة السكانية أعلى، والحدائق الوطنية صغيرة وقليلة الحماية في آن. ففي ولاية أسام في الهند، على سبيل المثال، احتل مقيمون غير شرعيين 7.000 كيلو متر مربع من أصل 20.000 كيلومتر مربع تشكل محمية الغابة البرية. فالقرويون الذين يبجّلون غانيش من جهة أخرى، يلوذون بالسمّ أو إطلاق النار أو الأسلاك العارية المتدلية من كابلات الكهرباء العالية في محاولتهم لصدّ هجمات الفيلة على مساكب الأرز. لقد كتبت على جلد فيل ميت وبخط عريض هذه العبارة الغاضبة، «Dhan Chor Bin Laden» أي (سارق الأرز بن لادن). وفي يوليو 2007، نقل روسان سانغما، أحدُ المسؤولين الكبار في أسام، أنّ الفيلة قد دمرت 27 منزلاً محلياً تلك السنة، وجرت غارة مدمرة أخرى قامت بها جماعة من 90 فيلا قويّاً. وخلال هذه الفترة نفسها، ذكرت التقارير عدداً من الحوادث التي تسببت بها الفيلة في نيبال، فقام المزارعون بقتلها أو نهبها. وبالفعل، فإنّ التقارير في أيّ شهر من شهور السنة تظهر تعارضاً دراماتيكياً متناقضاً بين تلك الحوادث المؤسفة المدمرة للزراعة في



فيلان فتيان يمارسان سلوكاً تسلطياً في نهر تشوبي، بوتسوانا.

كل من آسيا وإفريقيا، وبين أولئك المأخوذين عاطفياً بولادات أو ميتات الفيلة الفردية الأسيرة في الغرب.

ومن هنا، وفي مناطق عديدة، تجري محاولات لاستحداث طريقة جديدة للمحافظة على الفيل وإدارة الصراع بينه وبين الإنسان، وكذلك العثور على طرق تكون معها المحافظة على الحياة البرية الخطيرة مفيدة للمجتمعات الريفية. وكما أدرك ريتشارد ليكي في كينيا، فإنّ تحسين أوضاع الإنسان والجمهرات الطبيعية عملية متبادلة فيما بينهما، فيقول:

إنّ التخلي عن المساحات الطبيعية وقتل أنواع الحيوانات لن يأتيا بالرخاء... فهدفنا في كينيا، هو الهواء النظيف، والمياه النظيفة، والكثير من الغابات، ومجتمع إنساني جيد التغذية، متعلم، وميسور

الحال إلى درجة معقولة. إنَّ إنقاذ الفيلة هو أمر رمزي، وسيلة للوصول إلى هذه الأهداف الكبرى[ci].

لقد كان مشروع كامبفاير «CAMPFIRE»، برنامج إدارة المناطق العمومية للحفاظ على المصادر الأصلية، في زمبابوي، واحداً من الجهود الرائدة في تخصيص ريع السياحة والصيد مباشرة للمستشفيات والعيادات. وهناك أمثلةٌ عديدةٌ على نجاح هذه المشاريع، لولا أنها غارقةٌ في الفساد الآن بسبب انهيار القانون والنظام تحت حكم روبرت موغابي، فباستثناء قطيع «الفيلة الرئاسية» المفتخر به في شمال غرب ماتيتسي، والمحمي حماية خاصة مشبوهة من قبل حاشية موغابي الرئاسية، فما من فيل لا يهدده النهب الذي يديره زعماء الحرب المحليون أو حتى وزراء الحكومة المتواطئون مع الصيادين عبر البحار. هناك جهودٌ أخرى موجهة لصدّ الفيلة، مثل استخدام الجدران والخنادق والأسيجة المكهربة، أو حقول من الفلفل الحار المنفِّر. أمّا التجربة الأحدث فهي بث تسجيلات لأسراب من النحل حيث يقال إنّ الفيل يكره طنينها.

إنّ الفيلة ضحايا أنواع أخرى من الصراعات الإقليمية أيضاً، وهي تلك الفيلة التي تطأ غافلة على الألغام الأرضية في مناطق الحروب. وقد تجلّى هذا على وجه الخصوص في المناطق الحدودية في ميانمار، حيث تتصارع المجموعات المتمردة مع القوى الانقلابية الحاكمة. وفي عام 1999، تم إنقاذ فيلة اسمها موتالا، وفي مشفى الفيل التخصصي في لامبانغ شمال تايلاند، أصبحت موتالا نجمة في الإعلام العالمي، مع خضوعها لعملية بتر بعد أنْ داست على لغم مضاد للأشخاص. وبعد ستة أعوام وضعت أول ساق صناعية للفيل في العالم، وهي إذا ما جاز القول: بديل ساخر معكوس للكتف الاصطناعية المشغولة من العاج التي يقال إن الآلهة الإغريقية

القديمة قد منحتها لـ «بيلوس الفريجي».

وهناك شيء واحد مؤكد هو أنّ الفيلة قد حُشِرت عبر أرجاء العالم، في أماكن شديدة الضيق عليها، ومما يبعث على الحيرة، أنه في حين تنجح الإدارة والحماية، يشكل ضغط أعدادها مشكلة كبرى. ومع ذلك، يصعب أنْ نعرف ما سيعقب تلك الأرقام. فكما قال رودي فان أوردي عالم الأحياء المختص بالفيل: «إذا لم نستطع الاتفاق على العدد الدقيق الذي نتعامل معه في المقام الأول، فليس مستغرباً أنَّ نقاشاتنا المحيطة بإدارة أمور الفيل مكتنفة بالشكوك»[cii]. وقبل الشروع بمناقشة عدد الفيلة التي «ينبغي» تواجدها في منطقة معينة، يحتاج المرء إلى معرفة عدد الفيلة الموجودة هناك من قبل. ولا يبدو تحديد هذا العدد بالأمر السهل. كما أنّ الصعوبة لا تقتصر على كون الفيلة حيوانات اشتهرت بالمراوغة والتخفي بين النباتات الكثيفة والأراضي الوعرة مثل أشباح رمادية ضخمة، وإنما يكمن في شدّة تنقّلها ذهاباً وإياباً عبر الحدود الدولية، مما يجعل من تعدادها الدقيق أمراً في غاية الصعوبة. فالتعداد يتمّ عادة في كل دولة على حدة.

ففي آسيا، تشير التقديرات إلى أنّ عدد الفيلة المتبقية في البراري يتراوح بين 40.000 و 52.000. كما أنّ المسح الإحصائي في بعض المناطق أدقُّ من مناطق أخرى. ففي جنوب الهند على سبيل المثال، بوسع المرء الآن الحصول على نتائج إحصاء دقيق جرى عام 2002 منطقة منطقة، على الرغم من أنّ الباحثين هنا يشكون بدقة طرائقهم، مما يثير درجة معينة من الريبة[ciii]. واليوم تؤوي الهند بمجموعها ما بين 26.000 إلى 35.000 فيل في البراري، موزّعة في مآوٍ طبيعية مبعثرة على مساحة ثلاثة ملايين كيلومتر مربع من اليابسة. لقد ازداد هذا الرقم منذ 1980 حين قدِّر عدد الفيلة البرية بـ 15.600، على الرغم من أن قسماً من هذا الازدياد قد يكون سببه

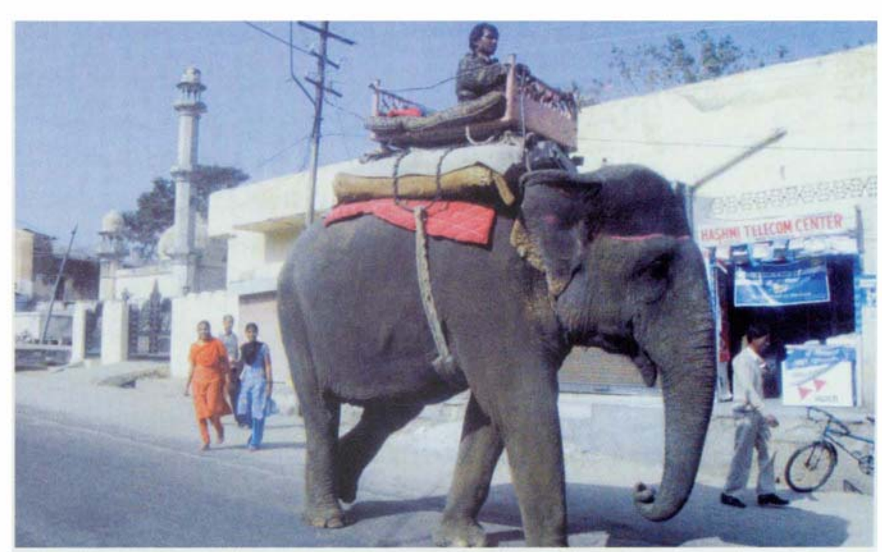
تطور تقنيات المسح الإحصائي. كما يؤوي جنوب الهند القسم الأكبر (حوالي 15.000)، وتأتي بعده المناطق الشمالية الشرقية (حوالي 11.000).

ولا يزال هناك جمهراتٌ صغيرةٌ من الفيلة في اثني عشر بلداً آسيوياً، تتراوح من الحد الأقصى المرجَّح المقدر بحوالي 4.500 في ميانمار، و3.000 في كل من سريلانكا وسومطرة وأندونيسيا وتايلاند، نزولاً إلى مئة فيل فقط في فييتنام. وعلى الأرجح، لم يبق إلاّ مئة فيل بري في كل من نيبال، وبوتان، وبنغلاديش، والصين، ولاوس، وكمبوديا. ولعلّ هذه هي البقايا المشرذمة من جمهرة كانت تقدَّر ذات مرة بمئات الآلاف إن لم يكن بالملايين: وببساطة، لا توجد إحصاءات يمكن الوثوق بها. إنّ معظم الجمهرات معزولة للغاية، بحيث تلزمها مقترحات جدية تتناول التنوع الوراثي، ويتحدث علماء البيئة عن تطبيق مبادئ «علم بيئة الجزر» عليها.

وفي هذا السياق، فإنّ الوضع في جزيرة سومطرة قد ينوب مثالاً عن الوضع في باقي المناطق. فهي جزيرة أصلاً، ولا يزال فيها «جزر» أصغر من مجموعات الفيلة المهددة بالانقراض، لعلها، وسوف تتذكرون، قد تطورت إلى نوع ثانوي منفصل. ولم تجُرَ حتى هذه اللحظة أية مسوحات إحصائية يمكن الاعتماد عليها. واليوم، يبدو أنّ مجموعات عديدة قد اختفت، من أصل 44 مجموعة فيلة منفصلة تم تحديدها في ثمانينيات القرن العشرين، وقد قُدِّر عددها آنذاك بحوالي 4.500 فرد. كما أثمرت الإحصاءات في اثنتين من الحدائق الأساسية، وهما بوكيت باريسان سيلاتان وواي كامباس، عن تقديرات تشير بالترتيب إلى وجود 498 و180 فيلاً فيهما. وعلى الرغم من استمرار بعض النهب، تبقى التهديدات الكبرى هي فقدان المأوى الطبيعي بسبب قطع الأشجار والزراعات الأخرى، وتقدّر جمعية المحافظة على الحياة البرية أنّ نسبة 70 بالمئة من

حديقة بوكيت، بالمعدل الجاري حالياً، ستتحول إلى أراضٍ زراعية عام 2010. والاستراتيجية المعهودة هنا ضد الفيلة التي تغِير على المحاصيل، هي مطالبة الحكومة بإبعادها، فأنشئ عدد من مراكز تدريب الفيلة كي تستقبل هذه الحيوانات الأسيرة. وذات مرة، قادت الباحثة جوان ريلي سيارتها لمسافة 1.500 كم مع فيلة وليدة عمرها ثلاثة أشهر، تُرِكت بعد هجوم على المحاصيل، وأقلتها إلى المركز في سيبانغا دوري. وقد بدا على الصغيرة ويوين، إذ سُمّيت هكذا، الانتعاشُ حيناً من الوقت، غير أنّها ماتت أخيراً أثناء نقلها جواً إلى حديقة حيوان في جافا. لقد كان قدرها قدراً رمزياً يبعث على الكآبة(civ). وبإيجاز، لا يتوافر للفيلة المتبقية إلا القليل من الأمان الفعلي، على الرغم من استخدام أندونيسيا تقنيات لحمايتها منذ عام 1931.

أما في إفريقيا، وعلى الرغم من كل شيء، فهناك اتفاق عام، ولكنه غامض، على بقاء بضعة ملايين فيل عام 1900، حيث كانت الإحصاءات آنذاك تفتقد إلى الدقة، ولم تتحسن اليوم إلا قليلاً على الرغم من المسوحات الجوية الواسعة النطاق، وحساب كميات الفضلات، واستخدام مختلف الطرائق الإحصائية المعقدة. وتتحرك الفيلة في مساحة تبلغ 22 بالمئة من مجمل 23 مليون كيلومتر مربع هي مساحة إفريقيا، ولكن لا يقع إلا ثلثُ تلك النسبة فقط ضمن نطاق المحميات؛ وجرى مسح إحصائي حقيقي لنصف تلك النسبة الأخيرة فقط، وحتى هناك، نجد أنّ بعض البيانات قد انقضى عليها عقد من الزمان. فآخر إحصاء قام به الاتحاد العالمي للمحافظة على الطبيعة IUCN جرى عام 2007، وهو يصف التقديرات بنعوت من قبيل «نهائي»، «محتمل»، «ممكن»، و«افتراضي» صريح، ليصل إلى مجموع عام يقدر بحوالي 472.000 فيل في كافة أرجاء إفريقيا. وتتشكل الفيلة في جنوب إفريقيا (300.000) وشرق إفريقيا



رجل يسافر على ظهر فيل في الهند.

(137.000) الغالبية العظمى من المجموع العام. ولا يصعب العثور على الفيلة في الغابات الكثيفة في إفريقيا الوسطى فحسب، وإنما هي ليست محمية بما فيه الكفاية قانونياً وعملياً. أما جمهرات الفيلة في غرب إفريقيا، التي انخفض عددها إلى حوالي 7.500، فهي في أوضاع مزرية أكثر.

وتتواجد معظم فيلة إفريقيا الغربية في غانا ومالي، إلا أن الجمهرات المبعثرة المتوزعة بين الغابات وأراضي السافانا غالباً ما تهاجر عبر الحدود؛ فالقطيع الوحيد الأكبر عدداً يجوب بينين، وتوغو، وبوركينا فاسو والنيجر في تجولاته. إنّ منطقة الساحل شبه الصحراوية تخلو الآن من الفيلة باستثناء مجموعة من 500 فيل قوي، ترمز أحوالها البائسة إلى ما قد حل بمعظم الفيلة. وحتى ثمانينيات القرن العشرين، كان الصراع بين الفيل والإنسان في هذه

المنطقة الواقعة جنوب تيمبوكتو سهل التدبر، لأنَّ معظم الناس هم من الطوارق أو البدو المماثلين، وهم يتنقلون كما تتنقل الفيلة في مساحة 500 كيلومتر أو أكثر، بحثاً عن الماء والمرعى في كل فصل. أما الآن، على أية حال، ومع جفاف المنطقة، فإن جمهرات البشر ومواشيهم في ازدياد وكذلك ازداد مكوثها حول الواحات النادرة، مما يعرض طرق هجرة الفيلة لخطر القطع. وكما يحدث غالباً، فإن مقدرة الحكومات على تنسيق استراتيجيات المحافظة على الأنواع وتوطيدها هي مقدرة ضعيفة، على الرغم من الاتفاقيات الدولية المتنوعة المتعلقة بالمحافظة على الأنواع مثل تلك التي تم توقيعها تحت اسم الاتحاد الاقتصادي المحلي ECOWAS. وهكذا فإن الوكالات الغربية، على غرار «أنقذوا الفيلة»، هي غالباً من يتابع الفيلة هنا بواسطة الأطواق اللاسلكية، وهي من يتزعّم المفاوضات مع المجتمعات البشرية من أجل إبقاء تلك الطرق مفتوحة وإنقاذ جمهرات الفيلة(cv).

إنّ إفريقيا الوسطى مغطّاة بغابات استوائية شاسعة، وهي تؤوي بشكل أساسي فيل الغابة من فصيلة cyclotis. وبالنتيجة، فإن أحد التهديدات الكبرى هو قطع الأشجار، المشروع وغير المشروع على السواء، وهو ما كشف مناطق لم تكن متاحة من قبل أمام نهب العاج والمتاجرة بحيوانات الأدغال. وقد حدد إحصاء يدعى مايك MIKE، مراقبة القتل غير المشروع للفيلة، قامت به CITES عام 2004، عدد أكثر المناطق التي تحظى بالحماية في هذه البلدان، مظهراً أنَّ الغابون وجمهورية الكونغو الديمقراطية، هما اللتان تملكان النصيب الأكبر في إفريقيا الوسطى. ولكن يبقى من الصعب حساب المستويات الحقيقية لقتل الفيلة، إذ من المؤكد أنّ الحرب الأهلية المدمرة في جمهورية الكونغو الديمقراطية وفي رواندا المجاورة كذلك، قد أسفرت عن تدمير مساحات شاسعة من المأوى الطبيعي للفيلة،

واستهلاك لحومها بسبب الفقر، وتأمين دائم غير مشروع للعاج من خلال المراكز الأساسية في الكونغو وساحل العاج وجمهورية إفريقيا الوسطى. حيث يواصل التجار المتحدرون من كورتز، الشخصية السيئة الصيت في رواية جوزيف كونراد القصيرة عن الكونغو عام 1899، «قلب الظلام»، تجارتهم المحفوفة بالمخاطر.

أما إفريقيا الشرقية، كينيا وتانزانيا بشكل أساسي، فلها قصتها الخاصة في المحافظة على الفيل. إنّ أسماء سيرينغيتي، وماساي مارا، وتسافو، مرادفات تقريبية لأسماء الفيلة، ولعلّ صورة الفيل الأكثر رواجاً هي تلك التي تصوّر حيواناً سميك الجلد، هادئاً، يسير عبر أراضي السافانا الصفراء، وفي الخلفية تلوح قمة كليمنجارو المكسوة بالثلج معلقة في الهواء. وهناك نسبة كبيرة من الباحثين والناشطين الذين قاموا بتجاربهم الأولى هنا، وكرسوا أنفسهم لدراسة الفيلة في هذه المنطقة منهم الرائدتان دوغلاس – هاميلتون، ودافني شيلدريك التي تواصل إدارة ميتمها الخاص بالفيلة قرب نيروبي، وديفيد ويسترن، وجويس بوول وسينثيا موس، وكاتي باين التي كانت أول من قام بتسجيل التواصل بالأمواج ما تحت الصوتية بين الفيلة، والقدير ريتشارد ليكي، الذي أنشأ «خدمات الحياة البرية» في كينيا، وعنون مذكراته عام 2002، «حروب الحياة البرية: معركتي من أجل إنقاذ فيلة كينيا».

ويروي ليكي في وصفه حكاية مألوفة عادية ومحبِطة: عن سرقة العاج وقتل لصوصه؛ عن الفساد والحكومات التي تفتقر إلى الكفاءة، عن وطأة الفقر الإنساني مقروناً بتراجع المأوى الطبيعي. وأشدّ ما يستوقف ليكي هو سرقة العاج، فقد شهد تناقص عدد الفيلة في كينيا من حوالي 100.000 فيل عام 1979 إلى خُمس هذا العدد خلال عقد واحد. وقدمت حديقة سيلوس الوطنية في تانزانيا رقماً مماثلاً، وعانت بطريقة مماثلة من خسائر فادحة. على أية حال، بعد وضع

الفيل على قائمة الأنواع المهددة بالانقراض، وبعد منع تجارة العاج، فقد استرجعت جمهرات الفيلة عافيتها جزئياً على الأقل في تانزانيا التي بلغ عدد فيلتها عام 2007 حوالي 108.000، وكينيا (23.000)، وأوغندا (2.300). أما الجمهرات المبعثرة في السودان والصومال وأريتيريا ورواندا، فقد بقيت في ظروف تفتقد إلى الأمان ولا نعرف عنها إلا القليل. وتضمنت مساعي ليكي تنظيم محرقة عامة شهيرة ومثيرة للجدل لكومة هائلة من العاج في كينيا عام 1989، وقد تمت محاكاتها في تشاد عام 2007، وإن يكن بقدر أقل من الاستعراض. ومع ذلك، فإنّ تانزانيا هي الدولة الوحيدة اليوم التي اعتمدت استراتيجية منسقة للمحافظة على الفيل.

وعلى الرغم من التحسن الجزئي لأوضاع الفيلة في مناطق عديدة، فقد تفاقم الصراع بينها وبين الإنسان. وفي بعض المناطق، شرع بعض المدراء مثل أيان باركر بالمجادلة في أنّ سرقة العاج لم تكن المشكلة الكبرى، وإنما انحسار المأوى الطبيعي، حيث لم تكن المشكلة هي فقدان أعداد كبيرة من الفيلة، وإنما وجود أعداد كثيرة منها لا تسعها الأرض المتاحة. ومن هنا انطلقت للمرة الأولى سياسة «الاصطفاء» المثيرة للجدل، كاستراتيجية إدارية في تسافو في مطلع ستينيات القرن العشرين، وقام باركر نفسه بتنظيم عمليات الاصطفاء في حديقة شلالات مارتشيسون الوطنية منذ عام 1965 فصاعداً. لقد سموا هذا الاصطفاء «تقليص العدد من أجل غايات علمية»، وأنشأوا تمويلاً عن طريق ترويج منتجات الفيل وبيعها. كان بيتر بيرد، أحد أبرز صيادي الحيوانات الكبيرة، وقد أيّد هذه الاصطفاءات، موثقاً إياها في كتابه المريع في صراحته، «نهاية اللعبة».

وكانت قضايا جمهرات الفيلة أشد حضوراً في إفريقيا الجنوبية التي حققت انعطافاً ملحوظاً في واقع هذه الجمهرات. فهنا أيضاً،



بول بوسمان فنان سحرته «الحيوانات العظيمة ذوات الأنياب» في حديقة كروغر الوطنية، جنوب إفريقيا.

أصبح الفيل الرمز «الأساسي» الأبرز للجهود الحثيثة المبذولة للمحافظة على الأنواع، تماماً كما كان من قبل الرمز الأساسي لبسالة الصياد. إنّ الحاجة «الطبيعية» المزعومة لدى ذكور البشر المُشعرين، قد أعيدت صياغتها من جديد في مفهوم أحدث، هو «الصيد الأخضر». ففي محمية متاخمة لـ كروغر، يدفع الصيادون نقوداً كي يسددوا سهاماً مخدرة على الحيوانات ذوات الأنياب، قبل أنْ يضعوا لها أطواقاً لاسلكية، عوضاً عن قتلها. وعلى نحو مماثل لأسلافهم الصيادين في القرن التاسع عشر، بمستطاعهم أنْ «يشفوا غليلهم» ويساهموا في العلم في آن معاً. ومع ذلك فإنّ «نسبة التحول» من الصيد المميت إلى الصيد الأخضر لم تتوضح بعد، ويعارض بعض النشطاء في مجال حقوق الحيوان حتى هذا الشكل الملطف من استغلال الفيلة.

أما اليوم، فيشير الحيوان الكبير ذو الناب إلى عصر عظيم وموروثات عظيمة، أكثر من كونه غنيمة مجزية ميتة؛ ولذلك فإنّ نجاته هي انعكاس للجهود الكبيرة في إطار المحافظة على الأنواع.



وفي كينيا، استأثر بالأضواء الفيل الأسطوري أحمد من مارسابيت، وفي جنوب إفريقيا استحوذت الحيوانات ذوات الأنياب في حديقة كروغر على خيال كثير من الناس، كما في كتاب أنتوني هول مارتن «السبعة الرائعون» المزوّد بلوحات رسمها بول بوسمان، وحتى كتابه الأخير «الحيوانات العظيمة ذوات الأنياب في إفريقيا». فتتم تسمية هذه الحيوانات، وتقتفى ويعلن عليها الحداد عندما تموت، كما لو كانت بشراً.

إن التواصل من خلال الصوت واللمس والإيماء أمر بالغ التعقيد بين أعضاء هذه المجموعة من الأمهات بالتبني في آدو، وهذا أحد العوامل في جدال الاصطفاء.

إنّ قصة آدو، المحمية القريبة من منزلي التي ذكرتها في بداية هذا الكتاب، هي مثال جيد عن الانعطافة المذكورة في جنوب إفريقيا. فخلال مسار القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، جرّدت مستعمرة كيب في جنوب إفريقيا بأكملها من الفيلة، شأنها شأن قسم كبير من شبه القارة. ونجت جمهرة صغيرة في القرن العشرين كانت تعيش في أشدّ أحراش الفربيون كثافة في آدو، وبوسعنا أنْ نفهم كونها

مجموعة عدوانية وشديدة الحذر، حيث كانت تغير بشكل دوري على مزارع الحمضيات المزهرة على ضفاف نهر سانديز المجاور، مما دفع سكان المنطقة إلى الاستعانة بصياد محترف هو الرائد الشهير بريتوريوس من أجل إبادتها. وفي عام 1925 كان بريتوريوس قد قلّص عددها (في اعتقاده) إلى16، واعتقد آخرون أنه قد تبقى حوالي 50 فيلاً. وفي جميع الأحوال، لقد انقلبت معدة بريتوريوس وانقلب الرأي العام، واتخذ قراراً بأخذ الفيلة الناجية إلى محمية وأسرها وراء سياج متين من الأسلاك وقضبان سكك الحديد.

واليوم، تحوي آدو حوالي 400 فيل، يتحدر معظمها من المجموعة الأصلية، تمت مصالبتها وراثياً مع بعض الفيلة المستوردة من كروغر، وتوسع النطاق الذي تتحرك فيه توسعاً هائلاً ليبلغ خمسة أضعاف المساحة الأصلية، إذ تمّ شراء المزارع المجاورة وإلحاقها بها. وبهذا المعنى أيضاً، فإنّ آدو تعكس التاريخ الأوسع لحدائق الحياة البرية في جنوب إفريقيا؛ من بداياتها المتعثرة إلى الوقت الراهن حيث توسعت بما يسمح للسياح بقيادة سياراتهم داخلها. وتُبذل جهودٌ كبيرةٌ اليوم لإنشاء ما يسمى «حدائق السلام»، وهي تجمعات عابرة للحدود تشكلت من المعابر والمحميات الموجودة مسبقاً، مما قد يؤدي دوراً كبيراً في التخفيف من وطأة الاكتظاظ داخل المحميات.

وبدأت كبرى محميات جنوب إفريقيا، وهي حديقة كروغر الوطنية، في أواخر القرن التاسع عشر كمكان يقتصر فيه الصيد على النخبة السياسية البيضاء. وخلافاً لما يعتقد عامة الناس، لم يدشنها الرئيس أوم بول كروغر المعروف بمزاجيته، وإنما سميت على اسمه من بعده، فهو في الحقيقة كان يعرقل إنشاءها. إلا أنها توسّعت لاحقاً لتصبح في مساحة بلجيكا، وتهجّر أعداداً كبيرة من الناس المقيمين هناك في أثناء عملية توسيعها، وكرست لإعادة بناء

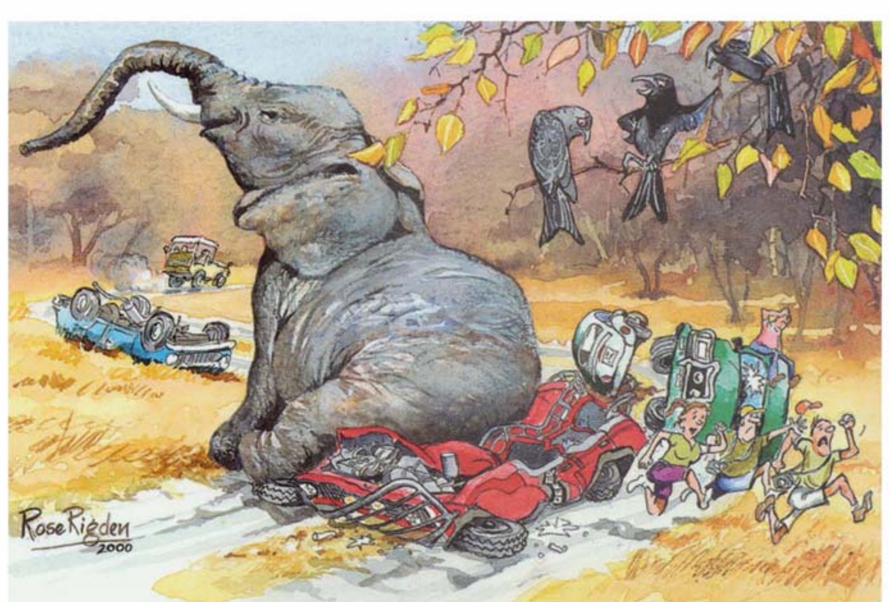


الجمهرات الحيوانية عوضاً عن تشريدها. أما كروغر فلم تكن فيها، عند افتتاحها، أية فيلة تقريباً، وربما لم يكن هناك الكثير منها في أي وقت. ويوجد فيها الآن حوالي 14.000 فيل. وهذا الرقم، بحسب علماء بيئة عديدين، يتجاوز طاقة النظام البيئي على الاحتمال. فلقد شاهد مدراء المحميات وعلماء البيئة مئات من أشجار الأكاسيا والباوباب مجردة من أوراقها تجريداً مميتاً أو ساقطة على الأرض، ويعود السبب أحياناً إلى اللهو أكثر من الحاجة إلى الغذاء، مع تأثيرات سلبية على العديد من الفصائل الأخرى المعتمدة على هذه الأشجار، بدءاً من الوعل الإفريقي العاشب إلى العقاب والحشرات. وكانت الفيلة، كما يقول المتذمرون، «المهندسون البيئيون»، وبمقدورها «تحويل» مساحات واسعة من الشجر إلى مرعى في وقت قصير.

فيلة تتلف النبات: هذا الفيل ذو «الرأس الكبير» يقتلع شجرة من جذورها، من صحيفة بريطانية مجهولة، حوالي 1890، تحفظ لنا التقاليد الفنية المفتقدة إلى الدقة.

ومن هنا، خصصت لحديقة كروغر خلال ستينيات القرن العشرين «طاقة استيعاب» نظرية تكفي 7.000 فيل. ولا بدّ من الإقرار بأنّ هذه الملاحظة لا تعدو كونها تلميحاً خطيراً، لكل فيل ميل مربع واحد تقريباً، لأنّ الدراسات الإحصائية الطولانية المتوافرة لم تكن كافية إطلاقاً ليبنى عليها أي نموذج. لقد أخذت نظرية «طاقة الاستيعاب» بأكملها، بشكل غير مناسب وقابل للجدل، عن نماذج المواشي المدجّنة. فعلى سبيل المثال، ما من أحد يعرف حقاً إلى أي مدى تستطيع الفيلة أنْ تنظّم معدلات الولادة بنفسها حالما يشح الغذاء النباتي الملائم، أو إذا نضبت موارد الماء الاصطناعية، أو إلى أي مدى قد يتأذى التنوع الحيوي حقاً على المدى الطويل. إنّ المقالات العلمية التي يُقدر عددها بـ 250 مقالة منشورة عن هذه القضية في كافة أرجاء العالم، تنقسم إلى نصفين تقريباً، بين أولئك الذين يقرّون بأذى يتعذر إصلاحه، لأنّ الفيلة هي الملامة عليه، وبين أولئك الذين يرون عكس ذلك. وببساطة، لا يوجد هناك أي إجماع في هذا الشأن.

ولن تصدقوا إذا ما استمعتم إلى بعض من مدراء الحديقة الأشداء، وحتى بعض علماء البيولوجيا. إحدى المشاكل، في الواقع، هي أنّ لدى مدراء الحديقة رؤية معينة عما «ينبغي» أنْ تبدو عليه أية حديقة، وعن الأنواع الأخرى التي «يتوجب» أنْ تتضمنها، ويرغبون في إدارة المحمية استناداً إلى هذه الرؤية. إنّ هذا المنظور، على الرغم من صياغته اليوم بلغة «التنوع الحيوي»، هو في الصميم منظور جمالي وجامد، وهذه نقطة قوبلت ذات مرة بإقرار معلن في كتيب نشر عام 1989، عنوانه «إدارة الفيل في زمبابوي». وفي الحقيقة، فإنّ الأنظمة البيئية تتغير بمرور الوقت تغيراً جذرياً، وما من نقطة بداية «صحيحة» واحدة. ولكن لم يتحقق إلا فهم ضئيل للتغيرات والتموجات على المدى الأطول زمنياً، على الرغم من البداية الواعدة التي تمثلت في دراسات اعتمدت على غبار الطلع في تسافو، وأعطتنا فكرة ما



«إنه أسلوب الطبيعة في الحفاظ على أعداد منخفضة!»: تقدم رسامة الكاريكاتير روز ريغدين حلاً لمعضلة التزايد السكاني.

عن نظام النبات خلال فترة 1.500 سنة. ولكن سيتضح أن «الوعي المتنامي بين علماء البيئة الأكاديميين والمتطوعين تجاه الطبيعة الديناميكية للنظم البيئية، لم تتبناه إلا نادراً السلطات المعنية بإدارة الحياة البرية»[cvi]. وعلاوة على ذلك، ولأنّ الضغط الذي مورس من أجل الاصطفاء كان مرتبطاً على الأغلب ببيع منتجات الفيل، تحت مزاعم الحصول على المال لدعم المحافظة على الفيل، فقد بدأ الشك يكتنف «الاصطفاء»؛ لأنه «في جوهره برنامج لجني العاج يعمل على محصول وفير قابل للتجدد إلى الحد الأقصى»[cvii]. وقدّرت منظمة «الأرض» الإيرادات المحتملة في عام 2005 بـ 6.5 مليون راند لكل 800 فيل قتيل – وهي حصيلة معتبرة.

وفي جميع الأحوال، فإنّ إدراك ازدياد عدد الفيلة في كروغر قد

حرّض على القيام باصطفاء سنوي قد يصل إلى 1000 فيل سنوياً، حيث يُزوّدُ مصنعٌ ضخمٌ، ولكن سريٌّ، لمعالجة منتجات الفيل يقع في أقصى الحديقة. لقد قُتل حوالي 17.000 فيل بين عامي 1966 و1995، عندما فرض النشطاء في حقوق الحيوان قراراً رسمياً بوقف هذه الإجراءات. في البداية استخدمت البنادق وحدها، ثم مرخّ عضلي اسمه ساكسينيل كولين كلورايد (Scoline)، يخدر الحيوان ولكن يبقيه واعياً إلى أن تطلق عليه النار. لقد أدين هذا الفعل لتسببه بإرهاق عصبي لا داعي له، فتوقف العمل به في أمكنة أخرى، إلا أنَّ جنوب إفريقيا واصلت استخدامه إلى أن تم وقف الاصطفاء. وأكّدت منظمات حقوق الحيوان مثل IFAW، الصندوق العالمي من أجل تحسين أوضاع الحيوان، أنّ هذه الممارسة هي ممارسة «قاسية، لا أخلاقية وتفتقد إلى الصحة من الناحية العلمية»[cviii]. ومنذ ذلك الحين، تم اتباع استراتيجية أرقى وأكثر إثارة للاهتمام، وذلك بتقسيم كروغر إلى مناطق عديدة، يتم التعامل مع كل منها بطريقة مختلفة، تتراوح من صيد بعض الفيلة إلى تركها وشأنها تماماً. إنّ هذا الأمر يعكس انبثاق مفهوم «الترقيع» ككلمة سحرية يستخدمها علماء البيئة الراغبون في الحفاظ على التنوع الحيوي. وأياً كان الأمر، يبقى علينا أنْ نرى ما ستكون عليه محصلة هذه الأمور على المدى البعيد. وفي الوقت الحالي، فإنّ احتمال الاصطفاء قد أطل برأسه من جديد وأثار جدلاً شديداً بين السياسيين والفلاسفة، إضافة إلى علماء البيئة والقيمين على الإدارة. ففي 1 مايو 2008، ألغيت القوانين التي أوقفت الاصطفاء في جنوب إفريقيا ثمانية عشر عاماً، وإنْ كان قد أحيط بشروط صارمة الآن. إنها بالتأكيد المفارقة الأحزن في تاريخ المحافظة على الأنواع بأسره، فبينما تبذل في أرجاء العالم كله جهود حثيثة لإنقاذ كل فيل، لا تزال هناك أماكن ترى أنّه من الضروري تماماً قتل الآلاف منها.

إنّ سجال الاصطفاء هو موضوع معقد. فهو أولاً منقسم انقساماً صارخاً بين علماء البيئة «البراغماتيين»، العلميين، الإداريين، وبين قوى الرأي العام «العاطفية»، الغربية عموماً، المدافعة عن حقوق الحيوان. وتميل المجموعة الأولى إلى التفكير بالإحصائيات، بينما تفكر المجموعة الثانية بالتعاطف مع الفيلة المعذبة. وهذا الانقسام يعاود الظهور في كل مكان. فعلى سبيل المثال، اتهم ريتشارد ليكي من قبل بعض علماء البيئة بأنه «عاطفي». وقبله، احتقر العلماء باحثين من أمثال دوغلاس – هاميلتون وسينثيا موس لأنهما تجرآ على تسمية مواضيعهن أكثر من تقديمهن أرقاماً واقعية. وهنا نذكر ماساكازو كاشيو، وهو موظف في إدارة الغابات قام بافتتاح ورشة عمل FAO مهمة عن الفيلة الآسيوية الأليفة في بانكوك عام 2001، حثّ فيها المشاركين على التزام الصدق، ولكنه ناشد الحاضرين

أرجوكم تذكروا نقطة واحدة مهمة، ألا وهي أنْ تكون عباراتكم علمية منطقية عقلانية، ومسندة إما بأعمال البحث أو بالحقائق التي لاحظتموها ملاحظة مباشرة أو جربتموها. أرجوكم تجنبوا الدعاية السياسية، والمناقشات العاطفية، والأنا الشخصية، لأنها ليست ملائمة ولا بنّاءة...[cix]

وهناك انقسام بين وجهة نظر الكبيرة دافني شيلدريك التي تقول إنّ «ذكاء الفيلة الإنساني الطابع ومودتها «هو أمر تقاعس المجتمع العلمي عن الإقرار به»، وبين تحذير عالم البيئة بول مانجر من أن «الفيلة هي الفيلة، وليست كائنات بشرية رمادية ضخمة». وينصح مانجر عوضاً عن ذلك «بدراسة تفصيلية لدماغ الفيل، مما سيوفر منطلقاً علمياً قوياً لتفسير سلوك الفيل»[cx]. ويبدو أنّ هذا الجدال لن يحقق أي تقدم ملحوظ ما لم يعثر على طريقة للتغلب على هذا الانقسام الزائف.

وبالطبع، لا يفتقد العلماء والمدراء إلى العاطفة افتقاداً كلياً. يدهشنا أنْ نرى كيف تغيرت طرائق الاصطفاء بمرور السنوات مع تعمق فهم حساسيات الفيل. فلم يدركوا فقط أنّ قتل ذكور مختارين لم يظهر التأثيرات التي طمحوا إليها في سبيل التقليل من تكاثر الفيلة، وإنما لوحظ أيضاً أنّ الفيلة المتبقية كانت تعاني من «رضّ نفسي» كبير شأنها شأن البشر. وقد تسللت مثل هذه الملاحظات حتى إلى واحدة من أرقى المجلات العلمية، وهي مجلة Nature[cxi]. ومن هنا، تبنى القيّمون سياسة ذبح مجموعات كاملة، بدءاً بالفيلة الأم ووصولاً إلى أصغر الولدان. وقد زاد من تعقيد هذا الأمر الآن معرفة أنّ المجموعات الأخرى التي تبعد عشرات الأميال أحياناً تلتقط هذه البلية بالأمواج تحت الصوتية التي تطلقها العوائل المستهدفة، وقد تبدو عليها علائم الاضطراب. وهذه الميزات «العاطفية» هي أيضاً ما استنهض المنظمات الغنية المعنية بتحسين أوضاع الحيوان كي تضغط على الحكومات من أجل إيقاف الاصطفاء، على الرغم من استمرار عدد من المنظمات غير الحكومية NGOS الأساسية بدعم هذه الطريقة بحذر، مثل الصندوق العالمي من أجل الطبيعة والحياة البرية والبيئة في جنوب إفريقيا، وإنْ كان هذا الدعم بمثابة ملاذ أخير.

ينبغي على المرء أنْ يشعر بهؤلاء المدراء، إذ يتعين عليهم، رغم كل شيء، القيام «بشيء ما»، وقد يعني اتخاذ القرار بعدم القيام بأي شيء، ربما أثناء قحط شديد، المنظر المريع لمئات الفيلة وهي تموت عطشاً على مرأى منا، كيف سيؤثر «ذلك» على السياحة؟

لقد ركز الجدال في قسم كبير منه على البدائل الممكنة للاصطفاء. وهذه البدائل محدودة: توسيع نطاق المحميات، ونقل الفيلة إلى أمكنة أخرى وتحديد النسل. لقد استنفدت فرص كل من التوسع والنقل الباهظ التكاليف في إفريقيا الجنوبية. وعلى الرغم من تزايد أعداد المحميات الخاصة مؤخراً، وكذلك نقل بضع مئات

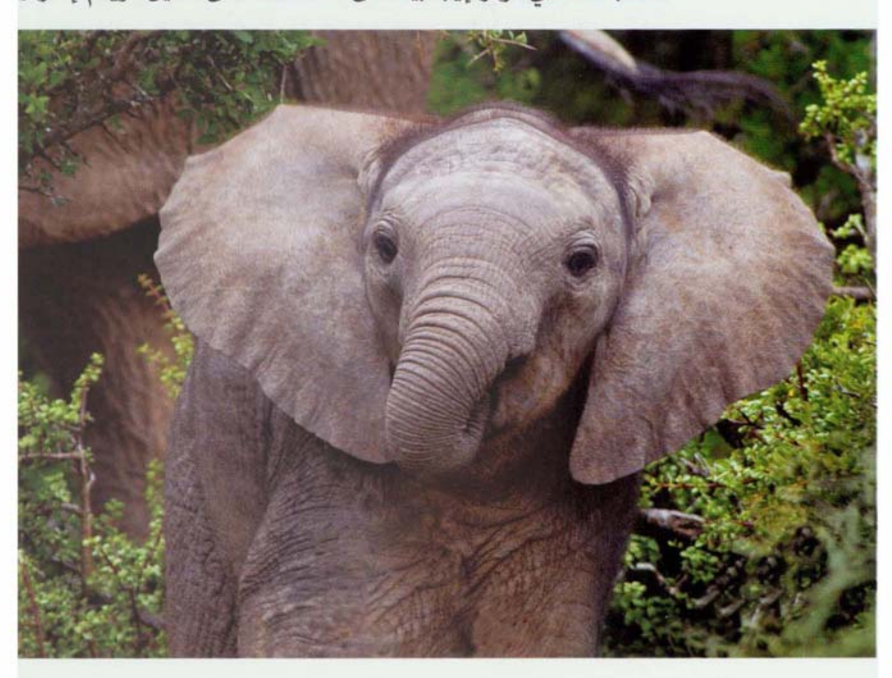
من الفيلة إلى حدائق مثل آدو أو إلى محميات خاصة، تتراوح من محميات الغابات قرب كنيسنا إلى المحميات شبه الصحراوية في كارو، فلم يبقَ هناك الكثير من المساحات الخالية المتوافرة. إلاّ إذا انتقلت أعداد كبيرة من البشر عوضاً عن ذلك. ومثل هذه المساحات أقلّ في آسيا، حيث تم اقتراح «معابر الفيلة» بين المآوي الطبيعية الملائمة لها، غير أنّ تنفيذها يبدو بعيد الاحتمال.

ويبقى تحديد النسل محوراً للبحوث المكثفة. فاقترحت أدوية متنوعة، ولا سيما بورسين زونا بيليوسيدا (PZP)، ولكن لم يختبر أي منها بالشكل الكافي، ويبقى مدى نجاحها محفوفاً بالشكوك. فعلى سبيل المثال، فإنّ تسديد السهام المخدرة على إناث مختارات من أجل منع الحمل سيتسبب بشدة نفسية، ولا بد من إجرائه بشكل منتظم، ففي منطقة مثل كروغر، حيث يصعب العثور على الحيوانات بأية حال، ستكون المراقبة عن كثب أمراً ضرورياً، ولكنه مستحيل، إذ تحول التكاليف من دون ذلك. وما من أحد يعرف ما التبعات الاجتماعية التي ستنجر إليها الفيلة إذا ما، لو قلنا، أعطيت بعض الإناث من دون سواها موانع حمل، أو إذا ما عُقمت تعقيماً نهائياً. وقد يبقي منع الحمل معدلات الولادة في مستويات منخفضة، غير أنه لن يخفض الأرقام المطلقة، ولهذا لن تزول مشكلة تأثير الفيلة على الغطاء النباتي. ويحتمل تطبيق منع الحمل فقط في الجمهرات الصغيرة للغاية والمسيطر عليها سيطرة محكمة. ولكن تطبيقه بشكل فعال مقروناً بالاصطفاء الدقيق يجري مثلاً في حديقة تيمبه للفيلة في جنوب إفريقيا.

وماذا عن المستقبل؟ إنّ مصير الفيل، بشكل من الأشكال، ليس كالحاً بمجمله. فهناك جمهرات تتمتع بالصحة في بعض الأماكن، ولكنها محكومة بالموارد المتوافرة ضمن مساحات ضيقة النطاق. لقد توسعت المعرفة العلمية بالفيلة واحتياجاتها توسعاً كبيراً. ومن

هنا تحسنت التشريعات القانوية المعتمدة تدريجياً في أرجاء العالم. فيتعين على حدائق الحيوان وحلبات السيرك أنْ تعيد النظر جذرياً في ما تقوم به. وهناك اليوم عدد من المنظمات المكرسة للفيل لا يتسع المجال لذكرها كلها، منظمة رعاية الفيل الدولية، ومؤسسة المثلث الذهبي للفيل الآسيوي، وجمعية أصدقاء الفيل الآسيوي، وجمعية أنقذوا الفيلة، والفيلة لإفريقيا إلى الأبد، وعشرات سواها. إنَّ الوعي، بوجود بدائل العاج مثلاً، يتقدم، وإن لم يصل بعد إلى الحد المطلوب في الشرق الأقصى. إنّ ترويض الفيلة الإفريقية من أجل غايات سياحية، وإنْ كان هذا الأمر مثيراً للجدل، يتيح للمزيد من الناس على الأقل الفرصة المذهلة كي يلمسوا فيلاً، فضلاً عن بعض المنتجات التي تؤثر إيجابياً على المحافظة على الفيل. ويتم إحراز

إن العنصر «الجذاب» في الفيل الرضيع الذي يكسوه وبر خفيف قد يسفر عن اتهامات بتحويل الفيلة إلى موضوع «عاطفي».



بعض التقدم في إفريقيا الوسطى والغربية فيما يتعلق بتأسيس وإدارة مناطق محمية بشكل أفضل. يبذل المزيد من الجهود في العثور على طرق عملية للسماح للفيلة والمجتمعات الريفية بالتعايش معاً.

ولجميع تلك الأسباب، يبدو التوسع البشري المدمر غير قابل للتوقف؛ وسيبقى فقدان المأوى الطبيعي والاستغلال غير المحدود، تهديدات مستمرة لبقاء الفيل في المستقبل المنظور. ففي حين أنّ المطالبة بالتنوع الحيوي والملاحظات العلمية المتعلقة به هي مطالبة ضرورية، يبدو لي أن تعاطفاً بسيطاً مع مصير مخلوق غير عادي هو ما سيحسم الأمر في نهاية المطاف. ولذلك أودّ أنْ أترك الكلمة الأخيرة للروائي رومان غاري، في ذاك المزيج الغريب من التجهم الوجودي الغالي (الفرنسي) والنزعات المبكرة للمحافظة على الأنواع، في روايته الآنفة الذكر «جذور السماء»:

«أتحدى الجميع إذا استطاع أحد تمالك دهشته عندما ينظر إلى الفيلة. فجسامتها، وفوضاها، وقاماتها العملاقة، تمثل قدراً هائلاً من الحرية يجعلك تحلم. إنها... نعم، إنها آخر الأفراد...».

«كلا يا آنسة، أنا لا أصطاد الفيلة. يكفيني رضا العيش بينها. إني أحبها. أحب النظر إليها، والإنصات إليها، ومشاهدتها على مد الأفق. فلأخبرك بالحقيقة، سأعطي كل ما أملك كي أصير أنا نفسي فيلاً»(cxii).

الجدول الزمني للفيل

60 مليون سنة ق.م:
الخرطوميات وحيوانات الزلم تنفصل عن سلف مشترك

40 مليون سنة ق.م:
تجميع الحكايات الأسطورية عن الفيل في (المهابهاراتا والرامايانا)، ٦٠٠ ق.م (٦٠٠ ب.م).

24 مليون سنة ق.م:
العصر الميوسيني يفرز
deinotheres
stegodons
gomphotheres

3 ملايين سنة ق.م:
افتراق الفيل الآسيوي عن الفيل الإفريقي وراثياً.

3000 ق.م:
أسر الفيلة الآسيوية وترويضها للمرة الأولى..

1500 - 1000 ق.م:
يصبح المحار رفاهية على موائد الأرستقراطية الأوروبية في القرن الثامن عشر



347 ق.م:
الاسكندر الكبير يواجه فيلة بوروس في هيداسبس

221 ق.م:
هانيبال يعبر جبال الألب مع فيلته.

1880 - 1900
أيام عزّ الصيادين البيض العظام أمثال نيومان وسيلوس.

1882
سيرك بارنوم يأخذ الفيل «جمبو» من لندن إلى الولايات المتحدة الأمريكية.



1899
أضخم الأنياب المذكورة، تعود إلى فيل كيني.

2 مليون سنة ق.م: العصر الجليدي الوجيز وحدوث انفجار في عدد الفيليات.

25000 ق.م: أوائل الرسوم الصخرية في فن الأدغال في إفريقيا الجنوبية تتضمن الفيلة.

17000 ق.م: الماموث مرسوماً على جدران كهف في فرنسا.

11000 ق.م: الماموث ينقرض في أمريكا الشمالية بسبب تضافر التأثيرات المناخية والبشرية.

600 ق.م: صورة الإله غانيش تتغير تحت تأثير الآريين.

1552 ق.م: الفيل «سليمان» يهدى إلى الإمبراطور ماكسيميليان.

1811 ق.م: تصنيف عائلة الخرطوميات على يد العالم إيلغر.

1850: صناعة البيانو تشهد قفزة هائلة، وتفتح مجالاً واسعاً أمام تجارة العاج.

1931: هيكتور بوليتو ينشر كتابه "المحار المجيد»

1951: الإعلان عن تأسيس حديقة سيرينغيتي، بالتوازي مع محميات فيلة كبيرة أخرى.

1973: وضع الفيل الآسيوي على الملحق ١ في CITES

1989: CITES تعلن عن حظر تجارة العاج.

Alter، Stephen، Elephas Maximus: A Portrait of the Indian Elephant (Orlando، fl، 2004)

Baratay، Eric، and Elisabeth Hardouin-Fugier، Zoo: A History of

Zoological Gardens of the West (London، 2004)

Bosman، Paul، and Anthony Hall-Martin، The Magnificent Seven and the Other Great Tuskers of the Kruger National Park (Cape Town، 1994)

Carrington، Richard، Elephants (London، 1958)

Chadwick، Douglas H.، The Fate of the Elephant (London، 1992)

Delort، Robert، The Life and Lore of the Elephant (London، 1992)

Douglas-Hamilton، Iain، and Oria Douglas-Hamilton، Among the Elephants (London، 1975)

Eltringham، S. K.، ed.، The Illustrated Encyclopaedia of Elephants (London، 1997)

Gary، Romain، The Roots of Heaven (London، 1958)

Gavron، Jeremy، The Last Elephant: An African Quest (London، 1993)

Gowdy، Barbara، The White Bone (Toronto، 1998)

Gröning، Karl، and Martin Saller، eds، Elephants: A Natural and Cultural History (Cologne، 1998)

Hanks. John. A Struggle for Survival: The Elephant Problem (Cape Town. 1975)

Künkel. Reinhard. African Elephants (New York. 1999)

Leakey. Richard E.. Wildlife Wars: My Battle to Save Kenya's Elephants (New York. 2001)

Meredith. Martin. Africa's Elephant: A Biography (London. 2001)

Moss. Cynthia. Elephant Memories: Thirteen Years in the Life of an Elephant Family (Chicago. il. 2000)

Payne. Katy. Silent Thunder: The Hidden Voice of Elephants (Jeppestown. 1998)

Scigliano. Eric. Love. War and Circuses: The Age-Old Relationship

between Elephants and Humans (New York. 2002)

Scullard. H. H.. The Elephant in the Greek and Roman World (London. 1974)

Shand. Mark. Queen of the Elephants (London. 1996)

Smith. Wilbur. Elephant Song (London. 1991)

Sukumar. Raman. Elephant Days and Nights: Ten Years with the Indian Elephant (Oxford. 1994). The Living Elephants: Evolutionary Ecology. Behaviour and Conservation (Oxford. 2003)

Sykes. Sylvia K.. The Natural History of the African Elephant (London. 1971)

Williams, Heathcote, Sacred Elephant (New York, 1989)

Williams, J. H., Elephant Bill (London, 1950)

--Bandoola (London, 1953)

منظمة رعاية الفيل الدولية
Limo View lane، Hohenwald tn 38462، usa 166
www.elephantcare.org

جمعية أصدقاء الفيل الآسيوي
Ram-Indra Road 687/2
Soi 32، Tharaeng، Bangkhen، Bangkok، Thailand
www.elephant-soraida.com

مؤسسة الفيل العالمية
po Box 366، Asle tx 76098، usa
www.elephantconservation.org

الصندوق العالمي لتحسين أوضاع الحيوان
Main Street، po Box 193 411
Yarmouth Port، ma 02675، usa
www.ifaw.org

المجموعة المختصة بالفيل الإفريقي، التابعة للاتحاد الدولي للمحافظة على الطبيعة IUCN
po Box 68200، Nairobi، Kenya
www.iucn.org/afesg

لجنة إنقاذ الأنواع، التابعة لـ IUCN
p/Bag x7، Claremont 7735، Cape Town، South Africa
www.iucn.org/ssc

جمعية أنقذوا الفيلة
po Box 54667، Nairobi، Kenya
www.save-the-elephants.com

قاعدة بيانات عن الفيلة الآسيوية
www.asianelephant.net

محمية بوون لوت للفيلة
www.blesele.com

موقع يتضمن تقارير عن المستجدات يتم تحديثها يومياً
www.deselephantsetdeshommes.org

كتب مرجعية عن الفيل الإفريقي
/www.elephant.chabucto.us.ca

المعاهدات، والمواثيق، والتشريعات، تتضمن CITES
www.elephantcountryweb.com

www.elephant.elehost.com

www.helpingelephants.org

مؤسسة الفيل الذهبي للفيل الآسيوي
www.helptheelephants.com

www.himandus.net/elephanteria/index.html
يجمع هذا الموقع صور الفيل في الشعارات واللوحات الإعلانية
www.nal.usda.gov/awic/pubs/elephants/websites
www.natureartists.com/elephants.asp

كلمة شكر

أقنعني روبرت بايدر، مؤلف كتاب «الدب» في هذه السلسلة، كي أشارك بورقة عمل عن «الفيل»، ولولاه لما ألّفت هذا الكتاب، فقد ظل يولي اهتماماً عميقاً بالمشروع. وبالإضافة إلى جميع المصادر التي عدت إليها، هناك أناس كثيرون، بعضهم غافلون تماماً أو لا يعلمون، قد ساعدوا بشكل شخصي في جعل هذا الكتاب على ما هو عليه. سأدرج هنا أسماء أولئك الذين يسعني أنْ أتذكرهم، فقد قدموا لي النصح، أو الدعم، وأعاروني أو أعطوني كتباً، أو أرشدوني إلى المصادر، ومنحوني الهدايا، أو رحبوا بي في محمياتهم وحدائقهم، مع اعتذاري لكل من نسيتهم: روي بينفيس في حديقة كروغر الوطنية، يوهان بينيمان في متحف ألباني، هارولد فارمر، جين غلوفر، جيني غون، رون هول، بات إيروين: مالكولم هاكسلي، ماريكا بايرز، ديبي لاندمان والعاملين في متحف الأدب الإنجليزي الوطني، كريس كروغر من محمية الفيل في بليتينبيرغ باي، من دون ماكلينان، بين ماكلينان، كريس مان، غوني مارش، جيمي ماكفريغور، واين ماثيوز وبونغاني تيمبي من حديقة تيمبي للفيل، ودايلان ماكفاري، وسام نايدو، وكاتيا راثوفير، وآن سميلز، وبيتر سميلز، وماريس ستيفنز، ونورمان ترافرز من إيمري في زمبابوي، والدتي جيل وايلي، والبروفسور رودي فان أورد. أخصّ بالشكر البروفسور ريك برنارد والدكتور دان باركر من جامعة رودس لقراءتهما وتصويبهما أقساماً من المخطوط. وجزيل الشكر لجامعة رودس لتوفيرها الدعم العملي والتمويل السخي.

كلمة شكر لمصادر الصور

يود المؤلف والناشرون التعبير عن شكرهم لمصادر الصور التوضيحية المذكورة أدناه، و/أو للسماح بإعادة طباعتها.

Courtesy Susan Abraham: p. 103; © Africa Geographic: p. 111; photos by or courtesy of the author: pp. 8, 85, 103, 161, 166, 175; photo Greg Baker /ap Images, courtesy PictureNet: p. 23; photo © Steve Bloom/ stevebloom.com: p. 36; courtesy the artist (Paul Bosman): p. 174; photo © the Trustees of the British Museum, London: p. 8; photo by permission of David Coulson/tara: pp. 66, 67; photo courtesy Sean Eriksen: p. 40 (foot); photo Eye Ubiquitous /Rex Features: p. 70; from William Fagg, Nigerian Images (London: Lund Humphries, 1990): p. 80 (top and lower left); photos courtesy David Ferris /Asian Elephant Art & Conservation Project, New York: pp. 146, 147; photo Charles Haynes: p. 69; photos Krishnanand Kamat/ Kamat's Potpourri (www.kamat.com): pp. 68 (top), 71; Killie Campbell Collection: pp. 52, 58, 176; photos courtesy of the Library of Congress, Washington, dc: pp. 17, 28, 49, 72, 73, 77, 94, 107, 109, 113, 115, 121, 137, 141, 149, 156, 157; photo Herbert List: p. 80 (top and lower left); photo James McCauley/Rex Features: p. 170; photos courtesy John McKinnell: pp. 29, 30, 33, 35, 39, 42, 48, 55, 57, 110, 182; photo Ben

Maclennan: p. 63; photo © Marie Mathelin/Roger-Viollet, courtesy Rex Features: p. 134 (foot); photo mdemon: p. 134 (top); photo courtesy Mana Meadows: p. 40 (top); Metropolitan Museum of Art, New York – photo Metropolitan Museum of Art Image Library: p. 75; photo A.E.W. Miles: p. 22; photo Peter Oxford/ Nature Picture Library/Rex Features: p. 6; Prince of Wales Museum of Western India, Mumbai: p. 123; © Rose Rigden, courtesy Footloose Enterprises: p. 178; photos © Roger-Viollet, courtesy Rex Features: pp. 136, 155; courtesy of Royal bc Museum Corporation: p. 20; from Sylvia Sikes, The Natural History of the African Elephant (Weidenfeld & Nicolson, 1971): p. 22; photo courtesy Patrick Slavenburg: p. 32; photo snap/Rex Features: p. 41; from Raman Sukumar, The Living Elephants, by permission of Oxford University Press Inc.: p. 10; from the exhibit tusks! of the Florida Museum of Natural History, photo by Jeff Gage © 2004: p. 14; courtesy Viv Bradshaw Foundation: p. 15; photos © Zoological Society of London: pp. 24, 44. reprint permissions Extract from 'The Graveyard of the Elephants' published in Kites (Cape Town: David Philip, 1990) © Chris Mann, by permission of the author. Extract from 'The Elephant' in 'New Yoruba Poems' by E. A. Babalola published in African Affairs (1954) by permission of Oxford University

Press. Extract from the eponymous poem in Absence of Elephants (Harare: College Press, 1990) © Harold Farmer, by permission of the author. Extract from 'One Elephant' published in A Ruthless Fidelity: The Collected Poems of Douglas Livingstone, ed. Don Maclennan and Malcolm Hacksley (Jeppestown, 2004) .by permission of Monica Fairall

الهوامش

i هارو سايغوزا ويوبا تاسود وبينجافون راتاناستاين، «ملاحظات عن الستيغودونتيدات الآسيوية»، الدورية العالمية، الأعداد cxxvi-cxxviii، (2005) صفحات 31-48.

ii مذكورة في كتاب رامان سوكومار، «الفيلة الحية: علم البيئة التطوري، والسلوك والمحافظة على النوع»، (أكسفورد 2003)، ص 18.

iii ياسكل شوشاني، «فهم تطور الخرطوميات: مهمة جسيمة»، نزعات في علم البيئة والتطور، العدد xiii/12 (1988)، ص 480-87.

iv إيريك سيليانو، «الحب والحرب وحلبات السيرك: العلاقة القديمة قدم الدهر بين الفيلة والبشر»، (نيويورك، 2002)، ص 20-21.

v روبرت ديلورت، «حياة ومعارف الفيل» (لندن، 1992)، ص 130.

vi نفس المرجع، ص 131.

vii www.situ.ru/culture/museum/mamont/index_eng.shtml (أطلق الموقع في فبراير 2007).

viii www.science.psu.edu/alert/schuster12-2005.htm (أطلق الموقع في 3 أغسطس 2008).

ix www.exn.ca/mammoth/Gods.cfm (أطلق الموقع في فبراير 2007).

x ديلورت، «حياة ومعارف الفيل»، ص 131.

xi مايكل أورد، «انقراض الماموث ذي الصوف: أكان السبب تجمداً سريعاً؟»، المجلة التقنية، العدد 3/15، ص 24-34 www.answersingenesis.org/Home/Area/Magazines/tj/docs/tj14_3-mo_mammoth.pdf.

xii سوكومار، «الفيلة الحية»، ص 29.

xiii نفس المرجع ص 143؛ غاري هينز، «مناظر الماموث الطبيعية، بلاد طيبة من أجل تجمعات الصيادين»، الدولية العالمية، cxlii-cxliii (2006)، ص 94.

xiv «هل قتل مذنّبٌ فيلة الماموث؟»، إيكونومست، 383 (24 مايو 2007)، ص 94.

xv شوشاني، «فهم تطور الخرطوميات». انظر أيضاً إلى شوشاني وباسكال تاسي، «تطورات التصنيف العلمي للخرطوميات»، الدورية العالمية cxxvi-cxxviii، ص 5-20.

xvi جوش تراباني ودانييل س. فيشر، «التمييز بين صنوف الخرطوميات باستخدام نماذج شريفر في دنتين الناب»، جريدة علم الأركيولوجيا، xxx/4 (2003)، ص 429-38.

xvii نانسي ي. تود، «إعادة تحليل الفيل الإفريقي، إيلفاس ريكي: لمحات عن المكان والزمان والتصنيف»، الدورية العالمية، cxxvi-cxxviii (2005)، ص 65-72.

xviii سوكومار، «الفيلة الحية»، ص 52.

xix نفس المرجع، ص 54.

xx هيثكوت ويليامز، «فيل مقدس»، (نيويورك، 1989)، ص 78.

xxi ي.ج. روبنهايمر وآخرون، «تنسج النموذج التربيعي للعاج لدى الفيل الإفريقي (loxodonta Africana)»، سجلات البيولوجيا الفموية، xliii/12 (1998)، ص 969-77، انظر أيضاً ف. بوراغاتو وآخرون، «وسيلة جنائية جديدة من أجل تحديد عاج الماموث أو الفيل»، دورية العلم الجنائي، 3-xcvi/2 (1998)، ص 189-96.

xxii كاتي باين، «رعد صامت: صوت الفيلة الخفي»، (جيبستاون، 1998)، ص 13-14.

xxiii بول بوسمان وأنطوني هول- مارتن، «السبعة الرائعون: وحيوانات أخرى كبيرة من ذوات الأنياب في حديقة كروغر الوطنية»، (كيب تاون، 1994)، ص 50.

xxiv بولي ك. فيليبس و جيمس إدوارد هيث، «التبادل الحراري بواسطة أذني الفيل الإفريقي (loxodonta Africana)»، الكيمياء الحيوية المقارنة والفيزيولوجيا، القسم أ: الفيزيولوجيا، ci/4 (1992)، ص 693-9.

xxv مذكور في كتاب إيريك سيليانو، «الحب والحرب وحلبات السيرك: العلاقة القديمة قدم الدهر بين الفيل والبشر»، (نيويورك، 2002)، ص 20.

xxvi ج.هـ. وليامز، «باندولا»، (لندن، 1953)، ص 79.

xxvii سينثيا موس، «ذكريات الفيل: ثلاثة عشر عاماً في حياة عائلة فيل»، (شيكاغو، il. 2000)، ص 128.

xxviii أنطوني هول- مارتن، «حياة مضت في لعبة المحافظة على الأنواع»، البوابة (سبتمبر 2000)، ص 57.

xxix انظر ميلاد دويهي، «زواج الفيلة: الفيل وآداب المائدة»، هوامش اللغة الحديثة، 1991) cvi)، ص 720-28.

xxx «كيف تجعل السحر يعمل»، .amerindea.com/symbol-elephant html.

xxxi كارين ماكومب وآخرون، «من التواصل بالتلميحات الصوتية عبر المسافات الطويلة، إلى الهوية الاجتماعية بين الفيلة الإفريقية»، سلوك الحيوان، (2003) lxv/2، ص 317-29.

xxxii كريس مان، «طائرات ورقية»، (كيب تاون، 1990)، ص 14.

xxxiii إيان دوغلاس-هاميلتون و أوريا دوغلاس-هاملتون، « بين الفيلة»، (لندن، 1975)، ص 265.

xxxiv «الفيلة تتعرف إلى صورتها في المرآة»، نيو ساينتست، 4 (cxcii/276 نوفمبر 2006)، ص 17.

xxxv دافني شيلدريك، «نوع قريب»، أفريكا جيوغرافيك، (2006) xiv/3، ص 26.

xxxvi بول مانجر، «الفيلة هي الفيلة»، أفريكا جيوغرافيك، (2006) xiv/3، ص 25.

xxxvii مايكل تشابمان، محرراً، «قرن جديد من الشعر الجنوب إفريقي» (جوهانزبيرغ، 2005)، ص 13.

xxxviii جوديث غليسون، محررة، «الورقة والعظم: قصائد مديح إفريقية»، (نيويورك، 1980)، ص 123.

xxxix مذكورة في كتاب ستيفان ألتر، «Elephas Maximus: صورة شخصية للفيل الهندي»، (أورلاندو، فلوريدا، 2004)، ص38.

xl نفس المرجع، ص 34.

xli روبرت ديلورت، «حياة ومعارف الفيل»، (لندن، 1992)، ص 48.

xlii نفس المرجع، ص 68.

xliii ريتشارد كارينغتون، «الفيلة»، (لندن، 1958)، ص 249.

xliv انظر «قلب فيل»، ميل والغارديان (جوهانزبيرغ)، قسم يوم الجمعة، 9-15 نوفم2.بر (2007)، ص 5.

xlv مورد خاي هاموتيني وألبرت بلانغر، «تسومو-شومو»، (غويرو، 1987)، ص 5، 188، 234، 382.

xlvi مجلة شؤون أفريقية، (1954) liii/213، ص 332.

xlvii ألكسندر ماك كول سميث، «الفتاة التي تزوجت أسداً»، (لندن، 1989).

xlviii كتاب مجهولون، في كتاب «كلمات تدور حول كلمات: مختارات من الشعر الشفوي في جنوب إفريقيا»، تحرير جيف أوبلاند، (باركلاندز، 1992)، ص 169.

xlix ديلورت، «حياة ومعارف الفيل»، ص 155.

l آرثر هـ. نيومان، «صيد الفيلة في إفريقيا الاستوائية الشرقية»، الطبعة الأولى 1898، (بولاوايو، 1982)، ص 107.

li ويلبور سميث، «أغنية الفيل»، (لندن، 1991)، ص 9-11.

lii دالين ماتي، «عوالم في غابة»، (هارموندزورث، 1984)، ص 71. كتبت ماتي روايات عديدة تتعلق بالفيل وتدور أحداثها في غابة كنيسنا.

liii إنيد بلايتون، «المقدمة»، «جان دو برونوف: قصص بابار (1941)»، (لندن، 1947).

liv www.timesonline.co.uk/tol/news/world/europe/article602843.ece.

lv www.brothersjudd.com/index.cfm/fuseaction/reviews.

detail/book-id/329.

lvi مذكور في كتاب إيريك سيليانو، «الحب والحرب وحلبات السيرك: العلاقة القديمة قدم الدهر بين الفيلة والبشر»، (نيويورك، 2002)، ص 206.

lvii تشارلز ديكنز، «أوقات عصيبة»، (هارموندز ورث، 1990)، ص 20-21.

lviii فرجينيا وولف، «الأمواج»، (هارموندز ورث، 1992)، ص 6.

lix فيكرام سيت، «الفيل والتدرج الآسيوي»، من كتاب «حكايات وحوش من هنا وهناك»، (لندن، 1994).

lx هارولد فارمر، «غياب الفيلة»، (هارار، 1990)، ص 34-5.

lxi دوغلاس ليفينغستون، «فيل واحد»، من كتاب «إخلاص لا يرحم: قصائد دوغلاس ليفينغستون الكاملة »، تحرير من دون ماكلينان ومالكولم هاكسلي، (جيبستاون، 2004)، ص 99.

lxii هيثكوت وليامز، «فيل مقدس»، (نيويورك، 1989)، ص 76.

lxiii انظر www.pocketelephants.com.

lxiv انظر www.himandus.net/elephanteria.

lxv إيفان فلاديسلافيتش، «متجر لا يهدأ»، (كيب تاون، 2001)، ص 1.

lxvi انظر www.creativepro.com/printerfriendly/story/20593.html.

lxvii انظر www.elephantcountryweb.com.

lxviii انظر www.dvdbeaver.com.

lxix انظر كتاب آلتر، «Elephas Maximus»، ص 93-4.

lxx كارل غرونينغ ومارتن سالر، محررين، «الفيلة تاريخ طبيعي وثقافي»، (كولونيا، 1998)، ص134.

lxxi ستيفان آلتر، (Elephas Maximus: صورة شخصية للفيل الهندي». (أورلاند، فلوريدا، 2004)، ص 154.

lxxii رامان سوكومار، «الفيلة الحية: علم البيئة التطوري، والسلوك والمحافظة على النوع»، (أكسفورد، 2003)، ص 72-4.

lxxiii هـ.هـ. سكالارد، «الفيل في العالم الإغريقي والروماني»، ص 34.

lxxiv لين دو آلويس، «الفيلة العاملة»، في موسوعة الفيلة الشاملة، تحرير س.ك. إيلترينغهام (لندن، 1997)، ص 119.

lxxv غرونينغ وسالر، «الفيلة»، ص 118.

lxxvi سكالارد، «الفيل في العالم الإغريقي والروماني»، ص 132.

lxxvii نفس المرجع، ص 151.

lxxviii ج.ر.ر تولكين، «سيد الخواتم: البرجان»، (لندن، 1979)، ص 336.

lxxix آلتر، « Elephas Maximus»، ص 157.

lxxx غرونينغ وسالر، «الفيلة»، ص 142.

lxxxi نفس المرجع، ص 193.

lxxxii ج.هـ. وليامز، «باندولا» (لندن، 1953)، ص 128.

lxxxiii من أجل تحديثات منتظمة لمثل هذه الوقائع، انظر www.deselephantsetdeshommes.com

lxxxiv تيد هـ. فريند، «سلوك فيلة السيرك المقيدة»، دراسات تطبيقية في سلوك الحيوان، (1991) lxii/1، ص 73-88.

lxxxv انظر www.elephantart.com

lxxxvi شارون فان ويك، «عود على بدء»، مذكورة في إيرثيير، 2004) i)، ص 58.

lxxxvii إيريك «حديقة الحيوان: تاريخ علم حدائق الحيوان في الغرب»، (لندن، 2004)، ص 36.

lxxxviii www.asianelephants.net

lxxxix «الجسئيات في حدائق الحيوان ومواجهة التحديات»، هيرالد تايمز (20 يونيو 2006).

xc مايكل د. لينسويك، «من ينتمي إلى حديقة الحيوان»، تايم (19 يونيو 2006)، ص 50.

xci باراتي و هاردوين-فوجييه، «حديقة الحيوان»، ص 114.

xcii بول أ. ريس، «الفيلة الآسيوية في حدائق الحيوان تواجه انقراضاً عالمياً: هل ستقبل حدائق الحيوان بما لا مناص منه؟»، Oryx,

xxxvii/1 (2003)، ص 20-22.

xciii جاك حنا، المدير الفخري لحديقة حيوان كولومبس، من مقابلة مع سنتر ديلي نيوز في 15 سبتمبر 2006: www.asianelephants.com

xciv و. بيفبيدير، «العاج»، (لندن، 1965).

xcv انظر، إيزيو باساني ووليام فاغ، «إفريقيا وعصر النهضة: فن العاج»، (ميونيخ، 1988).

xcvi مذكورة في كتاب هيثكوت ويليامز، «فيل مقدس»، (نيويورك، 1989)، ص 156.

xcvii مذكورة في كتاب مارتن ميريديث، «فيل إفريقيا: سيرة ذاتية»، (لندن، 2001)، ص 72.

xcviii مذكورة في كتاب روبرت ديلورت، «حياة ومعارف الفيل»، (لندن، 1992)، ص 176.

xcix «نهب العاج في مستويات مخيفة: الفيلة على طريقها إلى الانقراض عام 2020»، ساينس ديلي (1 أغسطس 2008):
www.sciencedaily.com/releases/2008/07/080731140219.htm.

c رامان سوكومار، «نهارات الفيل ولياليه: عشر سنوات مع الفيل الهندي»، (أكسفورد، 1994)، ص 163.

ci ريتشارد ي. ليكي، «حروب الحياة البرية: معركتي من أجل إنقاذ فيلة كينيا»، (نيويورك، 2001).

cii رودي فان أورد، «ما المقصود بأعداد كبيرة»، أفريكا جيوغرافيك، xiv/3 (أبريل 2006)، ص 38.

ciii انظر www.asiannature.org.

civ انظر www.bbc.co.uk/nature/animals/features/310feature1.shtml.

cv كارلتون وارد، «أرواح الصحراء القلقة»، أفريكا جيوغرافيك، xv/6 (يوليو 2007)، ص 34-41.

cvi ليندسي غيلسون و كيث ليندساي، «العاج والبيئة: تغير وجهات النظر

في إدارة شؤون الفيل والتجارة العالمية بالعاج»، إنفايرومنتال ساينس أند بوليسي، 2003) vi/5)، ص 412.

cvii نفس المرجع، ص 417.

cviii انظر

www.ifaw.org/ifaw/dimages/custom/2_Publications/Elephants/ElephantCullDebate.pdf

cix www.fao.org/docrep/005/ad031e/ad031e05.htm#bm05.1.

cx بول مانجر، «الفيلة هي الفيلة»؛ دافني شيلدريك، «نوع قريب»، أفريكا جيوغرافيك، xiv/3 (أبريل2006)، ص 25-6.

cxi انظر على سبيل المثال، مجلة نيتشر، 433 (2005)، ص807.

cxii رومان غاري، «جذور السماء»، (لندن، 1958)، ص 108، 112.

نبذة عن المؤلف:

أستاذ مساعد للغة الإنجليزية في جامعة رودس، غراهامس تاون، جنوب إفريقيا. كاتب متنوع المواهب، له مؤلفات مهمة عن تاريخ الزولو، بالإضافة إلى مجموعات شعرية نالت العديد من الجوائز. ومن بين كتبه:

"أسطورة الحديد: الشاكا في التاريخ" (2006)، نال عنه جائزة فايس تشانسيلور في نيسان 2009. "انتماء سام؟ الهوية والبيئة في جنوب إفريقيا" (2008). "متعة وحشية: أساطير شاكا البيضاء" (2001). "أوراق ميتة: سنتان في الحرب الرودسية" (2002)، ويسرد فيه مذكراته عن الحرب في رودس.



نبذة عن المترجم:

من مواليد سوريا عام 1977، ومجاز في الطب البشري من جامعة دمشق. ترجم عدة كتب عن اللغة الإنجليزية منها: المرفأ المظلم، قصائد للشاعر الأمريكي مارك ستراند (وزارة الثقافة السورية، 2002)، النافذة الخلفية (المؤسسة العامة للسينما، دمشق، 2006)، دكتور جيكل ومستر هايد (دار المدى، دمشق،2008)، بالإضافة الى العديد من المقالات والدراسات الأدبية نشرت في عدد من الدوريات والصحف العربية.



الفيل.. التاريخ الطبيعي والثقافي

يستكشف هذا الكتاب حيوان الفيل، الذي يفوق، وفق أرسطو، سائر الحيوانات عقلاً وفطنة. وحضوره ماثل حقاً، عبر تمثيلاته في ديانات العالم وثقافاته، رامزاً فيها إلى الذكاء والقوة والوفاء. وتوكيداً على تلك القوة الرمزية، يتطرق مؤلف هذا الكتاب إلى عدد وافر من الأمثلة، تراوح بين صور غانيش الدينية؛ إله الحكمة الهندوسي، وأعمال الأطفال الخالدة، التي تتضمن دمبو والفيل بابار. كما يتناول تصوير الفيل في الفنون الجميلة والآداب، والأدوار المثيرة للجدل، التي يتعرض لها في حدائق الحيوان، وحلبات السيرك، ويؤكد أنه لم يتبقَ لنا اليوم إلا ثلاث فصائل وحسب؛ فصيلتا فيل السافانا والغابة الإفريقيين، وفصيلة الفيل الآسيوي، وهي جميعاً ترزح تحت وطأة ضغط شديد، يمتد من لصوص العاج إلى تقلص المأوى الطبيعي.





